حيدر حيدر

هجرة السنونو

رواية



هجرة السنونو

* حيدر حيدر

* هجرة السنونو

* جميع الحقوق محفوظة

* الطبعة الأولى 2008

* الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

سوريـــة ـ دمشق، ص.ب: 30249، ☎ 5141441

الفرات للنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان، ص. ب: 6435 ـ 113

☎ 00961 1 750054 ، فاكس: 00961 1 750053

* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر

حيدر حيدر

هجرة السنونو

رواية

إلى أسمى واليمام البزّي

الحياة قصيرة لكن عمر الفن طويل

لورنس داريل

«بالثازار»

1

فوق البحر كان السنونو يطير.

صدره الأبيض عمودي مع السطح الأزرق. عيناه تريان جانبياً الجزرَ وزوارق الصيد وناقلات البترول. رأسه ممتد باتجاه الشاطئ والسهول الخضراء والهضاب. على سلك من أسلاك الهاتف تهاوى متعباً.

كانت الرحلة مديدة، مديدة، شاقة للطائر الرشيق والنحيل.

الطائر القادم من وراء البحار.

من نافذة الطائرة كان الضوء يبدو مغبّشاً فوق السهب والضواحي المضاءة.

ثمة خفقان يرعش الأعصاب.

بعد لحظات سيهبط فوق الأرض التي نأت حوالى اثني عشر عاماً.

تاريخ الغربة والمنفى.

بدت المرأة أسيّة في ذلك المساء. هَذَتْ بين الدموع وخفقان الجسد العاري هذيانات مضطربة حول الرحيل والهجر والزمن الذي يكسر الأغصان عن الشجر ويجرح ورود الروح.

ـ أنت لن تعود.

في السرير ونحن على أبواب المسرّة واللذة تشاجرنا للمرة المليون.

كانت تلك ليلة ما قبل الرحيل.

استدارت كاشحة جسدها والتصقت بالجدار في شبه الظلمة قرب حزمة ضوء القمر التي انسكبت من النافذة.

استندتُ إلى الحاجز الخلفي للسرير وأشعلت سيجارة.

كنتُ في الظليل.

على حافة الضوء والظلمة.

كنا في الصمت العاري.

في الحياة، حياتي، التي عصفت بها الرياح الهوج فبدّدتها، وأنا على أهبة السفر، تساءلت إن كنت أبحث في هجراتي عن أحزاني الضائعة. عن روحي التي تاهت في المفازات والبلدان الغريبة والأزمنة الضيقة.

ـ آه. أيتها المرأة الحزينة والتعيسة أنا لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً. لكم أبدو عاجِزاً عن رأب الصَّدع الكوني في أعماق النفس البشرية.

2

ثلاث محطات مصيرية للقطار تعبر في حياة الإنسان:

الولادة، الزواج، الموت.

وحدها المحطة الثانية، ربما، يمكن الهروب منها استثناء.

مجازاً يمكن تسميتها محطات، بينما تبدو خارج المجاز أشراكاً مغطاة ومموهة بالورد.

حين نجوتُ من شرك الزواج كنت مثخناً بجراحه على مدى ربع قرن. ندهتني ساحرة الهجرات موشوشة:

آن الأوان كي تنجو بنفسك من هذا الجحيم الملعون.

منذ بداية وعيي للعالم كنت أحلم بالرحيل والرغبة الملحة لاكتشاف العالم.

الآن يبدو أن زمن تحقيق الحلم قد حان.

وأنا أخرج من ذلك الجحيم كنت مجوّفاً وطليقاً، مغموراً بضباب التوبة عن الحب والزواج.

ـ على التائب ألا يُلدغ من الجحر مرتين. قلت لنفسي وأنا أتأهب للرحيل.

حين تجاوزت الحدود تنشقت رائحة الحرية. زمن بائد مضى وزمن جديد هوذا يقبل.

صديقي القديم رئيف شاهين اللاجئ والهارب السياسي منذ خمس سنوات استقبلني بحفاوة أرض عطشى للمطر.

ـ أهلاً. أهلاً برائحة الوطن. قال وهو يعانقني: كيفك. كيف البلاد والأهل؟

ـ الحال على حطة إيدك. إن لم يكن أسوأ مما مضى.

ـ وأنت؟

ـ هجرت الزوجة والأسرة. الآن أنا حرّ.

سألني كيف حدث الأمر. قلت سأوضح لك فيما بعد.

جرى حوارنا الخاطف ونحن في الطريق إلى بيته.

شقة رئيف متواضعة. مدخل ضيق مفروش ببساط قديم حائل اللون. يفضي إلى غرفتين صغيرتين ومطبخ وحمّام. في إحدى الغرفتين سريران حديديان مفروشان بفرشتين بائستين فوقهما لحافان وبطانيتان باهتتان ذكرتاني ببطانياتي العسكرية قبل التسريح من الجيش.

في غرفته التيِ ينام فيها، مكتب صغير، تراكمت فوقه كتب ودفاتر ومقلمة؛ هنا يراجع ليلاً، بعد عودته من المؤسسة، الكتبَ التي يصطحبها معه.

في هذه الشقة سنسكن معاً ردحاً من الزمن، قبل استئجار شقة قريبة من البحر. وفي المؤسسة ِالعربية سنعمل سويّة في مراجعة وتصحيح الكتب ومجلة الدراسات التي تصدر عن الدار.

في أمسياتنا الخاصة في البيت سنتحدث طويلاً عن أحوال البلد التعيس المحكوم بالخوف والأمن. يبدو رئيف مأخوذاً بحنين سرّي غامض وحزين. وجهه الصبوح، وهو يجلجل بالضحك حول حادثة ساخرة وهزلية من أحداث الوطن، يختلط بالمرارة.

ونحن نروي عن الاستبداد والفساد وهيمنة الأمن، تلمح دمعة

تكاد تطفر من عينيه الصغيرتين، تكاد تحس بنبضات قلبه وهي تخفق أسىً وغيظاً.

باشمئزاز يهز رأسه وهو يتمتم:

لقد زرعوا البغضاء والانقسام في أعماق النفوس. قذفوا بالبلد إلى هاوية الطوائف الكريهة.

ويضيف يائساً: يبدو ألا أمل هناك. حين أقوم بحركة التفاف بعيداً عن هذا المناخ المكرب وأدخل إلى المطبخ لتحضير السَلَطَة والخضار، يدرك رئيف أنني سئم من الجو السياسي المصدِّع للرأس.

أعود حاملاً صينية الخضار وسطل الثلج. نصبّ كأسين من العرق المشنن بالماء والثلج.

يفاجئ بسؤال: من المسؤول عن ذلك؟

ـ هجري للأسرة أم انهيار البلد؟

أردّ بقصدية ساخرة.

يضحك بطلاقة مرتجّة، مدركاً رغبتي في الحياد.

بإيجاز أشرح له مسألة الهجر وأسبابه.

ـ باختصار، أخي رئيف، أنا رجل لا يصلح للزواج ولو من ملاك أو إلهة. هذا ما اكتشفته مؤخراً بعد عشرين عاماً من الحمرنة. خلاص. التوبة.

وأضفت ساخراً: إذا تزوجت ثانية علّق على مؤخرتي ذنب حمار مدلّى بجرس.

خلال أمسياتنا ولقاءاتنا مع الأصدقاء والمثقفين الذين يعرفهم من اللبنانيين والعرب، أشعر أنني ألج عالماً جديداً. عالم ينبض بالحرية والنقد في بيروت، مدينة الفسيفساء، كما أسماها رئيف ذات يوم.

مدينة لا تشعر فيها بالغربة المكانية. ثمة ألفة وحرية. أنت خارج الرقابة، بل خارج السلطة، مقارنة بمدن العرب التي تراقب مخابراتُها حتى أحلامك الليلية.

ـ لكنها مدينة مهددة بالخراب والموت. يقول رئيف ردّاً على دهشتي بفضاء المدينة الطلق. ويردف: في العمق الاجتماعي والسياسي هذا بلد هشّ. منقسم داخلياً منذ بداية استقلاله. أساسه الطائفي هو جرثومته الأكّالة.

يعتكر مزاجي للحظة. تنشرخ الصورة الجميلة عن المدينة الآمنة حاضنة الهاربين العرب من طغيان بلدانهم.

ـ ومع ذلك تظل أفضل مدن العرب.

يعقّب رئيف بعد أن يحتسي رشفة عرق توما.

3

في الرأس مشاريع مشوشة، مضطربة.

آفاق مبهمة حول مجرى حياتي الجديدة هنا في هذه المدينة الجديدة.

بدوت وأنا أنسحب من زمني القديم شبيه رجل أعشى، يتعثر في عالم من الضباب. ومع أنني كنت مغتبطاً بهذا التغيّر المناخي والعالم الجديد، ممتلئاً برغبة الاكتشاف والتوق للحرية، غير أن شيئاً ضاغطاً كان ما يزال يثقل روحي. عزوت الأمر إلى الآثار القديمة المتراكمة، وبقايا التهشيم والجروح التي عانيت منها جرّاء زواجي المبكر والفاشل.

أحاول عبثاً التدرب على النسيان، وإقصاء آثار الجرعات السمّية من الخلايا، في الوقت الذي أحاول فيه التكيف مع عالمي الجديد. من خلال مسيرات طويلة منفردة أحاول التعرّف جغرافياً على المدينة. الشوارع والأزقة، والأحياء، والمطاعم والبارات، والفنادق والمسارح ودور السينما.

كورنيش البحر وصخرة الروشة ومقاهي الأرصفة.

ـ لا أحد ينظر إليك هنا، كما لا أحد يعرفك.

أقول لنفسي دونما إحساس بالغربة.

هي ذي مدينة محايدة، غير فضولية لا تهتم بالآخر. هل هو حياد المدينة أم الناس؟ تساءلت.

في مرحلة الترميم والاكتشاف التي أعبرها كان رئيف حميمياً وشهماً. أخذ بيدي في المسالك الصعبة، والعمل الوظيفي، كما نوّرني من خلال تجربته عبر السنوات الخمس بأمور أجهلها.

روى لي عبر حواراتنا الوضع الطائفي للبلد، والحالة المقلقة للوجود الفلسطيني، واحتمالات الحرب جرّاء هذا الوجود.

- المسلمون بحاجة للفلسطينيين للحماية والطمأنينة، وهم يدعمون وجودهم. لكن المسيحيين يشعرون بالخطر. المعادلة الطائفية تهتز وتنكسر ديمغرافياً وهيمنة.

كسياسي يساري معارض، لا يخفي رئيف انحيازه للمقاومة رغم أخطائها، والتجاوزات الفظة والبلطجة والتشبيح من بعض العناصر أو الفصائل. يعزو الأمر لسنوات التشرد واللجوء والفقر والقهر، والإحساس بفقدان الوطن.

في السياق يرشق الأنظمة العربية المنحطة والمستبدة والمعادية لشعوبها وللمقاومة، بحفنة من الشتائم.

يتحدث عن وجود الديمقراطية اللبنانية رغم الفرز الطائفي. يسميها ديمقراطية التعايش المذهبي.

حين أعلق على احتمال الحرب بأنها ستكون عشوائية وقبلية كحروب الجاهلية، يقول رئيف: ستكون مذبحة، لن ينجو منها أحد. الحياد سيبدو ضرباً من العبث. العرب وإسرائيل، وسوريا تحديداً، لن يكونوا بمنأى.

ويضيف غاضباً: أخي هزيم خلّيها تخرب وتحترق. لا أعني لبنان إنما بلاد العرب. ألا ترى كيف أننا خارج التاريخ يا رجل!

كنا نشرب القهوة وندخن في بيته بعد الغداء.

بدا عصبياً، يفيض مرارة وحنقاً، وهو يحرك يديه ويقلّص غضون جبهته: عليّ وعلى أعدائي. نحن لن نخسر شيئاً إذا

مـانفجرت هـذه الأرض ـ المزبلة التي تفوح منهـا روائح الاستبداد السياسي والطائفية والعماء الديني. هذا ما أسميه التطهير الثوري.

أهزّ رأسي معترضاً على العبارة الأخيرة.

ـ لكن هذا التطهير الثوري الذي تحلم به سيقوده الإسلام السياسي لا الماركسي ولا القومي.

ـ لا أحد يعرف الآفاق القادمة، أنا أقول بأنها ستكون حقبة الفوضى والتفكك والدم.

أتأمله في غضبه المشع من عينيه المحرورتين. هذا المجروح المترنّح بين الأمل واللاأمل، يبدو فريسة وهم ورغبة كامنة لتغيير العالم.

هو الآن ربما يستعيد ماضياً منسياً عشناه معاً في دمشق. ماضٍ قديم، يوتوبي، يبدو الآن عبثياً وخاوياً قررت نسيانه والخروج منه بحركة هروبية قد لا تكون مجدية.

في برهة صمت انهمرت كآبة لفّتنا بسوادها المخيّم في فضاء الغرفة.

حالتي الراهنة تشبه حركة النوّاس.

في الداخل انفصال ذرّي للنفس. وبقدر ما أبدو مباغَتاً بالعالم الجديد، أحس بالتوجس من مجهول غامض قد يفاجئني في منعطف ما.

لست تعيساً لأنني غادرت المرأة التي ما عدت أحبها. هي الأخرى نبذتني باحتقار وتتهمني بالانحلال الأخلاقي، والإلحاد، والإدمان على الكحول والمقامرة.

فعلي مدى ثمانية عشر عاماً كنّا في حالة نزاع ونفور وتناقض كوني، ولّدت فينا شروخاً وأحقاداً، وكراهية مقيتة لمؤسسة الزواج الحمارية كما سيسميها رئيف في لحظة إشراق.

ـ هل أنت متأكد بأنك لن تدخل هذه الحظيرة؟ أسأله.

يهز رأسه قرفاً: قبل أن أهرب إلى هنا عشت عاماً في بيت أخي المتزوج، يا رجل لديه امرأة لا يمكن أن تكون إلا من نسل الشيطان. امرأة مستبدة، غيورة، امتلاكية وأنانية. ربّها المال والثياب والموضة والماكياج، والتنقيب ولو تحت أظافر زوجها بحثاً عن آثار امرأة.

ـ فررتَ منها إذن لا من السلطة السياسية! علّقت ساخراً.

ـ من الشيطانين معاً.

كنت مؤرقاً بهاجس البحث عن بيت خاص. كما كانت هناك رغبة لكلينا في الحرية والاستقلالية الخاصة.

خلال حوارنا حول البحث عن البيت حدثني عن شقة امرأة يعرفها ستسافر قريباً إلى إسبانيا، حيث يعمل أخوها ملحقاً عسكرياً في سفارة سوريا بمدريد.

ـ سأعرفك عليها يوماً ولكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ احذرها. وأضاف مازحاً: أفعى ناعمة في إهاب أنثى. إذا وقعت، وأنا اعرف تكّتك الرخوة، سأقرأ عليك آية الجنازة.

ابتسمتُ: أنا أريد بيتها وحسب.

ـ لقد أُعذر من أنذر.

وروى جانباً من علاقاتها الأخطبوطية مع سياسيين ورجال أعمال وشلة صحافيين بارزين: كونتيسة صالونات من الدرجة الأولى.

وسألته إن كانت متزوجة، فقال بأنها مطلقة للمرة الثانية.

ـ وكيف عرفتها؟

ـ كنا معاً في الجامعة بكلية الآداب قبل أن أغادر دمشق.

وشرح بأنها كانت تحيا مع صديقتها العراقية في شقة مفروشة في منطقة الرملة البيضاء المطلة على البحر.

روى انطباعات عن شخصيتها القوية والجريئة حتى حدود الوقاحة أحياناً.

فاجأني بأنها تعرفني سماعياً من خلال حديثه عني قبل أن أجيء إلى بيروت.

توجست من سيرة هذه المرأة المخيفة.

في مخيلتي أقمت جداراً بيننا.

ـ مالي ولبيتها هذا؟ أما كفاني ما أنا فيه من لسعات الأفاعي وسلالة الفراعنة.

4

كي نحتمي من اللفح الكاوي للزمن الراهن نستعيد الزمن الماضي، زمن الطفولة والفتوّة وعفوية الحياة التي عبرت.

يتدفق تيار الذاكرة باتجاه ما نتخيله: الزمن الوضّاء والنقي هرباً من الزمن المعتكر.

في مجرّات الذاكرة المشوّشة يلوح بيت في المرتفعات، مطوّق بأشجار التوت والمشمش والرمان والتين. بيت واسعٍ مبني من حجارة المقالع سقفه من الحطب والبلاّن والطين أيضاً، وجدرانه الخارجية مطلية بالطين. حيطانه الداخلية حوّرتها الأم بالحوّار الأبيض، وفي وسطه تنهض أعمدة قوية من شجر السنديان تسند عوارض السقف.

بيت العائلة ردهة ترابية فسيحة غير مفصولة سوى بغرفة المؤونة. القسم الأعلى قليلاً أرضه بيضاء، مخصص للمبيت والسهر، وسطه موقد الحطب. السفلي للحيوانات والعلف وبين القسمين درج صغير من الحجر المطينّ.

في كل عام تقوم الأم بطلاء البيت بالحوّار بمساعدة الجيران.

ساحة البيت الخارجية فناء واسع، تنهض فيه شجرة التوت الخضراء الوارفة، مسوّر بالحجارة وأكداس الحطب.

لقد بنى الوالد في الجهة الشمالية ما يشبه غرفة استحمام وموقداً للطبخ، ورفّاً خشبياً للطناجر وصحون الألمنيوم والملاعق الخشبية، وعلى رفوف من العيدان تبيت طيور الدجاج.

الزمن رعوي - زراعي. على مسافة ميل من الهضبة الشبيهة بتمساح ممدد يتموج السهل الأخضر، المسمى وطى البحر. هناك أراضي الفلاحين المزروعة بالفستق والباامياء والباذنجان واللوبياء والبطيخ الأحمر والذرة الصفراء.

حركة الزمن والمكان إيقاعها بطيء.

أصباح ونهارات تتوزع بين عمل الأرض أو الرعي. تتجمع الأبقار والغنم والماعز في ساحة القرية ليسوقها الرعاة نحو السهول المنخفضة.

المساءات حكايا وأحداث يومية، رتيبة ومملة، يجترها الفلاحون أبداً. يقطع سياقها الموت أو أيام الأعراس والأعياد الموسمية.

يبدو الزمن دائرياً. يعود بحركته اللولبية من النقطة التي بدأ منها.

- باسم الله مجراها ومرساها. يقول الفلاحون المؤمنون في أوقات الفرج والضيق وفي أوقات الجفاف والخصب.

لكم يبدو صعباً اختراق الزمن والسفر عبر حجب الماضي. اختراق يشبه الغوص في أعماق بحر مضطرب وعكر، بحثاً عن لآلئ مستوهمة في شقوق الصخور.

الطفل الذي يحبو في صحن البيت الترابي وهو يبعثر الأشياء ويخنق الطيور عن غيرما قصد وهو يداعبها، ليس الرجل الراهن الذي يستعيد مدارات الأزمنة الآن.

والولد الشقي الذي يجوب البراري والأودية بحثاً عن أعشاش الطيور وفراخها المزغبة، وينصب الفخاخ لطيور السمّان مع أترابه الأشقياء الهاربين من المدرسة والبيت، سيكون في غمرة الصيد غافلاً عن العقاب الذي سيناله من الأب القاسي إثر العودة من براري الحرية.

سيرتعش الأخ الأصغر من الرعب وهو يرى المشهد، مشهد العقاب الصارم.

يُهرع نحو حضن الأم ملتمّاً بين ذراعيها وهو يصرخ: لا. لا. ماما. احمنا من الموت. دخيلك.

كان الأب يجلد بوحشية ضارية، الولدَ الشقي بقضيب الرمان، وهو مقيّد إلى عمود البيت.

ـ كفى. كفى. حرام عليك ستقتل الولد. تصرخ الأم مستغيثة.

ـ أقسم بالذي اسمه على الماء جَمد سأذبحكَ في المرة القادمة. يدوي صوت الأب الوحشي في أرجاء البيت الحزين.

من أين تأتي هذه القسوة ولماذا؟ وما الذي يتشكل في أعماق الولد الأسير الكاره لأبيه وهو ما يزال في عمر الورد؟

تبدو الرحلة عبر الزمن شيقة ومتعبة في آن. ها أنت ترويها أو شظايا منها في مجرى نهر الزمن.

وأنت الموثق على ضفافه تحلم بمستقبل مبهم لا تعرف ملامحه ولا ألوانه. وفي لحظات خارجة عن مدار الحلم ينتابك حس الكآبة والشعور بالعبث واللاجدوى مما كان وما سيكون.

وإذ تفكر بالزمن الماضي وجريان نهر الحياة وأحداثها تقول:

يا له من كابوس مضى!

وتكاد ترتاب بوقائع الماضي: هل وجِدَ حقاً؟

لكم يبدو الآن سديمياً ولا معقولاً.

لعلها كانت حياة إنسان آخر، ربما. طويت في الغياهب، وتبددت كما الضوء أو الصوت أو الرؤى الحُلمية.

ـ أنت ما عليه الآن، والماضي سراب!

تقول وأنت ما تنفك موغلاً في الهروب.

5

كان الأب متديناً، صوفياً على نحو ما، بعيداً عن التزمّت والتعصّب الأعمى. يمارس الشعائر والفروض على هواه في الأصباح والأماسي.

النهار للعمل في أرض السهل أو كرم الزيتون. والفجر وآخر النهار لرب العالمين.

ـ الله مسامح كريم يغفر الذنوب. والحسنات يذهبن السيئات.

يقول لمن يعاتبه من الشيوخ المتزمتين حول التقصير.

ترسمه الذاكرة بربعته المتوسطة، ومنكبيه العريضين وشاربه المعقوف، ووجهه الذي لوّحته شموس نهارات العمل والصيد؛ في مقدمة الرأس بداية صلع تحت عمامته البيضاء. حاجبان عريضان سوداوان ينبئان بغضب جاهز للانفجار.

هو الآن في آواخر الأربعينات. تزوج وهو في الثلاثين وماتت زوجته بالحمّى الصفراء (كما كانوا يسمون الملاريا).

ماتت دون أن تلد وبعد عشر سنين تزوج أمي.

وحين ولدتُ، تروي الأم بمبالغة، حملني في اللفائف ودار في أزقة القرية فرحاً وثملاً، وهو يوزع الحلوى على من يلقاه في طريقه، صائحاً: هذا الشبل من هذا الليث.

ما كان مصدّقاً بأن طفلاً سيأتيه وهو في خريف العمر.

يروون عن استقامته ونزاهته.

ـ كان صادقاً لا يخشى في الحق لومة لائم.

كما كان حاداً كالخنجر الذي لا يفارقه. يقول عنه صديقه وحلاّقه عبد الله تامر.

ويضيف بأنه كان محكِّماً في خلافات ونزاعات الأهالي والفلاحين كشيخ متبحر في علوم الدين، وسليل عائلة عريقة تعود جذورها القديمة إلى آل رسول الله، كما يزعم.

ولأنه رجل مستقيم كان يمقت رجال الدين المنافقين والدجّالين الذين كانوا يتسوّلون الزكاة من أبواب الفقراء والمساكين.

وفي أوقات التجلي، بعد كأسين من العرق، يقول عن هؤلاء بأنهم ببغاوات وحمير سيدخلون جهنم ومن بعدهم الكافرون.

وحين كان يُسأل عن تعاطي الكحول وهو شيخ مؤمن، يرد: أنا على دين عيسى المسيح. قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان.

ويضيف: أنا لا أقرب الصلاة مخموراً.

ـ مرّة على دين محمد ومرّة على دين عيسى! كيف هذا يا شيخ اسماعيل؟ يسأله صاحبه وكاتم أسراره عبد الله تامر، بحضور بعض السامرين قرب موقد النار.

ـ اسمع أخي عبد الله. حين تتعمق في أسرار الكون، وتلج ينبوع الصفاء الروحي الداخلي، وتنسى تفاهة الحياة المادية وقشرتها الزائلة متأملاً فناء الوجود الظاهري للإنسان ودخول الروح في مرتبتها السماوية، آنذاك تتساوى الأديان كلها لديك.

ويضيف، وهو يحسو من كأسه بهدوء: في تلك اللحظة الصوفية لحظة الفيض، والرؤية الأعمق خارج الحواس الخادعة، يتآخى ويتوحد الإنسان مع الإنسان ومع الطير والحجر والشجر والماء والنجم وجميع مخلوقات الله.

يشعر السمّار بانجذاب وخشوع داخلي وهم يستمعون إليه.

يتابع مأخوذاً بعبق النشوة: الله واحد والدين واحد. والإنسان خُلق على صورة الله كأرقى مخلوق وهبه الله العقل الجزئي الكافي لهدايته لأن الله هو العقل الكلّي المحيط بالكون.

حين يشعر بأنه أبحر في الأعماق والتيه اللاهوتي والصوفي، يدرك بأن الآخرين تاهوا عبر السماوات، يعود إلى الأرض: الإنسان هذا المخلوق التافه والذي توحّش عبر الزمن، قسّم الله وعدّده، ثم قسم الدين إلى قبائل وطوائف ومذاهب وشيع، ثم أشعل نيران الفتن والحروب وشرّع القتل في أرجاء الأرض.

ويضيف غاضباً: الشيوخ والأئمة والرهبان والقساوسة والحاخامات هم أعمدة هذه الحروب الدينية على مدى العصور. قسموا الأديان وفرّقوها إلى ما هي عليه من الكراهية والحقد ليكونوا سادتها وكهنتها وآلهتها على الأرض.

6

سأتعرف على هذه الإشراقات الغريبة بعد موته، من خلال الرسائل السرّية والمخطوطات المتناثرة التي احتفظ بها في صندوق خاص أوصى أمي بألا يفتح سوى بعد وفاته.

بين هذه الرسائل والمخطوطات كانت هناك كتابات بالفارسية والهندية لا أدري من أين وكيف وصلته. وحين سألت الأم أن كان الوالد سافر في شبابه إلى بلاد فارس أو الهند، نفت ذلك لكنها سمعت بأن الجدّ الكبير سافر في رحلة حجّ سرّية إلى إيران وبلاد الهند طلباً للعلم مع بعض المتفقهين في علوم الدين، وأن تلك الرحلة استمرت خمسة أعوام.

الآن يلوح على شاشة الذاكرة شبح رجل كان يكرز في الأغساق، وهو يتلو بسرّية كلمات غامضة وسحرية قرب الخيمة في الوادي القريب من البيت قبل أن يبني معتزله، أو على تخوم الأرض البحرية حيث شيّد عرزال القصب.

بعد أن ينهي صلواته تبدو في وجهه، على ضوء فانوس الكاز، مسحة من الضياء والحنان والشفافية الروحية والسكينة الإلهية.

ما عاد ذلك الرجل القاسي أو المتوحش الذي ينفجر بالهياج والغضب. كم يبدو إنساناً رحمانياً يفيض بالحنان والمحبة وهو يضمني بين ذراعيه.

ـ الإنسان يا ولدي قطبان. يتعايش فيه الشيطان مع الرحمن.

قابيل وهابيل. آدم وإبليس. المسيح ويهوذا. صراع الخير والشر. النور والظلمة. إنه صراع أبدي في أعماق النفس البشرية.

ـ وكيف ينتهي هذا الصراع؟ أسأله.

ـ بالموت.

ـ وهل الموت حق كما يقول الدين؟

ـ في حالات المرض والهرم ونفاد الطاقة الخلاّقة. نحن ياولدي نولد لنموت ونموت لنولد من جديد. هذه هي ديمومة الخليقة إلى يوم القيامة ونهاية العالم.

ـ وكيف ستكون نهاية العالم؟ أسأله.

يضحك بسخرية مرّة: بالحروب والأسلحة الفتاكة والأوبئة وانتشار الفساد بعد أن تموت الروح وتنتشر الفوضى والظلمة ويتحول الله إلى مادّة وسلعة في السوق. آنذاك لا تعود الأرض جديرة بالإنسان الوحش.

7

سأزيح من رأسي تلك المرأة التي حدثني عنها رئيف والتي سمّاها إيفا السعدي، وألا أفكر بشقتها المؤجلة، هرباً من تاريخها الغامض والمشبوه، وما أنا بغنى عنه.

أفصحت لصديقي رئيف بتأجيل فكرة الشقة المؤملة، وضرورة البحث عن سكن متواضع حتى ولو كان غرفة مع مطبخ.

بعد خروجنا من المؤسسة توجهنا إلى مطعم متواضع يتسع لخمس طاولات متجاورة، يعرفه ويتردد عليه مذ قدم المدينة.

ـ أهلاً مسيو رئيف. كيف بيكون حالك خبيبي.

ـ ماشي الحال معلم آغوب. هذا صديقي هزيم.

ـ أهلاً مسيو هزيم. بيكون بلدياتك رئيف؟

ـ بلديات أصلي. شرّيب عرق بيعجبك.

ـ شف مسيو رئيف. العرق مشروب قبضايات رجال.

واستطرد مازحاً: بيكون شرّيب عرق يعني ضرّيب نسوان من درجة ممتاز.

ضحكنا عالياً.

آغوب طويل القامة، نحيف. في حوالى الخمسين من العمر، حنطي الوجه مع شعر خفيف وأنف أشمّ، يرتدي صدارة كحلية فوق ثوبه الأبيض. يبدو صارماً وقليل الكلام سوى مع من يعرفهم.

كان رئيف قد أوجز لي نبذة عن حياته. وحده يديرهذا المطعم الذي ورثه عن والده بعد هروب الأسرة من مذابح الأرمن والمجزرة التي ارتكبها الأتراك حين لجأت أسرته إلى الشمال السوري ومنطقة الجزيرة مع آلاف الفارين من المذبحة.

المطعم الصغير مشهور بمأكولاته الخاصة: قوانص دجاج مقلية، سجق، تبولة، كبة مشوية أو مقلية، طرطور، محمّرة، طرشة فليفلة خضراء مع الباذنجان والبيرق.

هذه الأصناف جميعها مبّهرة وحارّة تكوي المعدة والمؤخرة. يشرح رئيف.

ـ مطعم كهذا مدهش لبساطته وحميميته.

ـ لكن عليك أن تأتي مبكراً، وإلا كما ترى، فلن تلقي طاولة لضيق المكان.

خلال الغداء حدثني رئيف عن شقق مفروشة في شارع الحمرا والرملة البيضاء.

ـ منذ الغد ندور على مكاتب الإيجار.

غمز: هل مللت من سكنانا معاً؟

ـ ليس الملل. إنما الاستقلالية والراحة الخاصة لكلينا.

ـ والنساء أيضاً.

ـ الآن بيني وبينهن برزخ. لست كارهاً للنساء لكنني لا أرغب أن أُلدغ ثانية.

خلال الشهر الذي أمضيناه معاً في بيت رئيف، وعبر لقاءات العمل والتسكع في الشوارع، وارتياد البارات والمقاهي والمطاعم، تعرّفت على المدينة المزدحمة كيوم الحشر بالسيارات والضوضاء والزحام. ورغم هذا بدت لي هذه البيروت من أجمل المدن العربية

في حيادها عن الآخر، والحرية الفردية، بعيداً عن عيون المخبرين، والفضوليين.

حين أنعزل وحيداً في مقهى «عروس البحر» أعبر مجرات من التأمل الداخلي. كيف حدث ما حدث؟ وهل ما قمت به وما تلاه من رحيل كان صائباً؟ وإلى أين المآل في نهاية المطاف؟

وإذا ما انفجرت الحرب ما مصيري وأين سأكون؟

وهل إذا ما نجوت من الموت سألوذ بمدن أخرى؟

والآن أنت بلا وطن أيها السيد الهارب، ولا بيت ولا امرأة، رجل فائض ومعوّم، تتشرد فوق سطوح مدن العالم. تلاحقك لعنة أطفالك الذين غادرتهم في ليلة عاصفة، بعد شجار مع المرأة الكارهة.

كانت ليلة الصدام ماثلة كوشم على جدار الروح. كلاهما كانا في مهبّ عصاب مجنون وأعمى. وتحت هذا الإعصار الداوي من الأصوات والبذاءات المتبادلة، لاحت ملامح جريمة يمكن أن تُرتكب في تلك الليلة اللعينة.

كان الأولاد يصرخون بأصوات مذعورة، وكان الأب والأم مشتبكين في عراك وحشي. وعلى بعد أمتار كان المسدس في درج الكومودين، وفي الخزانة بندقية الصيد، وبدا الوصول إلى أحد هذين السلاحين ينذر بكارثة. وتحت عاصفة العمى والجنون وأمواج الحقد سُمعت صرخة الولد الأكبر: بابا. بابا. لا تقتل أمي. أبوس إيدك ورجلك.

جرى نحوي وهو يرتعش. أظن أنني كنت مندفعاً نحو موقع المسدس حين اصطدمت بالولد.

كان ينشج بحرقة، ويُصدر مع أخوته أصوات استغاثة، أصوات اختلجت في أعماقي كدوي ابتهالات عبر فضاء مأتمي ذكرتني بأصداء نشيجي يوم مات أبي.

آنذاك تراجع جيشان الغضب الأعمى. همد تراشق الشتائم. كانت المرأة مشبوحة فوق ديوان الصالون وهي تئن وتنهنه.

ـ واه. يا للجنون! لا أدري إن كانت سُمعت في فضاء البيت أم أنني هجستُ بها سرّاً وأنا أتقصّف تحت النوبة العاصفة.

احتضنت الأولاد واستلقينا على السرير. قبّلتهم وطوقتهم. انغمرنا في بحر من الدموع التي اختلطت وامتزجت فوق الخدود والوجوه.

غادرتُ المقهى. سرت على كورنيش البحر تحت سحابة من الكآبة والاضطراب، تنفست عميقاً كاشحاً الذكرى المؤلمة باتجاه أمواج البحر.

وأنا أدخن فوق الرصيف البحري فكرت بالإنسان والوحش. بالشيطان والرحمن. العاقل والمجنون. هذه الأضداد المتصارعة في أعماقنا، وتساءلت إن كانت ولدت فينا من خلال الجينات الموروثة أم أننا اكتسبناها من العالم المحيط؟ وأين تسكن؟ وأنت لا تكاد تعرف متى تخرج إلى سطح الوعي ومتى تتوارى في كهوفها. وتدرك بأنك موثق ومؤرجح بحبال هذه الجملة العصبية المتحكمة بالأعصاب والدماغ وغليان أو برودة الدم. وحين تسأل عن الحرية والإرادة والوعي لا يساعفك جواب مقنع، فتقع في الفوضى والحصار والعبث.

هذه الأفكار التي تنتابني الآن حول الجينات والموروث السلالي تعيد تشكيل الحادثة المشؤومة التي حدثت في الطفولة، حين جُلدت بلا رحمة على يد ذلك الوالد القاسي وأنا دون العاشرة من عمري، وكيف صرخ أخي تلك الصرخة المدوية الشبيهة بصرخة ولدي حين اندفعت لأخرج المسدس وأطلق النار على أمه.

وتساءلت: أي قدر أو مصير سنؤول إليه إذا ما كنا محكومين بهذه المورّثات؟

وما هو الفرق بيننا وبين الحيوانات إذن؟

أزحت هذه الأفكار والأسئلة المصدِّعة للرأس. انعطفت نحو بيت رئيف، كنّا على موعد في الساعة الرابعة مع أحد المكاتب العقارية لاستئجار شقة في منطقة الرملة البيضاء.

8

من خلال الطبيعة تجذرت علاقتي مع العالم، كنت أحسّ بأنني جزء منها. صيفاً على شاطئ البحر، وبقية الفصول في فضاء الريف.

كان البيت على حافة الوادي، ومن الوديان والهضاب كانت أمي تأتى برزم الحطب على ظهرها للتدفئة في الشتاءات، والإيقاد تحت القدر الكبير حين نغتسل أيام الجمعة من كل أسبوع، ولطبخ الطعام في طناجر النحاس.

كنا في عصر الحطب والطين، قبل زمن الكهرباء والإسمنت. فالسهر أو مراجعة الدروس كانت على ضوء سراج الكاز، فوق صندوق عرس أمي الخشبي المطرّز بأزهار ملونة ومنقوشة، حال لونها إلى الرمادي مع تقادم الزمن.

كانت التدفئة على حطب الموقد في بهو البيت الواسع المفروش بالحصر واللبّاد والبسط وجلود الغنم.

ذاكرتي مفعمة برائحة دخان النار، وروائح روث الحيوانات، وشواء الطيور التي يصطادها الوالد من البراري. تتنامى مع الروائح الحكايات التي تروى في ليالي الشتاء العذبة.

حكايات تدور حول الصيد وجنيّات وادي الغار وعيون الماء والسندباد الخارق وبطولات الزير سالم وتغريبة بني هلال.

كان السهارى غالباً ما يروون مغامرات مبالغاً فيها.

فالصياد جبر ساعود، المعروف بخرطياته اللامحدودة، يروي عن محاولته الخائبة في قتل حنش دغلة «المعاصر» المؤلِّفة، الأفعى ذات الحراشف التي لم يخترقها خردق زرد بندقيته الموزر، مضيفاً بخياله الجامح، وهو يقسم بأغلظ الإيمان، بأن طولها لا يقل عن العشرين متراً، وبضخامتها تستطيع ابتلاع فحل ماعز.

ـ فحل ماعز أم ثور؟ شو ها الخرطية أبو عادل. تخّنتها!

يعلّق أحد السمّار ساخراً.

يمتعض جبر شاعراً بالهزء منه فينسحب وهو يبربر.

تتواتر حكاياتهم من حكاية أفعى جبر إلى حكاية الراعي إسبر عيسي الملقب بالبنيوطي، كيف أسر الضبع المفترس في مغارة الشرشار، وجاء به إلى ساحة الضيعة مربوطاً بجنزير ليتفرج الأهالي عليه، هاتفين ببسالة وجرأة الرجل مخلّص القرية من الوحش الذي روّع الناس وكاد يبيد قطعان الغنم والماعز.

حكايات كانت تشحن المخيلة وتثريها بصور البطولة والرهبة. وأنا أستمع للحكاية حلمت بأنني «البنيوطي» ومعي خنجر مسنون قطعت به رأس الضبع وأتيت به إلى الساحة، ولأكون أكثر شجاعة تحوّل الضبع إلى نمر مفترس صرعته بقوتي الخارقة، سلخت جلده، ثم جففنا الجلد بالملح وبعد أسبوع فرشناه قرب النار ليجلس عليه والدي كزعيم لقبيلتنا البطلة.

كنت أحب هذا الأب ـ الزعيم رغم قسوته. هو كان ينزع لأكون وريثه في سياق التفكير الديني والسلوك، أما أنا فما كنت لأدري ماذا سأكون سوى هذا العاشق للطبيعة وفضائها السحري.

نادراً، سوى في حالات جموحي، ما كان يعترض على حريتي والروح العاصية التي يظن بأنها من صلبه ودمه. كان ينهاني عن الكذب والسرقة والاعتداء على الآخرين، ومعاشرة الأولاد الفاسدين.

على النقيض منه كانت الأم؛ امرأة وديعة عطوفة وكريمة في

عطائها. هي الأخرى كانت متدينة رغم أمِّيتها. شفوية في ترديد كثير من الآيات والأدعية، خاصة في الليل قبل النوم، وفي أوقات الشدّة والضيق. حفظت من قراءات الشيخ الدينية الكثير.

ومع أنها تؤمن بنزاهة رجلها وصلابته وعمق إيمانه، لكنها كانت نكِدة ومجادلة وفضولية، تثرثر، كما النساء القرويات، معهن في أوقات القيلولة وإبان الأعراس والولادات.

هو وهي كانا قطبين متنافرين. هو بأنفته وعزّة نفسه، وثقافته الدينية التي يتباهى بها حتى على الشيوخ الذين يسِمُهم بالجهَلة والببغاوات، كان يطل من أعالي جبله المرتفع، فيرى زوجته في وادي الجهالة والدونية، آنها تفيض نفسه بالاحتقار والشعور بالمرارة لزواجه الخاطئ والفاشل.

في أوقات خاصة وبعد شجارات حادّة مع الأم كان يسرّ لي بالمرارة التي تضغط على روحه.

ـ لقد تزوجنا مصادفة دون حبّ يا ولدي. هي مات زوجها وأنا فقدت زوجتي مبكراً. حدث الأمر في لحظة غفلة.

ويستطرد: كان زواج حاجة وضرورة أكثر منه زواج حبّ وعاطفة.

بعد أن أصبح في عمر الفتوة وبداية الإدراك سأفهم الشرخ الذي راح يتعمق بينهما حتى تاخم حدود الهجر.

سيبني غرفة صغيرة من الحجر والحطب والطين في سفح كرم الزيتون الذي اشتراه منذ عشرة أعوام. ساعده في بنائها، على مدى عشرين يوماً، بعض خلصائه ومريديه من الأهالي، وفي مقدّمهم صديقه المحبّ عبد الله تامر.

ستكون شبه منسك له وملاذاً، هروباً من جو البيت المشحون بالشجار والبغضاء.

عبد الله تامر. حلاّق القرية الملقب بأبو علي هتلر لأنه معجب بالزعيم الألماني، كنا نحن الصبية الأشقياء إذ نعبر أمام باب دكانه نصيح بأصوات عالية: يسقط هترل يسقط. كالسهم يندفع ومعه موسى الحلاقة مهدداً: يا أولاد الحمير. هترل هذا صديق العرب وعدوّ اليهود. ثم يردف جملته ببصقة تطال الجدار المقابل للزقاق.

بعد بناء المعتزل يساهم عبد الله في زراعة بعض الأشجار المثمرة والورود حول الغرفة. خلال عمله مع الشيخ أو في أوقات الراحة وشرب منقوع الزوفا البرّية سيسأل الشيخ اسماعيل عن سبب ميله للوحدة والاعتزال وجنوحه للزهد فيجيب الشيخ: عبر التأمل وأنت في هذه البرية الصافية تتوحد مع الروح الكلية للكون بعيداً عن دناءات العالم.

ويضيف: سأبوح لك بسرّ قد تراه غريباً. في أوقات خاصة وأنا أسبّح باسم الخالق الحي وأتأمل عميقاً في أسرار الكون، أسمع أحياناً صوتاً يذكرني بصوت جدّي الذي حج إلى بلاد الهند وفارس طلباً للعلم. كلماته تحرضني على الانسحاب من هذا العالم الفاسد.

وكمأخوذ يشرح لصديقه عبد الله عن ضرورة تبديل الجلد الحيواني وارتداء ثوب النور، لأن الدنيا أنتنت وتحولت إلى مستنقع نحن عرايا فيه يأكلنا الدود.

ـ هؤلاء البشر الذين تراهم هم أشباه بشر. الروح فسدت وبعد فساد الروح يُمسخ الإنسان إلى الدرك الحيواني.

الجانب الدنيوي في أعماق صديقه، المحدود الثقافة سوى ثقافة الحياة، يسأل الشيخ إن كان يحلم بعالم من الملائكة على الأرض؟

ـ الحياة الدنيا زيّنها الله للبشر في العمل والمال والبنين والصداقة والتعاون ومحبة الآخر. ما معنى وجود الإنسان في الكون بعيداً عن هذه القيم؟ يسأله عبد الله.

ويضيف: ألم تعلمنا بأن الإسلام دنيا ودين من خلال قول الإمام علي: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً؟

ينبر الشيخ بحزم رجل الدين المتعالي: ثمة فرق بين الخاصة والعامة. الخاصة من الأصفياء والمطهرين من الرجس يبيعون الدنيا من أجل الآخرة.

يسخر عبد الله: والعامة يبيعون الآخرة من أجل الدنيا؟ شيخي اعتبرني من العامة وحصتي من الآخرة زكاة مني إليك. هذه الأرض معاشنا ومسرانا ومأوانا ومدفننا. هذا ما أراه ولو اعتبرتني من فصيلة الحمير.

9

ليلاً احتفلنا بالشقة الجديدة المطلة جانبياً على البحر. غرفة واسعة بسريرين، مفصولة عن المدخل بحاجز خشبي، المطبخ والحمام مفصولان أيضاً بستارة قابلة للانزياح من خلال حلقات.

على الشرفة الغربية ركّزنا كرسيين مع الطاولة اليتيمة، وشربنا نخب الحرية السكنية، مصيدة النساء، كما عبّر رئيف، مجلجلاً ضحكته.

ـ فكرتك عني خاطئة. قد تضحك مني إذا قلت لك بأنني أحس الآن بحالة تشبه الخِصاء. عنيت موت الرغبة والعزوف عن الأنثى.

ـ حالة آنية وعابرة جرّاء الصدمة، بعد وقت من النسيان والاندماج في أجواء المدينة ستشفى من هذا الخصاء العابر.

تحدث رئيف عن جو الحرية والانفتاح بين الجنسين، وتحديداً في القطاع المسيحي المتأثر بالمناخ الأوروبي، الفرنسي خاصة: الأم الحنون قبل أن ترحل جذّرت تقاليدها الاجتماعية إضافة إلى الولاء السياسي.

سألته إن كان سيتزوج، أو فكر بالأمر، فنفى. واستطرد بين الابتسام والسخرية: أية امرأة حمقاء ستقبل رجلاً سياسياً مطلوباً ومشرداً ولا وطن له!

لم يكمل رئيف دراسته الجامعية. اعتقل وهو في السنة الثالثة بكلية الآداب مع مجموعة من كليات أخرى بتهمة نشاط سياسي

معادي للنظام. بعد التحقيق عبر حالات منشطة للجسد تحت إيقاعات الصفع والركل وأزيز السياط، والتعليق باليدين في السقف، والحروق بالسجائر في المناطق الحسّاسة، جاءت المنشطات النفسية عبر البذاءات والشتائم، والأصوات الليلية لعذابات المعتقلين، والتهديد بالقتل، والحرمان من الخروج إلى ساحة التنفس.

بعد عامين سيخرج بكفالة، ويوضع تحت المراقبة الأمنية. أخوه العقيد في الأمن العسكري سيأخذه على عاتقه بعد أن وعده بألا يعود إلى العمل السياسي.

يروي رئيف بأن الأخ الفهلوي لقنه درساً تأديبياً في اللاهوت السياسي والطائفي. وشرح له الخطر المهدّد لجماعة الأخوان المسلمين الإرهابية والمسلحة من قبل صدّام. هؤلاء القتلة سيغرقون البلد في بحار من الدم والقتل الطائفي.

ـ نحن مهدّدون بالإبادة إذا ما تعرّض النظام للسقوط. يقول العقيد. هذا ما يجب أن تفهمه أنت ويسارك الغبي والمتآمر. يتابع العقيد أركان حرب، وهو في حالة من الغضب والامتعاض، ملوّحاً ومهدداً بيده في فراغ المكتب الأنيق، لكأنه يصارع أشباحاً، مستطرداً بأن أولئك المتآمرين والإرهابيين يتلقون أوامرهم من واشنطن وتل أبيب.

وبحركة مسرحية وهو يضرب بقبضته على المكتب يدوي بحنق: نشاطكم وبياناتكم واحتجاجكم، من حيث تدرون أو لا تدرون، يخدم هؤلاء السفّاحين، ويسرّع في إشعال لهيب الفتنة.

وفجأة يختم متّهماً: أصلاً أنتم وهم في خندق واحد.

يروي رئيف بأن الحوار كان ساخناً في مكتب العقيد الفخم المفروش بالسجاد الإيراني، وعلى المكتب البلوري الأسود أربعة هواتف، لا بد أن أحدها مخصص للاتصال المباشر مع مكتب الرئيس. على الجدار وراء العقيد علقت صورة ملونة وكبيرة للرئيس

القائد بلباسه العسكري، وقربه لوحة ملوّنة لشعارات الحزب داخل خريطة الوطن العربي.

يتابع رئيف روايته فيقول: أعتقد بأنه فوجئ بصراحتي التي اعتبرها وقاحة، ونكران جميل من معتقل خارج للتو من السجن.

لقد تحدثت عن القبضة الفولاذية، والدكتاتورية، والفرز الطائفي، وهيمنة الدولة الأمنية وأشرت إلى العقيد كأحد أركان هذه الدولة.

سيستفيض رئيف بأن هذا النسيج السلطوي هو من أوصل البلد إلى المضائق والإرهاب. المعتقلات والسجون وأقبية التعذيب مليئة بالأطياف السياسية كافة. لم تبق عائلة في هذا البلد لم تنكب سواء بالتحقيق أو بالاعتقال أو المداهمة والمراقبة، أو السجن أو التصفية الجسدية، وقلت له بأن هذا يجري في الوقت الذي يتاح فيه للأصوليين والدينيين بناء الجوامع وتشييد المدارس الدينية وإلقاء الخطب والمواعظ المثيرة للمشاعر حتى في الجامعات.

- أنتم يا سيادة العقيد تحكمون البلد بمقولة أحادية الجانب: من ليس معنا فهو ضدنا. وسألته إن كان يعرف حقيقة نبض الشارع والمواطن المذعور والمدجّن. المواطن الذي تحوّل إلى أرنب أو فأر والذي يخاف جاره وظلّه خشية الوشاية والتقارير. وحين رفعت صوتي حاول إسكاتي فقلت سأفيض بكل ما لدي وبعدها اطلب جلاديك ليعيدوني إلى السجن. لقد أطلقتم حفنة من حثالات الأمن لتفتك بالمواطنين الأبرياء. البريء يؤخذ بذنب المشبوه.

وأضفت، كل مواطن صار مشبوهاً ومذنباً حتى يثبت براءته. أهذه دولة الحرية والاشتراكية؟ اسمعني جيداً: سأسألك سؤالاً يكاد يتاخم الخيانة: كيف يكون الإنسان وطنياً في جحيم كهذا؟ وهل ستفاجؤون بحياد هذا المواطن المذعور إذا ما اندلعت حرب أهلية تحرق الأخضر واليابس، أو حرب مع العدو؟

قذفت بهذا المشهد الأسود في وجهه الذي اربدّ واكفهرّ، مدركاً بأن القيامة تضطرم الآن في أعماقه وهو يتمنى لو كان هذا الحانق الذي يرمي الحقائق في وجهه ليس أخاً فسوف لن يتورع عن تناول مسدسه من درج مكتبه وإطلاق النار عليه.

بقي صامتاً لوهلة. ردّ على الهاتف. تحدّث مع أحد مرؤوسيه بشأن موقوف. جاء الحاجب بالقهوة ووشوشه. أومأ براحة كفه: فيما بعد. دعه ينصرف. خمنت: ربما كان رجل أعمال.

بدا، وهو يشرب القهوة ويدخن بعصبية، كبحيرة هدأت حركة تماسيحها وغاصت بين العشب.

بعد لحظات وهو يضع كفه على صدغه، تفوّه بعبارة غريبة: قد لا تكون بعيداً عن الحقيقة رغم مبالغاتك وحقدك.

واستطرد: لكنك ترى نصف الكأس. السلبيات أعمتك عما هو إيجابي وبنّاء. آمل ألا تتورط بعد اليوم في المتاعب وأن تبتعد عن تلك الجماعات الحاقدة. نحن العين الحارسة للبلد وسنكون بالمرصاد لكل المتآمرين.

وبنبرة أخوية وعظ: الآن عُدْ إلى أهلك وأخوتك وبعد أن ترتاح تعود إلى الجامعة لإكمال دراستك. خذ هذا المبلغ لتؤمن بعض احتياجاتك.

مدّ يده إلى جيبه. فاجأته: دعْ مالك الحرام مكانه. قد لا أعود إلى الجامعة وسأحاول البحث عن عمل.

بعد أسبوعين سيغادر رئيف شاهين دمشق إلى لبنان عن طريق أحد المهربين متحاشياً الحدود، قاطعاً المسافة الفاصلة مشياً على قدميه بصحبة أحد رعاة الماعز والغنم بعد أن رشاه بمبلغ مئتي ليرة مع كنزة وقميص.

وهو يجتاز الحدود استنشق هواء الحرية: الآن أنا حرّ.

10

حين أخلو لنفسي وحيداً في البيت الجديد أشعر بأنني مؤرجح في فراغ. المدينة تدوي بضوضائها اليومية وزمنها الراكض واللاهف باتجاه الثروة والمال وبورصة الدولار والصفقات المعلنة والمستورة والخلافات السياسية واحتمالات الحرب والمؤامرات الغامضة.

أبدو خارج هذا الزمن. أعيش على هامش المدينة، أدخلها في صباح العمل وأعود مساء إلى جُحري وكأنني حيوان غريب عن المدينة وعلائقها المتشابكة، وغيلانها المسيطرين على هذه الغابة من الحجر والإسمنت ورؤوس الأموال الوافدة من بقاع الأرض قاطبة.

يوماً إثر يوم أكتشف بعض أسرار المدينة. أقرأ الصحف وأستمع إلى الإذاعات وأرى أحياناً التلفزيون؛ أشتري بعض الكتب لمكتبتي الصغيرة، وفي أيام العطل أو الأعياد ألتقي ورئيف بأصدقاء من الوسط الثقافي والصحافي.

ـ ننتظرك في مقهى المودكا أيها الكسول. هتف رئيف في الحادية عشرة وعشر دقائق.

كنت ما أزال في الفراش لكنني مستيقظ: في الثانية عشرة أوافيك وأغلقت الهاتف.

المرأة التي لمحتها وأنا أدخل المقهى جالسة ووجهها إلى

الشارع قرب كرسي رئيف، باغتتني. حدست أنها إيفا صاحبة الشقة التي حدّثني عنها.

حييت مصافحاً وجلست. قال رئيف: إيفا صديقتنا.

بادرتْ مفاجئة: هزيم اسماعيل. أنا أعرفه عن طريق أصدقاء في دمشق قبل أن تحدثني عن قدومه إلى بيروت. قالت وهي تتوجه نحو رئيف.

مالت نحوي بوجهها البرونزي وشموخ صدرها وابتسامتها الغامضة: هل ما تزال عذرياً تخاف الاغتصاب إذا ما هتفت لي ونحن على مسافة قبلة!

ارتجّ المقهى بالضحك. هكذا رشقت عبارتها الوقحة والمباغتة فانكمشت.

أضافت: معلوم. كونك مثقفاً مرموقاً، على الآخرين والنساء خاصة الجري وراءك.

قالت عبارتها الأخيرة بصيغة تهكمية واثقة عبر غرورها بأنها أنثى جميلة ومثيرة مهوى للرجال، تبدّلهم كما تبدل جواربها وثيابها الداخلية.

تأملها وهو يشرب القهوة ويدخن. الأنثى الجريئة والفضائحية، قال في نفسه، وكتم الردّ عليها مكتفياً بعبارة: الثقافة هي التواضع والمعرفة ليست سلطة مَلكية للمباهاة.

ـ هاه. حلو. أنت لست سهلاً أبداً.

لا بدّ أن هذه المرأة من فصيلة التماسيح. تكهّن.

شرح باقتضاب حالته كوافد جديد على المدينة، لم يستقر بعد.

ـ لا بد أن رئيف أخبركِ عن عثورنا أخيراً على شقة متواضعة.

ـ أخبرني. ولكن قل لي: هل في غرفة نومك سرير مزدوج يتسع لكلينا؟

استمرت في هجومها المَزوح. وهي تبتسم بإغواء، لمعت أسنانها اللؤلؤية وعيناها اللوزيتان.

أحسّ وكأنه يغتسل في حمام من الخجل والإرباك تحت هذه الرشقات الخاطفة.

ـ هل تتكرم وتولّع لي سيجارة!

بعد أن أشعل لها نفثت الدخان على شكل دوائر.

ـ شكراً. وأوضحت بأنها لا تبغي مما قالته إلا المزاح، ومحاولة كسر الحواجز لخلق جوّ من الألفة والصداقة.

وأضافت باسمة: خيّو. أنا هيك. إنسانة مزوحة أحب الأمور العارية بلا رتوش أو لفّ ودوران. أكره ما أكره هو الأقنعة والوجوه المتلونة.

جاء آخرون. صحافيون ومسرحيون. حيّوها بابتسامات وديّة تشير إلى معرفة وطيدة.

بعد أن افترقنا، وهي تهمّ بالدخول إلى سيارتها مع رئيف، سألت: هل نوصلك إلى البيت؟

ـ شكراً.

عبرتُ وحيداً شارع الحمرا باتجاه مطعم آغوب.

في الطريق حوّمت شكوك هوائية عن احتمال علاقة بينهما. أتراه يهدف إلى إبعادي عنها والاستئثار بها؟ أم أن العلاقة عابرة ويريد إقصائي عن أشراك هذه المرأة اللعوب؟

فيما بعد ستطير شكوكي وأنا جالس على الشرفة وأمامي كأس ويسكي.

هذه المرأة ليست في مركز اهتمامي أو صبوتي. وهذا النوع من النساء ينفّرني إن لم أقل يخيفني. المرأة المسترجلة، الهجومية والفضائحية، في مجتمع ذكوري، ألا تخسر جزءاً من أنوثتها

وعذوبتها، ومكرها الغامض، وهي تتقمص أو تنزع للانقسام إلى شطرين؟ الشطر الأنثوي وهو يتحوّل إلى رجل يهدف لا شعورياً، ربما إلى إخضاع الآخر والسيطرة عليه وامتلاكه، وكأنها تثأر من تاريخ عبوديتها عبر العصور، مستعيدة عرشها المغتصب، بما هي الأنثى الأمازونية الأصل؟

تساءلت وأنا داخل هذه التهويمات الغريبة: ترى ما الفرق بين العبوديتين إذا ما انقلبت المعادلة إلى نقيضها؟ الرجل في الأسفل والمرأة في الأعلى أو العكس فهل سيستقيم العالم؟ أم أنه يختل مرة أخرى عبر هذا الماراثون والتنافس لنيل الحرية والاستقلال الشخصي المستلب؟ ما الذي سيحدث للتوازن الثنائي للروح وجوهر الحياة والوجود في أعماقنا؟

ضبطتُ نفسي متلبساً في هذه الجلسة السرّية.

لا بدّ أن الجرح ما يزال ينزف من طعنات تلك المرأة الغيورة والامتلاكية التي غادرتها وكلانا على حافة الجنون.

الآخر في الداخل، كان يتيه في فضاءات أخرى على نحو غير متوازن، مرمي في أصقاع ثلجية كذئب جريح، بينه وبين العالم الآهل مسافات قصية يواجه الآخر الهارب من التدجين والوقوع في المصائد والفخاخ المموَّهة. شبح أو ظل مصاب بجفاف الروح يتلهف إلى السلام الداخلي ليرى الطريق عبر المتاهات والأزمنة المضلِّلة.

11

وأرى أنني أعدو بسرعة هوائية ثم أرتفع لأطير فوق شاطئ بحر أو منحدرات وتحتي أشجار خضراء وغابات. أحلامي الملوّنة في الطيران تعود. يتداخل العالم القديم في أحلام الطفولة والبراءة ويتواشج مع العالم الجديد المعتكر واللالون له.

تبدو الأطياف داخل الحلم القديم في لون قوس قزح. إحساس غير مدرك يتوق لإيقاف الزمن هناك في لحظة العذوبة. لو يستمر هذا الطيران السماوي فلا يكون هناك سقوط على الأرض ولا يقظة.

توق إلى الخلود في سيلان الزمن البهيّ.

حين يعود من رحلة الطيران يدهمه حزن الأرض.

تبدأ متاعب الأيام وشقاءاتها. من المدرسة إلى الشجارات مع التلاميذ، ثم عقوبات الأب الصارمة.

في المواسم قطف ثمار التين والزيتون والفستق وإحضار الماء العذب والبارد من النبع الكبير على ظهر الحمار الحرون. ثم إيصال الطعام إلى الوالد في السهل أو منسك الوادي.

الأم المنهمكة في التنظيف والغسل وطبخ الطعام، في حالة شكوى دائمة. إنها تصرخ في وجه ولديها الخاملين والشقيين اللذين لا يساعدانها في غياب الأب.

هما في ساحة القرية يلعبان مع الأولاد بكرة القماش، أو

يهربان إلى الأودية والأحراش مع عصبة من الحثالات والرعاة، كما يحلو لها أن تسميهم.

ـ حظّ الدهر علي وحدي مع هذا الشقاء الأبدي. يا ويلتي. تقول أو تتمتم لنفسها أو مع الدجاجات وهرّتها.

هي أبداً تشكو زمانها الغادر وتندب حظها العاثر وعزلتها. لقد هجرها الزوج وتنسّك موغلاً في بحران صوفيته ورؤاه الوهمية عن عودة إمام الزمان الذي سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

أحياناً تشكو لابنها البكر، الحميم إلى قلبها، المنافح عنها حين يعصف الغضب بالأب وينهال عليها ضرباً وركلاً، ناعتاً إياها بالغبية والخرقاء والجاهلة: أنا امرأة مكسورة الضلع مثل غصن مقطوع من شجرة. جدّك راح عالآخرة بعد عودته من الغربة. أخوالك ضاعوا في المهجر وراء البحار، والشيخ اعتزل. الزمن ضاق وأنا لا حول لي سواك في هذه الدنيا.

وهي تندب أخوالي الذين هاجروا إلى «الإرخنتين» و«بني سيرس» أصحح لها ضاحكاً: يا أمي تلك البلاد اسمها الأرجنتين وعاصمتها بوينس آيرس.

تردّ بعصبية محايدة عن الخطأ: الغريب في الغربة مثل الميت. مثل شجرة بتقلعها من أرضها المرويّة وبتزرعها برمال الصحرا. هاجروا من شدة الفقر وضيق الحال. يا ويلتي عليهم.

يردّ هازئاً: أبداً تنوحين على أخوالي في غربتهم. هم سعداء هناك مثل الملوك، يلهون ويتزوجون ويبذرون أموالهم على الشراميط وفي الملاهي والبارات وعلى الشواطئ الجميلة غير مبالين بك وبنا.

ـ إلهي ومولاي وخالقي ومرتجاي يوفقهم ويأخذ بأيديهم كيفما اتجهوا. تدعو لهم كاشفة منديلها عن رأسها رافعة يديها الاثنتين نحو السماء بينما دموعها تسيل.

ـ وأنا. ألا أستحق منك دعوة ربّانية يا أحنّ أم في الدنيا؟ أقول ضاحكاً كي ألطِّف الأجواء الحزينة التي خيمت على روحها.

تنده ضارعة: إلهي بحقك يا جليل. بحق من ناجى الحق عاجبل الطور يوفقك يا حبيبي دنيا وآخرة في علومك ودراستك. وإن شاء الله لا أموت حتى أراك معلم مدرسة قدّ الدنيا لنفرح بك ونفخر أنا وأبوك وجميع محبيك.

الأمنية القصوى والمشتهاة في الزمن الرعوي والزراعي. زمن الفقر والبؤس والجهالة والطين والروث ورائحة الكاز ومواقد الحطب. زمن الفطرة الأولى.

بعد خروجه من ذلك الزمن الصعب ليكون شيئاً ذا معنى في العالم، سيتذكر عبارتها حول الشجرة التي تنمو في أرضها. الشجرة التي تنمو وتثمر حتى في فجوات الصخر وشقوقه.

12

أول لقاء جنسي لولد في الحادية عشرة وابنة في مثل سنه، والذي يتراءى كحلم طفولي، كان تحت شجرة الزيتون في وادي الغار.

ما كان لقاء حسّياً بقدر ما كان نوعاً من اللعب بالأعضاء. حالة من الشغف والحميمية اللاهبة تجتاح جسدين مازالا في طور التكوين. هما الآن متعانقان ونصف عاريين فوق التراب كما حيوانين في غابة يمارسان ألعاب الفطرة الأولى. يتمرغان على الأرض. يعلوها وهي تضحك خائفة من هذا الحيوان الشبيه بدودة الربيع والممدد بين فخذيها. ترتعش من التماس الحارّ.

خائفة من هذه الدغدغة الراعشة واستعصاء الولوج. تكتم صرخة الخطر فتنقلب بعيداً محاولة ستر فرجها الأحمر الصغير الشبيه بزهرة رمان. يطرحها على الأرض. تقول:

ـ لا. هذا عيب وخطر.

يضمها إليه ويعتصرها. هي الأخرى تطوقه. تجتاح الجسدين رعشات متواصلة وأمواج من اللهب، تهب من بين الفخذين وتصعد في الدم والشرايين فتتسارع ضربات القلبين. تحرقهما اللذة الجارفة عبر لعبة الحب الخائبة.

ولدان مازالا في طور العذرية قبل البلوغ.

فجأة يسمعان حركة قريبة وطلقة صيّاد فيُذعران.

بحركة عجلى يرتديان ثيابهما ويهربان باتجاهين مختلفين.

مع الزمن ستتكرر الألعاب الجنسية في البيت بغياب الأهل أو الخرابة المجاورة لمنزليهما. ومع الزمن الذي ينمو فيهما وتباشير البلوغ ستتحدث الفتاة عن المستقبل والزواج فيقول الفتى: نحن مازلنا صغاراً والأهل لا يوافقون. فتردّ: نشرد خطفاً ولا نبالي بأحد.

- إلى أين؟ يقول بين الهزء والسخرية.

- نسافر إلى الأرجنتين. أخوالك هناك يحموننا.

فاطمة الصغيرة كانت جادّة حول فكرة الخطف والتشريد، كما كانت تحلم بالهجرة إلى الأرجنتين لنكون في حمى أخوالي، في الوقت الذي كنت أسخر فيه من هذه الأوهام الصبيانية والمستحيلة.

بعد خمسة عشر عاماً سيتحقق حلمها حين يأتيها مهاجر فنزويلي ثري يكبرها بثلاثين عاماً ويتزوجها، ثم يسافران بعد أسبوعين إلى كاراكاس.

وأنا أفكر بما جرى لحب الطفولة وتحوّلاته تواجهني حالة المصادفة غير المحسوبة، الحالة الكامنة في مكان خفي ومجهول والتي تفاجئ كصدمة لا تكاد تستيقظ منها حتى تأتيك مصادفة أخرى.

خلال مراحل الدراسة في المدينة ومغادرة عالم الريف ستأتي المصادفات المفاجئة عبر مغامرات الحب الرومانسي. يرتسم المشهد كلوحة ملوّنة لكنها باهتة وضبابية، إذ تلوح على شاشة الذاكرة التي ما عادت الآن وقّادة ومشعة كما في الأزمنة القديمة.

كيف يهوى الإنسان - الفتى فتاتين في وقت واحد؟

كنا نلتقي نحن الثلاثة شرقي ملعب المدرسة بين كروم الزيتون والرمان، نتحدث عن الدروس والمدرّسين والطلاب، ثم نعرّج على أحوال الأهل وأسَرنا، والعقول القديمة والمتخلفة للآباء والأمهات

والأخوة المتزمتين، وكيف تبدو لقاءاتنا الآن محرّمة وممنوعة في نظرهم، ولماذا يفصلون مدارس البنات عن مدارس الفتيان.

ـ في القرية هل هناك اختلاط بين الجنسين؟ تسألني حنان نابلسي الفتاة الناعمة ذات الابتسامة الملائكية والشبيهة بصورة مريم العذراء.

ـ لدينا مدرسة واحدة للذكور فقط. البنات لا يذهبن إلى المدرسة

تضحك هالة السيّد الطويلة، السمراء، ذات العينين العسليتين والشعر الطويل الأسود.

ـ البنات جاهلات عندكم حتى أنهن لا يعرفن جدول الضرب!

ـ ولا الألفباء. الفتاة في الريف للعمل وحين تبلغ يزوِّجونها.

ـ والصلاة. ألا يؤدين الصلاة وفروض الدين؟

ـ المرأة أو الفتاة الجاهلة كيف تصلّي وهي لا تعرف القراءة والكتابة؟

أستطرد ضاحكاً: هنّ يضرعْن إلى الله كي يرسل لهن عريساً جميلاً وغنياً. هذا ما يحلمن به.

ـ وأنت هل أحببت فتاة في القرية؟ تسأل حنان بخجل فتتورد وجنتاها. تشعر بأنها اقتربت من أرض محرّمة، أو كسرت حدوداً فاصلة مسوّرة بالأسلاك.

ـ الحب الطفولي العذري. أجل. لكنه يشبه غيمة عابرة ترحل مع أول هبة ريح.

أحياناً تنضم إلينا أخواتهما أو قريباتهما الصغيرات فنبدو كعائلة أو زمرة أولاد غير متجانسين متناثرين على العشب، وحدي الغريب بينهن.

لا نشعر بالزمن عبر الحكايا والذكريات والأسئلة. نرغب لو

يتوقف الزمن هنا في هذا الفضاء الطبيعي المفتوح والعابق بالروائح وإحساس المسرّة فلا تكون هناك بيوت ولا مدارس ولا أهل ولا عودة إلى البيت.

في برهة لقائنا ننسى العالم الآخر، عالم المسؤوليات والواجبات.

تقول في سرّك وأنت وحيد الآن في هذه الشقة الصغيرة شبه العارية سوى من سرير وطاولة طعام وثلاث كراسي من البلاستيك وديوان متآكل وهاتف من مخلفات حطام حرب العلمين.

- وماذا بعد أيّها السيّد المهاجر!

المرأة التي غادرتها كانت تسميك ساخرة بالدونجوان أو زير النساء. ولأنها غيورة وامتلاكية اختصمتما مرّة ومرّات، وكادت الشجارات تصل حدود الإيذاء الجسدي.

وفيما بعد، غبّ سنوات الهجران، والتأمل الذاتي في لحظات السرّ أو النشوة الروحية، تبدأ بادراك مكامن الخلل والعطب الداخلي فيك: أنت لا تصلح للزواج يا سيّد دونجوان.

ربما كانت الحمير هي الصالحة للزواج أكثر من البشر، لأنها لا تعرف السأم أو الاعتياد أو النكد أو الاكتئاب من رؤية الوجه الواحد والجسد الواحد والصوت الواحد والفراش الواحد.

في أقاليم الشرق الحزين، مهبط الرسالات السماوية والشرائع حيث لوائح النواهي والتحريمات، وتعاليم الحلال والحرام والكبت والفصل بين الرجل والمرأة سوى في الزواج، تتحول منازل البشر إلى ما يشبه محمية أدغال يسمّونها مدن الزواج.

هكذا فكرت، بعد صراع مرير، وانتهاكات، وتحطيم روحي،

وكوابيس قتل، وأسفار وهمية نحو بلاد الأبالسة، بعيداً عن الشر الدموي، كيف تقول: وداعاً لتلك المحميّة.

ـ لكنها حالة أو حالات فردية لا تصلح للتعميم وإلا كيف يستمر النسل، وتتواصل الحياة البشرية على سطح الكوكب؟ يعلو الاحتجاج من مدن الزواج المقدس، والمحمية بالشرائع الإلهية.

إذ أقترب من محاولة إيضاح الفكرة لرئيف في شقتي الجديدة يهز رأسه نفياً. يسألني عن البديل: أهي العلاقات الحرّة؟ وهل يمكن تحقيق ذلك في شرقنا الإسلامي؟

ـ في هذا الشرق البائس هل بإمكانك إحصاء عدد حالات الطلاق أو الهجر أو الزواج بأكثر من امرأة؟ أو لماذا تحدث الخيانة الزوجية؟ يسأل.

ـ في الشرق والغرب تحدث هذه الحالات.

ـ الطبيعة البشرية والتكوين الوجودي للإنسان يولّدان الشهوة والملل والميل الغريزي والتوق لأكثر من أنثى.

ـ هذا الذي تسميه الغريزي أو الشهوي هو الحيواني فينا. وهو المتحكم عضوياً.

ـ لأنك مؤذى وملسوع تنفر نحو هذه العدمية التي لا تصلح للتعميم. يرد رئيف.

ـ الحرية وحدها معنى الإنسان في العالم. وأن تكون حرّاً لا بد لك من ترك مسافة بينك وبين الآخر.

بدا الحوار بينهما ممضاً ومسئماً حول ضرورة الزواج أو عدمه، كما كان واضحاً أن ما استُنّ من شرائع وتقاليد يستعصي على التغيير.

ـ إلى الجحيم النساء. دعنا من هذه السيرة وهات كأسين.

قال ذلك وهو يخرج إلى الشرفة المطلة على زاوية من البحر بين عمارتين.

من خزانة في الجدار تناولت زجاجة ويسكي وكأسين. دلفت إلى المطبخ الرث والشبيه بزورق خشبي قديم لا يكاد يتسع لشخصين وتناولت بعض الخضار مع صحن مكسّرات.

كان المساء في أوله والساعة لمّا تتجاوز الثامنة ومن الغرب كان يُسمع صوت الأمواج الهادئ والرتيب.

ـ تعال نشرب نخب زواجك الوشيك. ناديته.

ضحك بارتجاج وعقّب وهو يدخل من الشرفة: من يعاشرك يطلّق قبل أن يتزوج.

ـ دعك من آرائي. ربما كنت حالة استثنائية شاذّة. في النهاية لابد من المرأة. إنها روح العالم.

لا بد أنني كنت ألفّ وأدور حول مدى علاقته بإيفا، ولإحساسي بأن السؤال ربما أربكه سألته عن حياته الجنسية في مدينة مفتوحة، وأكثر حرية من جميع مدن الشرق العربي. ابتسم بامتعاض وهو يشعل سيجارته وقال بأن المسألة الجنسية ليست معقدة هنا، وبالإمكان الحصول على امرأة لليلة واحدة من أي بار أو كباريه وأحياناً من الشارع، لكن ما هو شعورك بعد رحيل المرأة؟ الإحساس الداخلي بالخزي، لقد اشتريت سلعة من السوق استخدمتها لليلة ثم رميتها من النافذة أو في سلّة المهملات.

ـ هل تعني حالة التأنيب الذاتي؟

ـ المقايضة واللاحميمية وما أسميتها أنت بالانجراف نحو الحيوانية الشهوية التي تقودك في النهاية إلى الشعور بالاشمئزاز وحسّ الدونية.

ـ وإيفا؟ خرج السؤال كحصاة كأنما كانت عالقة في الحلق.

خطفاً كأنني لمحت ارتعاشة بين أصابعه وهو يرفع كأسه.

ابتسم كطفل فوجئ وهو يلعب ساهياً عن الآخرين.

ـ مجرّد صديقة. ساعدتني في البحث عن عمل من خلال علاقاتها الأخطبوطية المتشابكة لأنني ابن البلد وتعرفني من أيام الجامعة. لقد ألمحت لك بأنها امرأة عامة. ماركة مسجلة باسم رجال أعمال وسياسيين ومديري شركات وبنوك. امرأة صالونات إذا صحّ التعبير. وبقدر ما تبدو مرحة وصريحة حتى حدود الإباحية تلمح شخصية غامضة مستترة وراء هذا المظهر الخارجي.

ـ هل تعتقد أنها...

قاطعني مدركاً ما أرمي إليه: حتى الآن لا معلومات مؤكدة لدي حول وضعها الأمني. محض شكوك تراودني ربما كان منشؤها وضعي الخاص.

عبرت لحظة صمت توحي بأن الحوار حول هذا الأمر انتهى الآن.

في أعماقي تململ سؤال ظلاله توحي بالشك والخوف على صديقي من هذه الإيفا الغامضة.

13

حين تُضاء الطفولة التي لا تعود تستعاد الآن في المخيلة لتولد من جديد، ينفسح فضاؤها فوق اخضرار العشب ولمعان الينابيع المتناثرة بين فجوات وسواقي الأخضر.

ما يُروى الآن يبدو وكأنه احتجاج لمواجهة الموت والنسيان والزمن. سَرحُ الحياة الخضراء عبر أمواج طفولة ولّت. الزمن الموشّى بالصبا والغبطة والأصداء الخافقة. أقواس قزح تلوح في السماء فوق الشجر، وبخار الروائح. روائح العشب والمياه الضوئية. الصرخات الطفولية ونحن نغطس في مياه النبع الكبير في أصياف عبرت. رائحة الأمهات وهنّ يغسلن أطفالهن العراة بالمياه الدافئة وصابون الغار، ثم يغتسلن عرايا.

احتفال نصف شهري. طقس ملائكي للنظافة والطهر في مروج الطبيعة، والضوء. اغتسال النقاء وكشح وسخ الريف المتراكم. وسخ القمل والبراغيث، وروائح روث وبول الحيوانات ودخان حطب الشتاء. الصيف المضاء الآن بالشمس والحرية والأخضر. نشوة الأطفال والنساء ـ الأمهات. هم وهن العراة في الفضاء الرحب المفتوح تحت شجر الصفصاف والحور والدلب. لكأن الولادة ـ الجنة الأولى للكون تتفتح الآن. والآن يزاح الشقاء.

التعب. الجوع. المرارات التي تنسى في هذا الفضاء العاري.

الماء المنسكب فوق الأجساد العارية يغسل وشل العالم.

هو يوم الاغتسال. يوم الطهارة والعيد.

عرسنا نحن الأولاد والبنات والذي لا نصدّق متى يأتي، ليكون أطول يوم من أيام العام.

منذ الفجر يبدأ الرحيل شبه الغجري، هبوطاً من القرية نحو النبع الكبير.

على الدوابّ والطنابر والبغال تُحمّل الثياب ووجوه الفُرش وأغطية الألحفة والمخدات، والثياب الوسخة، والقدور الكبيرة والطناجر والأطعمة. فوق الأمتعة يتمدد الأطفال الصغار والجدّات المسنات. الآخرون مشياً على الأقدام فوق دروب وشعاب المنحدرات الصخرية بين أشجار الزيتون، حتى مسافة ميل.

مرج فسيح من العشب الأخضر المفتوح على مدى دائري متعرّج مطوّق بشجر الصفصاف المدلّى فوق الينابيع قرب أشجار الكينا والحور الباسق والدلب المعمّر. وسط هذا المرج يتمدد النبع الكبير كأمير متوّج بالأخضر ونبات السّماري المنتصب من جوف الماء. حاشية الأمير عشرات الينابيع المتناثرة والغدران الفوّارة الصغيرة والعذبة. في الجنوب الغربي أيكة بعيدة عن النبع. على طولها يمتد سياج من العلّيق تخترقه أشجار الصفصاف المستحي والمدلّى كشعر أخضر.

سياج منعزل ومستتر عن العيون والمارّة من الرجال. على طول السياج، فوق العشب وقرب الينابيع تركّز قدور الغسل فوق الأثافي الحجرية. النسوة - الأمهات والجدّات والصبايا وكبار الأولاد، يجمعون الحطب ويكسرون الأغصان اليابسة لإيقاد النار.

نحن الصبية ذكوراً وإناثاً نجري كالأرانب، شبه عراة فوق العشب، مندفعين بصخب ونشوة باتجاه النبع بعيداً عن موقع الاغتسال.

جدار من الحجارة يشبه سدّاً صغيراً بطول حوالى عشرين متراً وارتفاع متر، يحصر مياه النبع المنحدرة مياهه نحو البحر. عن

السد نثب إلى المياه الباردة واللاسعة، التي لا تتجاوز ما فوق الخصر في أعمق نقطة. نصرخ من لسع البرودة، ويبدأ التراشق برذاذ الماء المتطاير. الخائفون من عمق الماء يسبحون أعلى النبع في المياه الضحلة أو في مجرى ساقية النبع الجارية باتجاه أراضي الفلاحين.

أصوات. عواءات. شتائم. شجارات. سباقات فوق العشب. محاولات يائسة لصيد الأسماك الصغيرة بالكفين.

مهرجان غجري من الفوضى والفرح الأخضر. ألق الضوء والماء والفضاء المشع يطهّر الخلايا فتنتشي الروح.

هنا قبل خمسة عشر عاماً جرت معركة دامية بين الفلاحين من أهالي القرية والإقطاعيين الذين حاولوا منع مياه النبع عن سقاية أراضي الفلاحين، وتوجيهها نحو أراضيهم ومزارعهم. هذه المعركة سمّاها الفلاحون بمغالاتهم المعهودة «ثورة النبع». روى وقائعها الشيخ اسماعيل باعتزاز عشرات المرات وكأنها معركة القادسية. لقد شارك فيها وهو فتى فشُجّ رأسه بضربة عصا من أحد أزلام الإقطاعيين.

ـ لقد هزمناهم شرّ هزيمة ودحرنا فلولهم وأجرينا بالقوة مياه النبع إلى أراضينا.

ينتفج الشيخ وهو يروي الماضي «الثوري».

تُزاح الآن المعارك والثورات، وتسافر بعيداً نحو كهوف التاريخ والنسيان. الآن اللعب والسباحة والغطس لصيد الأسماك التي لا يتجاوز طولها الخنصر.

يصيد أخي سمكة بنّية. يصرخ فرحاً. أقول: حافظ عليها حيّة. سآتيك بطاسة نضعها فيها. أعدو باتجاه موقع الاغتسال. أطلب من أمي وعاء لتسبح السمكة في مياهه. حين أعود أرى أخي يبكي: ماتت السمكة وأنا أضمّها في راحة يدي.

- يا حمار. ألا تعلم بأن السمك يموت خارج المياه. لماذا لم تضعها في حفرة صغيرة وتغمرها بالماء؟

عبر الضوضاء والصخب والمرح، ننسى السمكة التي طفت ميتة فوق الماء، وتأنيبي لأخي بألا يعود ثانية إلى الصيد.

لولا نداء الأمهات للطعام لما تذكرنا أننا جياع. لقد هيأن الطبيخ في القدور. برغل مع الدجاج المسلوق. أقراص وفطائر محشوة بالسلق والكشك والحمّص المجروش، مع أصابع مقلية من الزلابية، أعدت منذ المساء لهذه القبيلة المتناثرة فوق العشب.

من السواقي النظيفة وحوافّ الغدران قطفت الصبايا النعناع البّري والقرّة والجرجير.

وليمة جماعية بساطها العشب، تحت فضاء مضاء ورطب. احتفال سنسميه عيد الطهارة أسوة ببقية أعياد السنة.

على السياج وفوق أغصان الشجر، الغسيل منشور كالرايات الملونة ليجف في الشمس.

بعد ساعات سنغتسل عراة في أحضان أمهاتنا العرايا بالصابون وورق الغار. روائح عطرة تنضح في الجو من مسامّ الأجساد وأوراق الغار والعشب الأخضر، تختلط بدخان المواقد وصرخاتنا وسيلان الدموع تحت رغوة الصابون وأمواج الدخان.

ارتداء ثيابنا النظيفة ينبئ بعدم العودة إلى السباحة في النبع. ها نحن نتهيأ للعودة.

وأسفاه: ما أقصر اليوم المضيء بينما الشمس توشك على الغروب.

14

عالم آخر هو عالم المدينة. فضاء جديد أكثر رحابة من عالم القرية الضيق. شوارع وأنوار كهربائية. سيارات ومتاجر وأبنية عالية. بشر في حركة عمل وبيع وشراء. موظفون في المؤسسات الحكومية لكأنك خرجت من كهف معتم إلى الدنيا الجديدة، المبهرة.

نحن طلاّب الريف نسكن غرفاً مستأجرة في الأحياء الشعبية. تتسع لاثنين أو ثلاثة، أو أكثر أحياناً، حسب الحالة المادية للأهل.

نبدو غرباء، وقساة، وسذّجاً في مرايا وعيون طلاب المدينة؛ فلاحون أجلاف، وسخون ومقمّلون. طباع فظة وعدوانية، نشبه الحيوانات المتوحشة. يقولون عنّا.

حين تحتدم الشجارات في الملعب المدرسي أو الأحياء تُستخدم المِدى والأمواس، ويسيل الدم. نوع من حرب عصابات طلاّبية يتفوّق فيها الريفيون ـ المقمّلون الأقوياء على طلاب المدينة: أَكَلَة البسكويت والشوكولا وفطائر الجبنة، كما كنا نسميهم احتقاراً.

زمن المراهقة والطاقة الحيوية للجسد، كان في أوج عنفوانه آنذاك. رغبات مكبوتة. أشواق غامضة لاكتشاف العالم الجديد.

إحساس عميق بالحرمان والبؤس. توق متمّور للخروج من الشرنقة القديمة. اختلال في الأعماق نزوعاً للتوازن والاتساق مع بيئة المدينة، نصف المتمدينة، حيث يزحف الريف على شكل موجات طلباً للعلم والعمل والتجارة.

في ذلك الزمن كان الفتى مرتبكاً، ممزق النفس ومنقسماً كأنما يعبر فوق هاوية.

قدم في عالم القرية والأخرى في عالم المدينة الجديد. في الأعماق توق سرّي، غامض، راح يُجلى مع الزمن لينحاز إلى المدينة وعالمها الأكثر حرية ورحابة.

حين يوغل أكثر في تلك المرحلة، مرحلة تفتح الوعي، يدرك أنه بمنأى عن سلطة الأب وسطوته. هو الآن أكثر قدرة على التمّرد والاستقلال.

الصدامات الشرسة والفوضوية مع المدرِّسين وطلاب المدينة، تبدو كأنها تعويض عن القصور في مواجهة الأب الذي كسر روح الفتى بالعقاب.

سنوات المراهقة تُطوى كالحلم في تيار الزمن. حين يسترجعها تبدو هي الأخرى نائية مغلفة بالظلال. حالة هلامية متحولة، عبرت. من الصعب إدراك تموجاتها الهاجعة في اللاوعي.

لعل أجمل سنوات الفتى تلك التي تتراءى في أزمنة المراهقة، والتي سيسميها بسنين المغامرة والحب الرومانسي الخطر.

كيف يمكن إدراك أو استيعاب حبّ الفتى المجنون لفتاتين معاً؟ حيث يلتقي الثلاثة ليلاً في الزقاق الضيّق مقابل بوابتي منزل الفتاتين المتجاورين.

همس وقبلات. عناق ورعشات.

صعود روحي عذب نحو سماوات لا مرئية. يتماس الجسدي والروحي، بعيداً عن الشهوة ولحظة المباغتة للأهل أو عابري الزقاق.

الزمن الخارجي مُقصى. هم الآن يشيدون زمنهم الخاصّ.

الزمن الداخلي المنسوج من الولع وإزاحة العالم. الزمن الواقف حارساً على عتبة البيت. هو المحفوف بخطر المفاجأة، لكنه المنسي

عبر تيارات الصعود الشامل للغبطة في الخلايا التي لا تبالي بالفضيحة.

حين سيعود في ساعة متأخرة من الليل إلى غرفته في الحي الشمالي من المدينة، سيتساءل عن معنى هذا الولع الغامض: أهو الحب أم الإعجاب؟ أخوّة روحية أم جنين جنسي متوارٍ في الأحشاء؟ أم أنه زهرة الحب الطفولي وهي تتفتح داخل تويجات ربيع الروح؟

سيستعيد وهو على عتبات النوم، تحت خيط من شعاع القمر المرشوق كسهم من النافذة، وقائع ما جرى.

ـ لو أنهما هنا الآن!

يغلبه النعاس. يحلم معهما بالطيران فوق غابات خضراء، وشلالات مياه متدفقة من أعالي الصخور.

15

لا تعرف من أي سماء يهبط هذا السأم. هذه الكآبة التي تطوّق الروح وتشلّ الجسد.

أهي العزلة أم الشعور بالاغتراب الداخلي؟ أم هو الشوق المضمر إلى الأنثى في لحظات التوق الحارق والحميم؟ أم أنه تكوين وجودي متأصل في الطبيعة البشرية؟

إذ أتأمل حالتي، وأنا مستلق على هذا الديوان، تدهمني أحاسيس مرّة وسوداوية. شعور بالإحباط والفشل في مواجهة العالم.

أسأل نفسي عما إذا كان صواباً أو خطأ هذا الذي فعلته! وهل ردّة الفعل في الطلاق أو الهجر هي الجواب الصائب على الصدمة؟

حسّ التأنيب يبدو كامناً في دغل ما من النفس، لكنه مغطى بأعشاب النسيان.

في سنوات المراهقة كنت سريع الملل من الآخرين، والأماكن التي أعيش فيها. أحلم بالهجرة إلى بلدان نائية. جزر مهجورة وبدائية مطوقة بالبحار والشجر، تضجّ بأصوات الطيور والحيوانات البرّية. أبني كوخاً من أغصان الأشجار. أصطاد الطيور والأسماك كما البدائيين. يتحوّل المشهد ويتبدد.

من الذاكرة الفوضوية تنبثق صورة مراهق ومراهقة يستلقيان على الأرض المعشبة تحت زيتونة في الكرم الكائن شرق ملعب

المدرسة. أرسم لحنان حلم الجزيرة الخيالية. ألوّن الحلم بالبطولات الخارقة كما روبن هود الذي شاهدته في أول فيلم أحضره في سينما الدنيا القائمة غرب المدينة.

(الكلمات التي ترسم المشهد السريالي أكثر تأثيراً من أقلام التلوين). حنان تضحك وهي تتدحرج على العشب.

- يا لخيالك الخصب!

- أرغب لو أخطفك ونطير إلى الجزيرة.

- وحدي أم معنا هالة السيد؟ تسأل هازئة من أحلامي.

- أنتِ أولاً ثم أعود لأخطف هالة.

- هل حضرت فيلم روبن هود؟

- أنا أقوى من روبن هود وطرزان.

وأستطرد سائلاً: حنان. هل تحبين هذه المدينة؟

تقول: أكيد. هي مدينتي وهنا أهلي وأقاربي ومدرستي.

- أنا لا أحب هذه المدينة لولاك. كما لا أحب أهلي ولا المدرسة ولا الآخرين. أقول بنزق.

- وماذا تحبّ؟ تسألني بعد أن نهضت من استلقاءتها.

يقول: أنت وهالة وهذا المكان.

لكم تبدو جميلة وساحرة الآن وهي تنفض آثار العشب عن شعرها الخرنوبي.

- ها قد أتت. تشير حنان إلى هالة المتهادية فوق الأعشاب وهي تركل الحصى بخفيّها.

الفتاة الطويلة بثوبها الوردي، وشعرها الطويل وابتسامتها العذبة تبدو له شبيه ملاك سماوي هبط الآن من الجنة وهي تغنج كغزال.

يخفق القلب لمرآها، ارتعاشة عشبة بلّلها ندى الفجر: لو يطوّقها ويطيران معاً نحو الجزيرة الخيالية.

خطفاً كبرق يتذكر اللقاء تحت شجرة المشمش في دارها. المطر يبلّلهما ليلاً وخوف مداهمة الأهل. حركة مفاجئة وتضاء عتمة الدار. قبلة خاطفة على الخدين. وبخفة أرنب مذعور يثب فوق الجدار.

يختفي البرق.

بعد السلام علينا تنحني وتقبلني على خدّي.

ـ قبلة أخوية. تقول مازحة وضاحكة.

وهي تجلس قرب حنان مزيحة كتاب التاريخ الملقى فوق العشب تقول هالة: اسمعي يا صديقتي. أنت مدعوة إلى سفر طويل نحو بلاد نائية بصحبة أمير الجزر السعيدة. سندباد الرياح والآفاق الغامضة.

ـ ها. ها. أنت وهو تخططان في غيابي عن السفر الميمون إذن!

ـ ولكن ما هي وسيلة السفر؟ تسأل هالة بصوتها الأنثوي المبحوح

ـ بساط الريح.

تشرح حنان فكرة الشاعر الخيالي حول الطيران إلى الجزيرة الموعودة. حالة من المرح والضحك تتموج في الفضاء وفوق مرج العشب.

ـ هل نسميك سندباد البحار؟ تبتسم هالة.

ـ لا. السنونو المهاجر. تجيب حنان.

ـ وأنتما غزالتا الجزيرة.

ينساب الزمن فلا نشعر به. نودّ لو نوقفه.

تُروى حكايات حول المدرسة والمعلمين، والبنات والفتيان

الذين يرابطون على أرصفة الشوارع انتظاراً لخروج الطالبات. تحكي حنان عن الخوف من قسوة الأهل وقمعهم ومراقبتهم. وتصويرهم للطلاب ـ الذئاب المتربصين بفتيات المدرسة. وتضيف بأنها صور مشوّهة ومرعبة.

ـ أنت لست وحشاً. لو التقاليد تسمح لعرّفت أهلي وأهل هالة بك.

تضحك هالة: نحن نلتقي منذ أكثر من شهرين ولم تأكلنا.

بحركة مسرحية يقلد هيئة ذئب ويصرخ: هيّا. بأي منكما أبدأ.

يضجّ الفضاء بالهرج الممزوج بخوف تمثيلي وصبياني.

يستدرك بعد الموجة الهرِجة: أهلنا يبدون كأنهم من العصور الحجرية والكهوف.

ما يحوّم فوق الثلاثة، وفي الفضاء المحيط شيء آخر، ربما أبعد من الحب أو الأخوة، والصداقة، أم لعله كان مزيجاً من هذه الكيمياء الحيوية ولمّا تُكتشف خاصيتها الغامضة.

الآن، وهو يتذكر تلك المغامرة، بعد نصف قرن يسأل نفسه: أكانت تلك العلاقة الغريبة حقيقة أم وهماً؟ وهل كانت نوعاً من اللهو الصبياني أم كانت ولهاً لحالة حبّ مستتر بالخوف والخجل؟

16

حين انتبذ الشيخ اسماعيل حافة الوديان داخل كوخه الطيني، وغرق في متاهات كتبه وتأملاته الروحية، اعتقد بأنه أنقذ روحه من قبضة الشيطان ومسرّات الدنيا الدنيئة والسرابية.

ـ المرأة هي الشيطان يا عبد الله. أغوت آدم الذي خلقها من ضلعه فطُرد من الجنة. والمرأة والأفعى أختان. الأفعى وسوست لحواء وزيّنت لها قطف التفاحة ـ الدنيا.

يقول ذلك لصديقه وهو يفرم كتلة التبغ فوق قطعة خشب.

عبد الله الأمّي وحلاّق القرية يقدس كلمات الشيخ العارف المتبحر في علوم الدين والأسرار الإلهية، هذا الوريث لأسلاف وسلالة من الشيوخ والعلماء المحتكرين للمعرفة الدينية تحت هالة من القداسة التي تجلّها العامة وتخشى هيبتها.

كراهية الشيخ لامرأته يعللها بالجهل والحماقة حين يُحرج أمام من يعرفونه، أو حين يسأله عبد الله الحلاق عن سبب هجرانه للبيت. لكنه في الأعماق والزوايا الخفية من روحه الطهرية يرى فيها كائناً منحطاً تناسل من سلالة دونية أدنى مرتبة من الإنسان.

بيد أن هذا اليقين الداخلي ظلّ خفياً عن الآخرين.

أحياناً وفي لحظات التجلّي، بعد عدّة كؤوس من العرق البلدي، كان يُلمح بشكل مجازي لبعض خاصته ومريديه الراشدين ممن

يناولهم بعض العلوم الدينية السرّية، إلى هذه الفكرة الغريبة واللاعقلية.

يروي عنه صديقه عبد الله، وتلميذه في آن، بأنه رجل نزيه وصادق وكريم، جريء في أفكاره لا يخشى في الجهر بالحق لومة مخلوق، لكنه قاس وصلب في الأوقات الصعبة، لا يقبل الاعتراض أو المخالفة في الرأي. أفكاره ورؤاه مقدسة كالآيات لا تقبل الجدال. فهو على اقتناع مطلق بأنه الأكثر وعياً ومعرفة بأمور الدنيا والدين، والظاهر والباطن.

بسبب هذه المزايا الحادّة عاش شبه وحيد ومعزول سوى من بعض الخاصة والمريدين.

في كنف الأم الطيبة والرحيمة تربّى الطفلان مغمورين بحنانها بعد أن ارتضت مصيرها في ما يشبه الهجر والإقصاء.

داخل مناخ هذا الانشقاق الأُسري يخيّم على البيت شبح الكآبة والحزن، مصطدماً بالحسّ العدائي للوالد الذي يزور البيت عوضاً عن أن يحيا فيه.

ـ بابا. لماذا أنت بعيد عنا؟ يسأله الفتى البكر.

يبتسم وهو يحمله ويداعب شعره: أنت وأخوك في القلب. يشير إلى الجهة اليسرى من صدره.

ـ بابا. نحن لا نراك ألاّ قليلاً. يقول الأصغر.

يضمّهما إليه بحنوّ أبوي صادق: الأرض والعمل وتأمين الطعام والمؤونة للبيت واللباس لك ولأخيك. الحياة قاسية يا بني في هذا الزمن الصعب.

ـ دائماً هذه الحجة جاهزة. نعيش كغرباء في غيابك. يقول الابن الأكبر.

ـ أمي تبكي كثيراً. أنت هناك ولست هنا.

على قسمات الوجه الأسمر والقاسي تخيم سحابة من الحزن والكمَد.

الأسئلة الصعبة والحرِجة تبقى معلقة بلا جواب حقيقي سوى بالهرب منها أو الالتفاف حولها. أسئلة الصغار الأبرياء الجارحة التي تُلقى على الآباء غير الأبرياء.

وحدها الأم المنبوذة والصامتة تجيب بمائدة الطعام التي هيأتها للزوج وولديها في ذلك النهار الكابي.

17

رنّ الهاتف. كان اليوم عطلة والساعة حوالى الحادية عشرة: مرحبا. أنا إيفا. هل لديك أحد؟

- لا.

- أتستقبلني؟

- أهلاً.

رتبت السرير. وضعت الطاولة في منتصف الغرفة وحولها كرسيان. غيّرت مكان الديوان الباهت. على التربيزة وضعت علبة دخان وينستون مع منفضة. حركاتي بدت مضطربة وعشوائية. تكاد تكون بلا معنى.

رن جرس الباب: أهلاً إيفا.

تصافحنا. في منتصف الغرفة وقفت وراحت تتفقد حالة الشقة التعيسة وأثاثها الرث.

- غير معقول هذا! قالت.

- المهم الراحة الداخلية.

- لا. لابد من تأمين سكن أفضل من هذه الزريبة.

بعد أن جلست على الديوان أشعلت سيجارة. فجأة انتبهتُ إلى أناقتها وتسريحة شعرها والجينز الأزرق والماكياج الخفيف المنمّ عن ذوق بورجوازي معتدل.

سألتني عن راحتي في الشقة، وهل هناك ما يزعج في الجوار وهل أشعر بالأمان، واستدركت بأن عملها في المصرف التجاري اللبناني يتيح لها إمكانية تأمين شقة أفضل من خلال زملائها وأصدقائها.

انعطف الحوار حول الوضع الأمني، واحتمال الانفجار الوشيك واستعدادات الأطراف المتنازعة.

ـ إذا ما سافرت إلى مدريد ستنتقل إلى شقتي.

ونحن نشرب القهوة سألت عن أخبار العائلة وهل تصلني رسائل عن أحوال الأسرة.

لا بدّ أن رئيف قد أطلعها على الحالة.

ـ لا أخبار جديدة.

لاحت على الشاشة بروق من أطياف الأزمنة الكالحة. صدمة الفتى المراهق، الغرّ، الذي يقع كطائر مغفل في الشرك.

ـ ربما كنْتُ محظوظة أكثر منك فلم أنجب أطفالاً.

واستطردتْ: الزواج يشبه لعبة بوكر أو روليت وهي غالباً خاسرة. الآن أنا في الخامسة والثلاثين تزوجت مرتين ولم أحصد سوى الخيبة والمرارة. تعلمت الدرس بقسوة. قلت لنفسي: طظ على الدنيا والعالم. الإنسان يحيا مرة واحدة وأنا لا أؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب سوى في هذه الدنيا.

تضيف: التجارب علمتني العبث واللامبالاة والسخرية. العالم بلا معنى والتضحية من أجل الآخر سلوك انتحاري مجاني قد لا يؤدي إلى الموت إنما يورثك الندم والإحساس بأن حياتك ذهبت سدى من أجل وهم الأمل.

رانت على وجهها طيوف ألم وملامح خسران.

بعد القهوة طلبت كأس ويسكي: بعد زواجين خرجت بأقل

مايمكن من الخسائر. بقيت روحي حيّة لم تقتلها الصدمات. أنا امرأة تحب الحياة والانطلاق لأنني حرّة من الداخل.

وأنا أجهز لها كأس الويسكي خطر لي سؤالها عن أسباب طلاقها، وحين اتجهت ومعي الكأس أدركتُ لا معنى السؤال ومجانيته.

كانت في الثانية والعشرين حين تزوجت، روثْ.

الزوج رجل أعمال في الخامسة والأربعين من العمر. كانت ماتزال في الجامعة تدرس الأدب الفرنسي حين زوَّجتها الأسرة: زواج تجاري. صفقة كما يعبّر رجال الأعمال.

بعد أشهر من الصفقة بدأت تدرك ورطتها.

في البداية كان عاشقاً ودوداً وكريماً، غمرها بالهدايا والثياب والذهب والماس. أعماله كانت موزعة لشركات استيراد في سوريا ولبنان والأردن والسعودية ومصر. مصادر الاستيراد المركزية للألكترونيات والأدوية والمواد الغذائية كانت بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. علاقاته مع كبار المسؤولين في الدولة كانت وطيدة وراسخة. وكرجل أعمال كان دائم الأسفار.

ـ كنت مبهورة. غارقة في مناخ البذخ والثروة والجاه والسفر والحفلات المخملية التي كانت تقام في بيروت شتاء، وبيتنا الريفي في الجبل صيفاً.

اشترى بيتاً حديثاً في بلودان مع حديقة واسعة، وأوحى لها بأنه سيكون ملكاً لها ومستقرّاً تلتقي فيه بمن تشاء من أصدقائها وصديقاتها. أثثه حسب رغبتها بجناحين أحدهما فُرِش على الطريقة العربية والآخر على الطريقة الأوروبية.

بإيحاء سرّي ومن خلال حدسها ستدرك أن هذا البيت سيكون سجنها الجميل بعد أن بدأ غيابه يطول بذريعة العمل والأسفار.

ـ كانت لديه علاقات نسائية؟ سأل.

ـ في الخارج. في فرنسا ومصر. كان يسميها علاقات عمل. يقول لي بعد أن اكتشفت علاقاته وواجهته بالأمر.

تصمت. تأخذ رشفة من كأسها وتشعل سيجارة: ثرثرة بلا جدوى. لماذا ينبش الإنسان جثة من قبر؟

هل انتابها شعور بالندم لأنها استفاضت؟

أم لأنها تتعرى وهي تسرد فصلاً من حكايتها؟

بدت ممتعضة. في وجهها ملامح مقت امرأة غُدرت وهي تقذف بنفسها إلى الهلاك في أوج صباها.

ـ جميع ما جرى لي فيما بعد أنا أستحقه. أتعلم لماذا؟ لأنني بعتُ روحي للشيطان. شيطان الثروة ومجد المال ولمعان الشهرة وشهوة الامتلاك. امرأة دنيئة كنت في ذلك الزمن.

ستكتشف فيما بعد كم كان ذلك الرجل مرتبطاً ومتورطاً في شبكات أمنية وسرّية في الداخل والخارج، كما كان يقوم بمهمات ذات طابع سياسي وعلى مستويات عليا. كان وسيطاً في أوقات الأزمات مع شركات أجنبية بلدانها تقاطع البلد سياسياً واقتصادياً.

ـ هو وحفنة من رجال الأعمال والمتعهدين والسماسرة وكبار التجار هم عصب الحياة الاقتصادية في البلد. تقول إيفا باحتقان.

ـ البلد الحديث المزدهر. يردّ هازئاً.

ـ المزدهر بالفساد والرشوة والمافيات المحمية أمنياً والنهب وتهريب الأموال.

حين دخلنا المناطق المحرمة والأراضي الملغومة أحسّت إيفا بالراحة الداخلية، بدا ذلك من خلال انفراج قسمات وجهها وقد استعاد بعض نضارته.

قالت وهي تهمّ بالانصراف: لست نادمة. جبل كان فوق صدري وانزاح. أنا الآن حرّة. تركت له كل شيء ونجوت بنفسي.

وأنا أودعها على العتبة شعرت بمدى شقائها.

ـ يبدو أننا نتعثر ونسقط لكننا ننهض مرة أخرى.

18

مع أنني نويت بنوع من التصميم أن أبدأ حياة جديدة في هذه المدينة. حياة شبه عبثية أو فلأقل لا مبالية وطليقة: عشْ يومك الراهن كما ترغب وانسَ الأمس.

لكن الأمس ـ الماضي كان يتسرّب كالضوء من صدوع الذاكرة.

ينهض في الحلم أحياناً أو يتراءى عبر أحلام اليقظة، أو يجرحك من خلال أوجاع الآخرين وخيباتهم.

حكاية إيفا وزواجها الفاشل ارتسم على الشاشة موازياً صدمتي في الزواج.

الآن هذا الرجل المسمّى هزيم اسماعيل على أبواب الأربعين من العمر. تزوّج وهو في العشرين وكأي حمار اصطدم بأول أنثى فانتعظ شبقاً ثم هوى فوق أول امرأة منحته قبلة.

حين أروي لرئيف حكاية هذا الحمار المجازي يشرق بالضحك. يقول: الله لا يقيمك ولا يكون في عونك.

ـ آمين!

ـ أنا متأكد أنك ستقع مرة أخرى في فخ الحمرنة. يقول بما يشبه اليقين.

لكي أنفر من شريعة الزواج وأكفر بها تأتيني الوقائع المرّة والجحيمية التي عبرت في حياتي.

لا بد أنني أستعيد سيرة والدي في الهجر العائلي، ومن يدري فربما تكررت هذه السيرة عبر أولادي وأحفادي مستقبلاً.

يحاول إبعاد هذه الهواجس العدمية والخلل، وفي لحظات الصفاء الذهني والروحي يجهد للجواب على السؤال الوجودي: أين يكمن العطب؟

في تكوين الرجل والمرأة أم في الطبيعة البشرية؟

من أين تولد تلك الكراهية، وكيف تتعمق الصدوع بين رجل وامرأة كانا عاشقين قبل الزواج؟

لماذا تعتكر بحيرة النفس ويخيم الملل والسأم؟

تنطلق الشجارات والصدامات مثل وحوش كانت حبيسة في كهوفها. تتوتر الأعصاب ويجيش الدم حتى حدود القتل.

ربما كان الإسلام أكثر حكمة وتبصّراً من المسيحية في موضوع الزواج والطلاق. يقول الهاجر والمهجور بعد أن يفترقا بخصومة لا رأب لِصَدعها: وداعاً.

في أوقات التأمل الذاتي والحياد، أحاول الإيغال لفهم حالة هذا الدونجوان الشهوي الباحث عن المُتعة وعدم الكفاية. هذا العاشق لكل نساء العالم لا فسقاً إنما بحثاً عن الرضا والاستقرار الروحي وسلام النفس المضطربة.

تغويني فكرة الرضا والسلام الروحي، البعيدة عن شهوة الامتلاك والارتواء الجنسي. أتساءل إن كان في أعماقنا دونجوانان. أحدهما مصاغ من جبلّة الحيوان والآخر إنساني - ملائكي؟ أم هما مزيجان من الطبيعتين؟

لا أدري أين قرأت هذه العبارة الدونجوانية: لو اجتمعت شفاه نساء العالم في شفة امرأة واحدة وقبّلتها لاسترحت.

هوذا الشيخ اسماعيل حمدان يهرب من زوجته، ويعتكف مع كتبه وأسراره وتهويماته الدينية، لاجئاً إلى كهف صوفيته بعيداً عن

المرأة التي يسميها الشيطان، مستديراً عن شهوات العالم، مقاتلاً بروح دونكيشوتية دونجوانه البائس في برّية الرب.

أتخيله في ليالي الوجد والبَراح والتهجد منفصلاً عن عالم الأرض، متحداً مع عالمه السماوي ومع الباري، وهو ينشد بخشوع أشعار الحلاّج أو الشبلي والجنيد، وأولياء الصوفية:

«أيها السائل عن قصتنا
لو ترانا لم تفرّق بيننا
أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حَلَلْنا بدنا
فإذا أبصرتنا أبصرتَه
وإذا أبصرته أبصرتنا»

تشفّ روحه وتصفو. يحسّها تصعد كطيف مغادرة سجنها الجسدي نحو عالم الأنوار.

يبدو في تلك البرهة من السموّ في حالة شبه غياب عن العالم واتحاد مع المطلق النوراني.

يهمس في السر راجياً الغفران والتوبة عما ارتكب من ذنوب وخطايا ومعاصي. يناجي مولاه المجلل بالبياض والنور والألوان الخاطفة للأبصار كي يهديه أبداً إلى طريق الاستقامة والمعرفة والعقل الرشيد.

- ربّي طهّر روحي من الرجس والدنايا وأبعدني عن غواية الشيطان المتجسد في ربّ آخر: النساء والمال والجشع وموت الضمير، وسلطان الأقوى على الأضعف، والمتجبر على البريء، والذئب على الحمل.

تبدو هذه الحالة الغريبة شبه الضوئية وهي تتلبس روح الشيخ موشوراً من شخصيته الشفافة المعّممة بالتسامح والمحبة والفناء في عبادة الله، في مواجهة الموشور الآخر الغاضب والعصابي.

هو الذي ظُلم من أخوته في الميراث فاشتبك معهم، ولم يقبل تحكيم المشايخ وعقلاء القرية الذين انحازوا للأقوى والظالم. في بيته كانت كلمته هي العليا، ومن يخالفه سيلقى العقاب لأنه رب البيت وحاميه. حين يحتدم يصرخ في وجه زوجته وينعتها بأحط الصفات. يصفها بأنها من نسل إبليس اللعين، وإذا ما نطقت بكلمة دفاع وهي تجهش ينهال عليها بالضرب والطرد: اخرجي من هذا البيت أيتها الكلبة النَّجسة.

يجرجرها من شعرها ويرميها خارجاً وهو يرغي ويزبد.

منذ طفولتي الواعية حتى موته كنت أشاهد وأسمع هذه المسرحية الرعوية المتوحشة. هذا الرعب الذي سيسكنني ويتغلغل في حنايا روحي زمناً طويلاً، فلا يُنسى.

الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتنا أنا وأخي أن نفعله هو محاولة حماية أمنا وتطويقها درءاً للصفعات والركلات التي تنهال عليها.

ومع أنه كان يحب ابنه البكر المدلّل، ويؤثره على أخيه الأصغر إذ يرى فيه سمات وملامح منه في الذكاء والحيوية والصلابة، إلا أنه كان يقسو عليه إذ يخطئ أو يرتكب حماقة. سيظل في الذاكرة مشهد العقوبة التي ابتكرها بسادية غريبة، والتي ستبقى هاجعة في اللاوعي إلى زمن طويل.

بالحبال ربط الابن البالغ من العمر عشر سنوات إلى عمود البيت.

لفّه بالحبل وانهال عليه بقضيب من الرمان حتى تدمّت قدماه العاريتان.

ـ هذا عقاب لك لن تنساه يا حيوان. ما الذي فعله لك ذلك الولد الفقير حتى تشهر السكين في وجهه وتجرحه ثم ترميه في الوحل؟ أما نهيتكَ عن الاعتداء على الأولاد الفقراء؟ خذ إذن لتتذكر. يتواصل

اللسع على المؤخرة والفخذ. يدوي البيت بالصراخ والضراعة: التوبة. التوبة. والأب لا يرحم. يضرب بوحشية حتى ينكسر القضيب في يده.

- أبوه رجل مسكين وفقير. يساعدنا في مواسم الزيتون والفستق. جاءني وابنه مدمّى: انظر يا شيخ ما فعله ابنك بولدي!

كنت أتلوّى من الألم والصداع. وحين حضر بعض تلاميذ المدرسة طلب الأب منهم البصاق علي فأبوا. حتى الولد الجريح رفض وهو يبكي. اندفع أبوه راجياً الشيخ الكفّ عن الضرب وتقدم ليحلّ وثاق الحبل: حرام يا شيخ حرام. يكفي. وصلني حقّي. هؤلاء أولاد ويخطئون عن غير قصد. أنا سامحتُ وعفوت.

حين حلّ الوثاق هويت على الأرض. حملني الرجل وضمّني مع ابنه: سامحه يا بني. تعانقنا. طلبت السماح من الأب وابنه.

- الله يخزي الشيطان. التأني من الرحمن يا شيخ اسماعيل. أنت سيدنا ومعلمنا. عفا الله عنّا وعنهم.

بعد إفراغ شحنة الغضب هبطت السكينة على روح الأب. استخزى إبليس. طلب من الرجل وابنه السماح.

غادر البيت إلى صومعته. وهناك صلّى وطلب من ربه الغفران.

وأنا أتذكره الآن، وأكتب عنه، لم أكن أشعر نحوه بالكراهية، حتى في ذلك الزمن السحيق. كان ملاذنا وحامينا في زمن الفقر والشدّة والضائقات. كما كنت ولده المدلّل والمفضّل على أخي، يغمرني بالهدايا والألبسة الجديدة في مواسم الأعياد؛ يأتيني بالطيور التي أحبّ لأربيها، وفي الليالي يصحبني إلى معتزله، ويروي لي حكايات عن حياة الأولياء الصالحين، ويرشدني بمواعظه الدينية إلى الطرق المستقيمة والإيمان بالله، وحين أغفو يحتويني بين أحضانه حتى الصباح.

رغم قسوته كنت أرى فيه مثلي الأعلى. أحسّ في أعماقي بشيء من دمه وجيناته.

فيما بعد. إذ نُوّرتُ بالوعي، كنت أتساءل: كيف كان يحمل في داخله ذلك التناقض بين القسوة الضارية، والحنان الإنساني؟

ما سيؤرقني أكثر، بعد أن هجرت أسرتي، كما فعل هو، واختلفت مع زوجتي كما اختلف، أن تسري هذه اللعنة الوراثية في السلالة إلى الأبد.

على الغداء في مطعم الأرمني آغوب رويت لرئيف زيارة إيفا وحكاية الزواج والطلاق التي يعرفها.

ـ امرأة مظلومة. حسبما روت.

ـ لكنها ظلمت نفسها. قال رئيف واستطرد: دفعت ثمن جشعها وشهوتها للمال وحبّ الظهور والمباهاة.

ـ لكنها ضحيّة في النهاية. قلت.

ـ لا ضحية ولا مظلومة. حين يرمي الإنسان نفسه في النار هل ينجو من الاحتراق؟ دخلت غابة الذئاب ووحوش المافيا فكان لا بد أن تُمزَّق وتهشّم. هذا قانون الغاب. واستطرد: هذه امرأة مخدوعة بذكائها وشعورها بالتفوّق الماكر. ربما لا تعرف وجهها الآخر.

خامرتني الشكوك. رغبت أن أسأله عن الحقيقة الخفية. الجانب الآخر من جبل الثلج المغمور في الماء. ما كان المكان مناسباً لإيضاح ما يعرفة عن الموشور اللامرئي للمرأة.

أكملنا غداءنا وخرجنا.

ـ في وقت آخر سأوضح لك. قال.

افترقنا. عبرتُ مشياً من رأس بيروت إلى كورنيش البحر باتجاه بيتي في الرملة البيضاء.

صخرة الروشة التي يسمونها صخرة الموت لتتالي حالات الانتحار من ذروتها العالية عن البحر، تبدو هناك كأنها بقايا حصن

قديم أبيض باهت، ولدت من عصور أزلية لا تُعرف بدايتها، تستهويك الذروة المعشبة لتثب منها نحو الماء وتغوص في اللجّ نحو أعماق الموت.

هنا تقام مباريات الغطس للسباحين المحترفين وأحياناً يؤدي الوثوب الخاطئ إلى كوارث.

19

حين يخلو لنفسه في البيت ينوس كبندول في فضاء الزمن. يسأل نفسه والفراغ: كيف وقع هنا؟ ولِمَ وجدَ أصلاً في هذا العالم؟ ولِمَ لمْ يولد في مكان آخر أو في جسد آخر: وحش أو شجرة أو طائر أو قطرة مطر؟

الأسئلة الضائعة لولد نما وتزوج وانكسر، ثم ضاع.

في الظلمة فوق السرير يحدّق في اللاشيء، عبر حياة تبدو له بلا معنى.

زواج تافه وخاطئ. أطفال أبرياء ولدوا من الخطأ والشهوة الحيوانية لرجل وامرأة تحوّلا إلى عدوين بعد أن مكر الزمن بهما، كاشفاً عما كان ثاوياً في الأعماق الخفية لظلمات البحار.

وهو الذي كان يقول لها في عصور الحبّ الليلية: أنت نجمتي التي أستهدي بها في ظلمات العالم. وهي التي كانت تقول معانقة: أنت سفينتي في البحار المضطربة ألوذ بك لتحميني من العواصف.

ثم فجأة هذا الهيجان الذي دمّر السُّفن، والزوجين، والأطفال الغرقى والعالم حولهما. والخيار كان بين القتل أو الرحيل.

الشيخ اسماعيل اختار الهجرة إلى الوديان واعتزل، وهو يهاجر الآن إلى بيروت، وغداً ابنه وحفيده يهجران ويهاجران هرباً من جحيم البيت. أهي السلالة الشيطانية، الموسومة باللعنة

الموروثة، تتيه، كما هو الآن، في ظلمات الأرض بلا ضوء ولا مرفأ أمان؟

هي كانت تواجهه وتتهمه بالسهر الليلي والسكر والمقامرة والعلاقات السرّية مع مومسات دمشق، واللامبالاة بالعائلة.

وهو الذي كان يتهمها بالنكد والغيرة والأنانية وحب الامتلاك ومصادرة الحرية والغباء.

وكان الزمان يتهدّم. ساعة، ساعة، ويوماً، يوماً، وشهراً شهراً وعاماً بعد عام، إلى أن ابتدأ الهلاك والإعصار. هكذا جنحت السفينة نحو الشواطئ الصخرية، وتحطمت.

وما كان بريئاً من اتهاماتها.

ذات ليلة أو ظهيرة وقع الإغواء مع امرأة متزوجة تعيش وحيدة مع ابنتها في ضواحي المدينة، بعد أن هجرها زوجها ورحل إلى فنزويلا. من هناك اكتفى بإرسال بعض الحوالات المالية المحدودة وبعض الهدايا لابنته.

كان زوج المرأة مقامراً وزير نساء وغيوراً على زوجته الفاتنه

عن والده ورث متجراً لبيع الأقمشة في سوق الحميدية، ومكتباً للتعهدات العقارية ووكالة سيّارات فيات الإيطالية.

وكما ستروي زوجته مها القادري بأن المال كان يسيل بين يديه سيلان الأنهار، لكنه كان بخيلاً في الأمور المالية يحصي ويدقق سائلاً عن كيفية صرف الأموال في البيت وخارجه، يقيم الدنيا ويقعدها إذا ما اشترت ثوباً أو حذاء أو معطفاً لها ولفاديا ابنتها.

ـ خزانتك مليئة بالثياب. لماذا هذا الهدر؟

ـ بعضها صار بالياً وقديماً يا سعيد. أنت والحمد لله أعمالك وتجارتك فوق الريح. والناس يحسدوننا على هذه النعمة.

ـ خراب هذا البيت سيكون من ورائك. والمثل يقول: هناك امرأة بدّمر وامرأة بتعمّر. وأنت على ما يبدو من الصنف الأول.

كانت الشجارات تتواصل، والأصوات تعلو مليئة بالإهانات والشتائم والتهديد بالطلاق. هذا كان يتفاقم بعد خسارته في القمار أو العودة ثملاً من الكباريهات ورائحة الخمر تملأ أجواء البيت.

في أوقات الغضب كان يضرب ويكسر ما تطاله يده: أنا ربّ هذا البيت ومؤسسه. لولا جهدي وتعبي لكنت لقيطة مشرّدة مع ابنتك في الشوارع. أنا خلقت منك سيدة محترمة لها قيمة في المجتمع.

ويتبجح: أنت امرأة سعيد عثمان لا مها القادري ابنة الحاج عمر بائع البهارات في سوق البزورية.

وهي تروي تتنهد وتشرق ببريق الدمع. يكوي القهر والاستبداد جوانحها. تضغط على جبهتها بكفّ وبالآخر تمسح عبراتها. امرأة بلا حول ولا قوّة في بيت تراه يتداعى. امرأة أُخرجت من المدرسة وهي في الصف التاسع. تزوجت عن حبّ خارج رغبة أهلها. والدها المتزمت دينياً قال لها: هذا الرجل فاسد أخلاقياً ودينياً. البلد والناس يعرفون من هو. أسرته أثرت عن طريق الحرام والرشوة وتملّق المسؤولين الذين يحكمون البلد ورقاب العباد عنوة واقتداراً. وأضاف مهدّداً ابنته: إذا خرجت من هذا البيت فلا عودة لك إليه.

وقال لأمها: اسمعي. قسماً بالذي بسط الأرض ورفع السماء، وهو على كل شيء قدير، إذا ما سمحت لها باجتياز عتبة هذا البيت بعد زواجها من ذلك اللصّ الفاسق سوف تطردين معها خارج هذا البيت.

هكذا رأت نفسها وحيدة في مرمى النار بعد اعتكار بحيرة الحب العاصف، وتحوّل البحيرة إلى مستنقع يفوح برائحة الكحول والمومسات والقمار وسيف الطلاق المسلط على رقبتها.

بعد فوات الأوان تكتشف صوابية ما قاله أبوها وما حذّرها

منه. تعاين ماالذي يفعله الثراء غير المشروع والنهب، وكيف يحوّل الإنسان إلى وحش وطاغية يسحق الآخرين بلا رحمة.

وإذ يسألها كيف آل من ذلك الجاه والثراء إلى خيار الهجرة ومغادرة البلد، تروي له كيف بدأت انهياراته وإفلاسه جرّاء بطره وخساراته في القمار والمراهنات والمغامرة غير المحسوبة في صفقات سرّية، وتعهدات مشتركة مع مسؤولين أمنيين انتهت به إلى المحاكمة والسجن.

ـ لقد أحيل إلى المحكمة الاقتصادية حيث صودرت ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة. وحين حاول الاتصال بشركائه عن طريق محاميه، كي ينقذوه، تهرّبوا منه وباعوه وتبرؤوا من علاقتهم به.

وتضيف: بعد أن يئس وأدرك وضعه المزري لجأ إلي في إحدى زياراتي له مع ابنتي.

بدت على حافة الانفجار بالبكاء وهي تروي عن نذالته وتضرعه وكيف طلب منها مقابلة أحد مسؤولي الأمن وهو عقيد ترجوه الإفراج عنه حتى ولو كلفها ذلك شرفها.

ـ وهل فعلتِ ذلك؟ سألها.

ـ ما كان هناك من سبيل آخر. دفعت الثمن للضابط الشهم وتحوّلت إلى خليلة له.

وختمت: بعد شهرين أُخرج من السجن شريطة مغادرة البلد حتى لا يكون شاهداً على شركائه الآخرين.

20

قد لا يكون الزواج وبناء أسرة هو الوهدة التي يقع الإنسان المغفّل فيها. الحياة، ربما، هي هذه الورطة اللعينة التي ستُكتشف بعد فوات الأوان، بعد أن يرحل القطار بك بعيداً، ويرميك وحيداً في القفر الموحش.

بعد تتالي الصدمات والمفاجآت والغوص في الأوحال اليومية وأكوام التفاهات، تكتشف بأنك شيء فائض ومستهلك في هذا العالم.

هل كان وجودك خطأ وبلا معنى؟ أم أنك لست أكثر من عابر سبيل أو مسافر في ليل بلا نجم، وأن الموت هو محطتك النهائية؟

إذ تحاول إزاحة هذه الأفكار السوداء، تلتجئ إلى مرافئ أزمنة الطفولة والفتوّة، ما قبل الصدمة.

هالة وحنان ونورا ومليكة. سربُ الفتيات اللواتي عَبرْن، وضوّعن الهواء والعشب والقلب بروائحهن وأنفاسهن وأجسادهن الحريرية ونهودهن اللدنة، بشفاههن الكرزية والعيون اللامعة كمياه الجداول.

سِرب الغزالات اللواتي شردْن في دروب الحياة والزواج والإنجاب والطلاق، ثم الموت.

الدروب الوعرة المرصوصة بصخور الندم، حيث لا ينفع الندم، زمن الحنين إلى أول قبلة وعناق بين كروم الزيتون والمنحدرات المعشبة، والبحث عن الأصداف بين حصى الشواطئ.

الزمن المفقود اللاعودة إليه.

الزمن الذي بدّدنا في الريح كما أوراق الشجر في ليالي الخريف العاصفة.

وها نحن أخيراً في التيه والبحار المضطربة، نبحث عبثاً عن سفينة نجاة تنقذنا وتعيدنا إلى برّ الأمان، توقاً إلى صدور الأمهات وأرحامهن الدافئة. بعيداً جداً عن الوهدة والصدمة القاتلة.

21

منزلانا متجاوران، بينهما مسافة لا تعدو المئة متر.

في أوقات متباعدة نلتقي. إيفا المنشرحة أبداً والمتدفقة بالحيوية، وأنا المتوجس منها والخجول. في داخلي شعور بعدم الارتياح من لقاءاتنا.

عالمانا شبه متنافرين: المرأة الاجتماعية والرجل النَّفور والمتوحد.

أرى فيها امرأة غامضة، رغم ما سردَته باختزال عن حياتها وزواجها الخائب.

ذات لقاء في بيتها، ونحن نشرب القهوة، تفتح السيرة السياسية. السيرة التي أنفر منها بعد أن اكتويت في حرائقها فيما مضى.

تروي عن صلاتها القديمة، قبل قدومها إلى لبنان، مع بعض التنظيمات اليسارية في دمشق وشلل المثقفين الثوريين. تسِمُهم بالمتهورين واليساريين الطفوليين والمغامرين. وهي تروي ترى في هذه الظاهرة نوعاً من الموضة العربية واسعة الانتشار في كثير من بلاد العرب، نقلاً عن أميركا اللاتينية.

- ما هو الخلل في هذه الظاهرة؟

- هذه القوى ليست أكثر من نُخب ثقافية معزولة عن نبض

الشارع. هي تدور في حلقاتها الخاصة بعيداً عن الناس. يرفعون في الفراغ شعارات إسقاط السلطة المستبدة ودولة الأمن المتوحشة.

تدخن. تسأل إن كنت أرغب بكأس ويسكي أو أي مشروب.

ـ كأس كونياك صغير.

من المطبخ تواصل هذا المونولوج الرتيب: قل لي ما هي وسائلهم العملية لإسقاط النظام المدجَّج والقوي!

سؤالها ليس استفهامياً بقدر ما هواستنكاري.

ـ هناك أكثر من وسيلة: الإضراب، التظاهر، الاعتصام المدني.

وهي تعود مع كأس الكونياك تجيب: هذا يمكن أن يحدث هنا في لبنان جرّاء الديمقراطية السياسية، الطوائفية في جوهرها. أما في سوريا أو أي بلد عربي آخر فمستحيل. وإذا ما حدث هذا النوع من الاحتجاج السلمي فسيقمع بشدّة من قِبل الشرطة والأمن.

وتضيف: حتى الجامعات لا تخلو من القمع والاعتقال خلال أي تظاهرة أو احتجاج جماعي.

تواصل سردها من جانب واحد. كيف عملتْ مع هؤلاء في الجامعة أوائل السبعينيات. ثم أشارت إلى انشقاقاتهم واختراقهم الأمني من السلطة. وكيف جاءت قاصمة الظهر بانحياز فصائل منهم ومهادنتهم للنظام والمشاركة في الجبهة الوطنية.

وهي تروي كنت أتأمل الشقة الصغيرة والأنيقة، التي سأرثها كما وعدت بعد السفر. غرفة النوم واسعة مفصولة بحاجز خشبي ثلثه العلوي من البلّور، سريران أحدهما واسع ومزدوج وأخر فردي صغير. الصالة صغيرة مفروشة بموكيت نيلي، في وسطها طاولة مستديرة من الفورمايكا. ثلاث أرائك من الخيزران، وصوفا يُرى منها البحر، وفي واجهة الصالة مكتبة صغيرة تحتوي حوالى عشرين كتاباً حول المرأة والأدب والسياسة والقانون والمحاسبة.

مع القهوة دخّنَتْ كثيراً خلال الحديث. أحياناً تبدو منفعلة وتارة لا مبالية. كنت أستمع إليها ببرودة أعصاب، مع إحساس بالملل من هذه الحمىّ السياسية المقيتة.

ولنخرج من هذا المناخ الكابوسي سألتها مداعباً أن كانت تنوي الزواج مرة أخرى.

رجّت ضحكتها أرجاء الشقة واخترقت الباب إلى الجيران.

كان السؤال محايداً، هروباً من المناخ السياسي المضجر.

- هل تتزوجني؟ قالت وهي تغمز هزءاً.

ابتسمتُ من مفاجأة جوابها اللامتوقع والذي جاء بصيغة سؤال.

- أنا لا أصلح. زوج فاشل ومطرود كما تعلمين. وأردفتُ مازحاً: محسوبك مش قد المقام. بدأ خجلي يتوارى.

- وهل تراني جوزفين بونابرت أو الليدي ماتاهاري؟

عبارتها بدت لي غريبة. شبه مجانية. لم أدرك منها أبعد من السخرية المغلّفة بالتواضع.

يقيناً، وبعد لقاءات متباعدة، ما كنت لأفكر فيها جنسياً، رغم مظهرها الأنثوي الجذاب، وانطلاقها الحرّ في التعبيرعن نفسها.

وفيما بعد، إذ تأملت الحالة بيني وبين نفسي، لم يعترضني العزوف عن الزواج بقدر ما واجهني شيء آخر: الخوف الداخلي والتوجس من هذه المرأة الغامضة. المرأة التي لا أعرف عنها سوى سطح أحد الموشورات الخارجية من حياتها. لذا فضّلت البقاء على الحياد في منطقة الظليل.

هي الأخرى في تحليلي الظنّي، ما كنت في بؤرة استهدافها، لا في الزواج ولا في العشق السرّي.

كنا متنائيين على ضفتين من النهر وبيننا برزخ. وأنا هناك

تذكرت ما ألمح إليه رئيف شاهين عن حياتها وما روته لي عن زواجها من رجل الشركات المتعددة الجنسيات.

دعتني للغداء فاعتذرت بذريعة موعد مع أحد الأصدقاء.

واستطردتُ: في وقت آخر نتغدّى أو نتعشى سوية مع رئيف. الأيام طويلة ولسنا جاهزين للموت قريباً.

قالت وهي تصافح مودّعة: يبدو أن الحرب على الأبواب والمعسكران يسنّان الحراب.

ـ لذا فالهريبة تلتان المرجلة. قلت غامزاً.

قالت بابتسامة لا مبالية: لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

22

مطر مدرار ورعود تزلزل الأرض، منذ أسبوع والأمطار متواصلة. يستبشر الفلاحون وأهالي القرية بالشتاء عطاء السماء للمواسم الزراعية. يسمّون هذه السنة الممطرة بسنة الخير والبركة. تتلى الصلوات لرب المطر من شيوخ القرية، وتضع النساء البخور المشتعل في جفنات من الفخّار على عتبة البيت، وهنّ يرفعن الدعاء للسماء السخيّة والمباركة.

طلاب المدرسة سعداء لأن المدرسة مغلقة، والمعلم فاضل دونا لن يأتي ماشياً من بلدته البعيدة تحت المطر، وهكذا كانوا ينتشرون في الزواريب والأزقة شبه حفاة وهم يلعبون بالدّحل في فجوات الصحو، أو يخوّضون في المياه الموحلة التي فتحت ممرات في المنحدرات والشقوق، صارخين بمرح الأبالسة والثعالب: «شتّي يادنيا شتّي تاتنما حقلة ستّي».

البيوت المحظوظة هي التي كدّست مؤونتها من الحطب احتساباً لهذا الشتاء القاسي. والنسوة القويّات والفتيّات هن اللواتي اقتحمن الأودية في الخريف لقطع حطب السنديان والبلوط وتكديسه في ساحة الدار.

في البيت حول الموقد المكوّن من حفرة دائرية في أرضية غرفة الجلوس تتقد النار، قسم من دخانها يتسرب باتجاه طاقة في السقف هي «الروزنة» وما تبقى من الدخان يجتاح البيت.

على اللبّاد والحُصر والأبسطة وجلود الخِراف التي تطوّق الموقد يتناثر الضيوف وأهل البيت من الرجال والنسوة والأولاد.

الأم مشغوفة بسيرة بني هلال، وفارسها المقدام والمفضَّل هو دياب ابن غانم، كما تحب أكثر سيرة الزير سالم ومجراويته التي تسميها «المجروينة»، إنها تكن كراهية عميقة لجسّاس ابن مرّة قاتل كُليب، الذي تسميه بالغدّار؛ حين يأتي ذكر اليمامة وهي تندب أباها المقتول غدراً، والذي أوصى أخاه المهلهل وهو يكتب له بدمه على الصخرة: «لا تصالح يا مهلهل وإن صالحت شكوتك للإله»، تبكي الأم بحرقة، تشهق وهي تردّد غاصّة: دخيلك يا زير سالم لا تصالح منشان اليمامة اليتيمة المجروحة الروح.

التوقّع والوجوم يخيمان على وجوه المستمعين من الجيران الذين حضروا للسهرة، والاستماع إلى المجروينة التي يقرأها عليهم ابن الشيخ اسماعيل في ليالي الشتاء الباردة، هذا الفتى النجيب الفهيم، وريث أبيه وجدّه في العلم والمعارف والعقل المنير، كما يتخيلون وهم يستمعون إليه بإعجاب ومتعة.

تكفكف الأم دموعها وتقول: كمّل يا ابني كمّل. لعن الله جسّاس وبني مرّة الغدّارين. إن شاء الله الزير ما بيترك منهم صافر نار.

يكمل الفتى بصوت جارح ومؤثر:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل أبو ليلى وطاحون الشتاه.

بغتة يُفتح الباب. يطل الشيخ اسماعيل من خلال الدخان بقامته المهيبة وعمامته البيضاء المبللة، مع معطفه، بالمطر.

ـ السلام عليكم. مسّاكم الله بالخير يا جماعة.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ينهضون احتراماً.

يخلع العمامة والمعطف الأصفر القديم. تتناولهما الأم وتنشرهما على الحبل الممدود المخصص للثياب شتاءً داخل البيت.

للشيخ جلد خروف خاص. تسحبه الأم من تحت فراش السرير الخشبي، وتمدّه قرب النار حيث سيجلس زوجها ليتدفأ.

الفتى الذي فوجئ بوالده، بسرعة خاطفة يخبئ المجروينة تحت مؤخرته خشية غضب الأب وتأنيبه، ورفضه لهذه الأساطير التي يصفها بالخُرافية واللامعقولة في مبالغاتها.

الصمت الذي ران على الحضور أوحى بالشك.

هو كان يعرف أن الفتى يقرأ للسهارى في بعض الليالي أجزاء من التغريبة أو مجروينة حرب البسوس؛ كان هذا على حساب دروس وفروض المدرسة، لذا نبهه أكثر من مرّة قائلاً: هذه محض خُرافات مكتوبة بلغة عامية وشعبية رخيصة وتافهة. عليك الاهتمام بدروسك بعيداً عن هذه الخزعبلات. وحين طلب من الفتى أن يأتيه بكأس من الماء، اندفعت الأم ناهضة لتلبي فأجلسها.

ـ هزيم أفندي هل أنت أصمّ يا ولد؟

تحقق الشك باليقين حين نهض الفتى. بانَ الكتاب بغلافه الأصفر القديم ممزق الأطراف، وعلى الغلاف الخارجي لاحت صورة كاريكاتورية هزلية للزير سالم بشاربين معقوفين ولحية كثة على حصانه المشهّر. بيده حربة ويتدلى من خاصرته اليمنى سيفه الطويل المغمد يكاد يلامس الأرض.

تناول الشيخ الكتاب ووضعه قربه. روح الأم راحت تغوص في بحار الرعب والاضطراب. كل خلية في جسدها كانت مجتاحة بالعواصف. وإذ اهتزت السماء والأرض بالرعد شعرت الأم بأن القصفة اخترقتها وحولتها إلى هشيم أو رماد.

انفضّ السّهارى وانسلوا خارجين بعد أن حيّوا تحية المساء الذي اعتكر.

صمت. سوى من تتالي الرعد وصوت المطر وطقطقة عيدان الموقد والشرر المتطاير في فضاء البيت.

بلون الغضار كان وجه الفتى وقد ضُبط متلبساً بالجرم، وراح يتخيل لسعات قضبان الرمان التي ستأكل لحمه.

لم يفكر الشيخ الحكيم بالعقاب. هبطت عليه أصوات ملائكة الرحمة وهي ترتل: ليس الشديد بالصَّرَعة إنما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب.

نفث غضبه وهو يتناول المجراوية ويمزقها ورقة ورقة ثم يقذف بها إلى النار.

روح الأم الصامتة كحجر كانت تتفتت وتحترق مع الأجزاء التي راحت تحترق وتترمد، بينما صورة الزير سالم مع حصانه وسيفه تتراءى تحت الوهج شكلاً رمادياً مشوّهاً انطبع في عيني وذاكرة الأم كصورة وداعية قبل التحوّل إلى رماد.

قالت الأم لنفسها: هكذا انتهت حرب البسوس أخيراً.

نهض الشيخ ليتوضأ ويصلي. على طبق من القش قدمت الأم العشاء، صامتاً تعشى ثم حمد الله على نِعمه. سأل إن كان الولد الأصغر قد تعشى قبل النوم فأومأت الأم بالإيجاب.

كالأرنب المذعور انسل الفتى «المثقف» باتجاه السرير ليتكوم قرب أخيه.

ـ هل أنجزت وظائفك يا فيلسوف الزمان؟ سأله أبوه قبل النوم.

أجاب الفتى والرعشة في صوته: نعم يا بابا. اسأل أمي.

أكدت الأم الأمر غير مصدقة بأن الفتي سينجو من العقاب قبل أن ينام، وأن حرق «المجروينة» كان فديةً وقرباناً لها ولابنها.

23

حين يأتي مشهد العناق ممددين على أرض الخرابة المهجورة داخل دار حنان، يتراءى كحلم لا معقول شاهده في كوكب آخر حتى وقت متأخر من الليل، تحت ضوء القمر. بقينا معاً متضامّين. ثرثرنا بكلمات خافتة خشية مباغتة أحد من أهلها. كانت رائحتها وأنفاسها العبقة تمتزج برائحة الورد وزهر الليمون والياسمين المعرّش حول سياجٍ الدار. نتضام لكأن كلاً منا يريد الدخول والفناء في الآخر، بعيداً عن التفكير بالجنس. حالة طهرية بدت إلى العشق الروحي أقرب، حتى القبلات كانت على الخدود والعيون. نتماسّ ونرتعش في برودة الليل غافلين عن العالم الخارجي. كنا مخطوفين لكأننا في سرير حلُمي خارج الأرض. بدا الخوف نائياً عن هذا الحنوّ الدفيء الذي يلفّ الجسدين المتماسّين بغلالة الروح ونبضات القلبين والغبطة المتدفقة من كل ذرة من ذرات الجسدين.

لا بدّ أننا غفونا كطفلين كلٌّ على زند الآخر في الهزيع الأخير.

الظلّ الذي استطال فوقنا حاجباً قسماً من شعاع القمر بدا كالشبح بين الغفوة الساهية واليقظة. وثبت كقط برّي من المباغتة التي دمّرت المشهد الحميم.

بقوة وطاقة الرعب رأيت نفسي أطير فوق الجدار نحو الخلاء.

ـ حرامي. حرامي. سمعت الأصوات والجلبة التي هاجت داخل وخارج الدار بحثاً عن اللص الهارب الذي التجأ زحفاً داخل غابة الصبّار المجاورة للبيت.

اثنان أو ثلاثة عبرت أقدامهم قربي وأنا منبطح بين الأشواك التي تنغرس في جسدي، قاطعاً تنفسي والحركة.

- ابن الحرام أين اختفى؟

- لو أمسك به والله سأذبحه.

لم تكن المسافة بيني وبين الأقدام التي لا أرى سواها أكثر من متر جرّاء ألواح الصبار المتماسّة مع الأرض. وددت لو أغوص إلى الداخل أكثر. وخلال محاولاتي اليائسة للتخفّي هشّمت الإبر الشوكية ظهري ويديّ ورأسي وخاصرتي ورقبتي، وجهي وبطني نجيا.

بعد حوالى الساعة، على ما قدّرت، أحسست بهم يعودون، ويرتجون الباب الخارجي.

حين خرجت تحت الضوء الأول للفجر لم أصدّق أنني نجوت. عدَوْتُ طيراناً في الخلاء وأنا أتخيلهم يطاردونني من جديد.

الفزع أطار الوجع وأهمده حتى وصلت إلى غرفتي المستأجرة.

زميلي في الغرفة استيقظ. صرخ. كممتُ فمه: عادل. ساعدني في نزع الأشواك والإبر المكسورة في الظهر. وبعد ذلك جهّز الماء الفاتر.

كنت شبه عارٍ إلا من سروالي الداخلي، غير قادر على الاستلقاء سوى على بطني، ويداي مشبوحتان فوق الفراش كأنني مصلوب.

انهمكنا معاً في نزع الإبر السامة التي حوّلت الجسد إلى بقع وحُفر حمراء وزرقاء، خفف من لهيبها الخِرق المبللة بالماء الفاتر ثم المراهم واليود التي سطا عليها عادل ظهراً من صيدلية المدرسة.

- سيقتلك العشق أيها المجنون. قال وهو يدهن القروح.

على مدى ثلاثة أيام كنت تحت الحمّى والتعرّق والكوابيس.

بعد أن رويت لزميلي تفاصيل ما جرى قال: أية مغامرة خرقاء!

- دعها سرّاً بيننا. أرجوك!

رغم حالتي السيئة كنت أفكر بحنان. ماالذي جرى لها؟ وهل سيحرمونها من الدراسة ونيل الشهادة الإعدادية ثم يحبسونها في البيت؟

وتساءلت إن كانوا أرغموها على الإفصاح عن اللصّ العاشق الموشوم بالإبر؟

ياللحنين الذي سيجتاح الروح والقلب فيما بعد.

لم تكن حنان وحدها التي ستغيب إلى الأبد. هالة هي الأخرى ستغيب، فيكون ذلك آخر العهد بهما ومعهما.

سيُطوى زمن الورد والروائح الندية والعشب واللعب والخفقان الواجف ويوغل بعيداً في غياهب النسيان.

24

أحد المشروعات الملحّة في الذهن: بداية تأسيس نواة مكتبة في البيت. ألمحت لرئيف بالفكرة، قال: نبدأ بنهب كتب مؤسستنا العامرة. ثم أضاف بأنه يعرف دوراً أخرى للنشر وله أصدقاء فيها: بداية لن نشتري كتاباً. سنحصل مجاناً على القسم الأكبر من الكتب الأساسية التي تهمّك. وشرح بأن الوضع السياسي المتفجر لا يسمح لأي منا بتأسيس مكتبة ثابتة قد تنسفها قذيفة في أية لحظة.

كنت على وشك الانتهاء من مراجعة وتحقيق مذكرات «بابلو نيرودا» المدهشة، وفكرت بأن أول كتاب سأدشن به مكتبتي هو هذه المذكِّرات الساحرة.

في تلك الأيام الحرجة كنت مشوّش الذهن، مشتتاً بين حالة العائلة المهجورة، والتوق إلى استعادة حريتي الخاصة، والنزوع اليوتوبي لتأسيس حياة أخرى على أنقاض حياة قديمة هشمت روحي.

عبر تأملاتي، في لحظات الهدوء، بدأت أكتشف أن حياتي تضيع مني وتتناثر كما الرمل بين الأصابع، وأنني غير قادر على التحكم في هذا الجريان شبه العبثي. وما أتصور أنني أبنيه لا يلبث طويلاً حتى يتهدم متحوّلاً إلى خراب.

في ذلك الزمن بدت لي فكرة تغيير نفسي والعالم فكرة سخيفة ووهمية، منشؤها الحرية الداخلية التي تتوهم أنها قادرة على توجيه المصير في مواجهة العالم الخارجي واعتراضاته التي

تنحرف بك بعيداً عن مشيئتك والخرائط التي رسمتها الحرية وإرادة الذات.

لقد أسلم الشيخ اسماعيل مصيره لإلهه القادر الذي رسم مصير الإنسان في الخير والشرّ، والسعادة والتعاسة، والحياة والموت.

كان يقول لابنه في ليالي البراري ردّاً على سؤال الخير والشرّ:

الخير من الله والشرّ من الإنسان.

ـ والموت يا أبتِ لماذا؟

يرد الشيخ: الموت حق. الله وهب الحياة وهو الذي يأخذها متى يشاء. نحن يا ولدي وديعة آنية في هذا العالم الفاني. الخلود في الآخرة يوم الحساب العسير، إما في الجنة أو في النار.

في ذلك الزمن، السحيق الآن، كان الشيخ يعدّه ليكون وريثه الديني بعد موته حتى يكون جديراً بأجداده وأسلافه من المؤمنين الطاهرين.

ولأن الأب غالباً ما يكون المثل الأعلى للأبناء، كان الفتى يستمع لأبيه بخشوع ورهبة، موقناً في أعماقه أن أفكار الشيخ حقائق عميقة، غامضة، تتجاوز مداركه العصيّة على الاستيعاب.

ما كان يؤرق الفتى هو هذا العنف المستكنّ في أعماق الشيخ ضد الأم وضد الابن جرّاء أية هفوة أو اندفاعة لصبي لم يتخطّ الحادية عشرة.

كيف يتعايش العنف مع الحِلْم، والحكمة والإيمان في نفس واحدة؟ ولماذا يكون الأب ملاكاً مرة ومرّة وحشاً؟ وأيّ وجه منهما هو الحقيقة؟

كان يخاف أن يطرح هذه الأسئلة المحيّرة على أبيه.

خامرت ذهنه أن يسأل معلم المدرسة عن هذه الأمور وتحديداً عن العنف. لكنه تذكر ما فعله به يوم أخرجه ليحل مسألة حسابية على السبّورة وفشل في حلّها. أمسكه الأستاذ الغاضب من شعره أمام الطلاب وبدأ يلطم جبهته باللوح الأسود مرة ومرّة ومرات، وهو

يصرخ في وجهه أمام التلاميذ: حمار. جحش. بليد. بعمرك لن تحصل على شهادة يا تيس ما دام لا يوجد في رأسك سوى اللعب والشيطنة والصيد بالفخاخ والدبق.

كان المعلم يرغي ويزبد كما الجمل، بينما رأس الولد ـ الحمار يرتعش بين كفيه كأنه كرة ترتطم بالسبورة لتعود ثانية حتى سقط التلميذ البليد على الأرض مغشى عليه. وحين استولى الخوف على المربي الذي فقد صوابه نادى الآذِن ليحضر إبريق الماء سريعاً ويرشّه على رأس الولد المطروح المُغمى.

كان درساً في التربية القويمة، ملأ قلوب الطلاب بالهلع، في الوقت الذي تحوّل فيه المعلم الصارم إلى سيّد مُهاب تنخلع منه قلوب التلاميذ.

ترسو الأسئلة والأجوبة وتنام في الأعماق تحت طبقات المياه الكالحة، وفي لحظات الرعب الليلي تنهض وحوشاً كابوسية. أفاعٍ وضباع وأقراش وخناجر وصخور تتدحرج فوق الجسد من أعالي جبال سوداء. رجال ملثمون ومسلحون بالحراب والعصي ينهالون ضرباً وطعناً. تَيَهان في براري وصحارى مجهولة، أو مدن غريبة. رؤى مع موتى تراهم أحياء. كانوا أصدقاء في زمن غامض. هم الآن مشوّهون وهلاميون ومعصوبو الرؤوس، تسألهم: لماذا مِتّم؟ وكيف أنتم أحياء الآن؟ ولماذا لا تعودون؟

رُهاب المرتفعات والوهاد السحيقة، والخوف من السقوط فيها. اغتصاب فتيات صغيرات داخل غرف مظلمة. غشيان محارم. الغوص في برك الدم والغائط والبول. كوابيس جحيمية تصعد من الأعماق المعتكرة للروح التي انقسمت وتاهت في الغياهب ودروب الزمن.

في أزمنة لاحقة بعد أن تنمو وتعقل تسأل روحك الضائعة عن هذا الجحيم، فيجيبك الصدى: ابحث عنه فيك.

25

بعد أن تمزقت الأواصر بينهما، وانتشرت روائح الكراهية في أرجاء البيت وقع الرجل في أحضان المرأة المسماة مها القادري.

ما كانت العلاقة حبّاً. شهوة جسدية في أواخر الليالي بعد ليلة سَكرٍ عمياء أو جولة مقامرة.

امرأة ممتلئة، عبلة. جسد بلا ترهل لكأنه لم يُنتهك يوماً. إذ تنضو ثيابها وتتعرى تتلألأ تفاصيل جسد ينضح بالشهوة ونداء الجنس تحت شعاع الضوء الخافت. تومض عيناها وشفتاها بالدعوة إلى الوليمة المهيأة.

ما كانت تملك وجهاً جميلاً، لكنها كغانية وخليلة سابقة لجنرال، كانت تعرف كيف تحوّل بالمساحيق والماكياج وجهها إلى لوحة مغوية ذات غمازتين جذابتين.

حركاتها وتأوهاتها وذلك الاشتباك العضوي بالساقين والذراعين، والوهج اللاهب لفخذيها الأبيضين وفرجُها المنتهك منذ زمن طويل، هذا الألق المعربد والمتموج قبل الولوج وقبل صرخة الرعشة القريبة من شهقة الموت، هو كنزها السرّي المخبأ داخل خلايا وكهوف هذا الجسد المدنس والمقدس في آن.

هي الآن في أحضان نقيب في الاحتياط، وقبل عام ونيّف كانت في أحضان عقيد في الأمن؛ وماذا يهمّ فهي ما تزال في السلك العسكري وتحت الحماية والأمان.

وكما لجأت إلى العقيد الذي نبذها فيما بعد لينقذ زوجها ويفكّ أشره، توسمت في النقيب خيراً لمساعدتها في التوسط حول ملكية بيتها وحقها فيه، بعد تهديد شركاء زوجها بالاستيلاء على البيت وطردها مع ابنتها إلى الشارع.

ـ هدّدوني أكثر من مرّه. أرسلو شبّيحة مسلحين وقالوا بأن علي إخلاء البيت وإلا قتلوني أنا وابنتي.

ـ هل لديكِ ما يثبت ملكية البيت؟

ـ البيت جزء من ملكية زوجي وهذا مسجّل في الدوائر الرسمية والعقارية. استولوا على شركاته وأمواله وسجنوه ثم رحّلوه، والآن يريدون السطو على البيت آخر ما تبقى لنا. أي ظلم هذا!

ـ بل قولي: أية استباحة!

ـ ولكن ألا يوجد قانون يحمي المواطن وملكيته؟

ـ مرحبا قانون. القانون في الكتب والدفاتر وأدراج المحامين. هذا بلد أقراش وحيتان بحر ونحن السمك الصغير.

ـ والعمل؟ أنا داخلي عليك كي تساعدني بجاه الحبيب محمد. قالت عبارتها بغصّة وقهر وشفاعة.

جرى هذا الحوار قبل شهرين في مكتبه بضاحية دمّر والقريب من منزلها ذي الطابقين والمطلّ على نهر بردى.

بعد زيارتين لمها القادري دعته لتناول فنجان قهوة في البيت، حيث فاضت بحكايتها مع الزوج المطرود والمقيم الآن في كاراكاس، ويملك متجراً متواضعاً لبيع الأدوات الكهربائية.

لا في لقاء المكتب ولا في بيتها راوده التفكير في اشتهائها أو امتلاكها جنسياً إلى أن دعته على العشاء.

لم يَعدْها بشكل قاطع حول حلّ مسألة البيت. قال بأن جاره

وصديقه المحامي ملازم مجند يعمل في محكمة أمن الدولة سيشرح له الموضوع ويسأله عن إمكانية المساعدة.

ـ كما قلت لكِ نحن في غابة وحوش. البقاء فيها للأقوى.

وهو يغادر أعطاها رقم تلفون المكتب.

الاتصال بالهاتف أفضل من قدومك إلى المكتب. الجنود فضوليون وثرثارون.

26

ـ لا يمكن أن تبقى بلا تلفزيون. أخبار الراديو لا تكفي. بعض المحطات تعرض أماكن سرّية في الجبل للتدريبات العسكرية.

ميليشيات الكتائب نزلت إلى ميادين التدريب استعداداً للقتال. قال رئيف.

كنا خارجين من المؤسسة في بناية العازارية القريبة من ساحة البرج.

عرجنا على بار جنوب الساحة لتناول البيرة.

البار صغير لكنه مكتظ. البارمان يعرف رئيف. حيّاه ضاحكاً ثم قدّم لنا كأسي بيرة كبيرين.

ـ شو الأخبار أخي رئيف؟

ـ الأخبار عندك أبو أسعد.

ـ الحالة تعباني يا ليلى. البلد رايح عالعصفورية والمارستانات. ما حدا عم يحكي إلا بهستيريا الحرب. شو هالبلد المجنون يا رجل!

جوّ البار عابق بدخان السجائر، تبدو الوجوه كئيبة وقلقة. أصوات عالية تخرج على نحو عصابي لا تخلو من الشتائم والكلمات البذيئة ضد الدولة والميليشيات وزعماء الطوائف والفوضى الفلسطينية.

ـ حالة توتّر.

ـ البلد محتقن.

خرجنا. اشترينا التلفزيون.

ـ في المساء آتيك لنجهزه. اتركه داخل علبة الكرتون حتى آتي. بالمناسبة ما هي أخبار جارتك؟

ـ منذ أسبوع دعتني على فنجان قهوة. ثم وجَّهت دعوة عشاء.

جلجل رئيف بضحكته المتدحرجة. الله. الله. يبدو أنك بحاجة إلى خرزة زرقاء للحماية من العيون الجارحة. انتبه أنت في المرمى الآن على ما أظن.

ابتسمتُ ساخراً: اشترطتُ وجودك على العشاء أولاً. وثانياً أنا لست من المستوى المرجو. أنسيت ما نبهتني إليه بأنها ماركة مسجلة لرجال الأعمال وكبار السياسيين ومديري البنوك والضباط القادة.

ونحن نفترق أشار إلى حوار خاص سيجري مساء بيننا.

عبثاً أحاول الهروب من العالم الخارجي المضطرب نحو عزلتي الداخلية بحثاً عن السكينة المفقودة والاستقرار الذاتي.

أتساءل أين يكمن الخلل. فيّ أم في العالم؟ أم أنه في كلينا؟

وهل ما يحدث لي عقاب من الله الذي طلّقته إلى غير رجعة؟

ولو سلكت دروب الشيخ اسماعيل أكنت نجوت ووصلت إلى مرفأ السكينة والسلام الروحي؟

عبرتني هذه الأسئلة وأنا في طريقي إلى البيت.

أبداً تطفو الأسئلة عبر هذا اللجّ. عبر هذا الصراع المحتدم بين وجودك والعالم المحيط. تارة أنت في ساحة الاختيار الحرّ، وتارة

أنت في ساحة الجبر المصيري القادم كالرياح السّموم من جهات العالم الأربع. تجنح السفينة التي فقدت بوصلتها فترميك على شواطئ مهجورة لتواجه المصير الجديد مرة أخرى. وإذ تحاول الصراخ بحثاً عن منقذ يتبدد صدى صوتك في الفضاءات الفارغة.

- يا إلهي ارفع عني هذه الكأس، صدى صوت الشيخ اسماعيل يدوي عبر الوديان ويخترقني.

27

مساءً حوالى الساعة الثامنة جاء رئيف حاملاً زجاجة ويسكي.

قبل تحضير العشاء انهمكنا في تجهيز التلفزيون وتوليفه على المحطات المحلية وبعض القنوات العربية.

تركت رئيف يقوم بالأعمال الفنية والإلكترونية التي لا أفقه فيها ودخلت إلى المطبخ لأهيئ العشاء.

سألني أين سأضع الجهاز. قلت في الزاوية الشمالية فوق الكومودين بحيث نشاهده ونحن نتعشى.

بعد ساعة كان العشاء جاهزاً، وبدأ التلفاز يعمل على القناة اللبنانية الرسمية والسورية والقناة المصرية.

ـ الهوائي داخلي حالياً، لا بد من هوائي خارجي للتقوية لترى بقية القنوات. نبّهني.

شربنا نخب التطور الحضاري الجديد الذي دخل الشقة المتواضعة، ومعه أخبار وصور العالم.

سألني خلال العشاء عما جرى بيني وبين إيفا خلال لقائنا.

ـ لا شيء له أهمية سوى نقدها للمثقفين واليساريين في الجامعة.

ـ أي نقد. أعني ما هو رأيها؟

ـ قالت بأنهم متهوّرون ومعزولون عن الكتلة الشعبية. مأخوذون بطفولة يسارية مغامرة.

ـ هل ألمحت إلى لقاءات خاصة مع بعض هؤلاء خارج الجامعة؟

ـ لا.

وسألني إن كانت أفصحت عن التزامها السياسي، فقلت: تقول بأنها كانت نشطة معهم لفترة ثم تركت.

أطفأ التلفزيون. كان واضحاً أن لديه شيئاً لا أعرفه عن تلك المرأة يودّ البوح به.

بدأ رئيف يستعيد الزمن الجامعي والعمل السياسي آنذاك.

ـ في البداية كانت إيفا ومجموعة من الطالبات يشاركن في النشاط السياسي. كنت أطلعك، كما تذكر، على جانب من نشاطنا بعد عودتك من الجزائر.

كنا نشرب ونأكل على نحو متقطع، ومن الغرب كان صوت البحر يتصادى رتيباً وهادئاً. روى بأن مجموعة من الأصدقاء من مشارب سياسية متباينة كانوا يتلاقون في بيت وديع ابراهيم، وهو واحد من الأصدقاء المندفعين للتغيير السياسي في البلد.

ـ كان إنساناً نقياً ونزيهاً. كتلة من الغضب والعفوية والاندفاع الحارّ.

في هذه اللقاءات المتباعدة والتي كانت تتم أحياناً في بيوت أصدقاء آخرين، روى بأن الحوارات لم تكن سياسية خالصة.

ـ حوارات عامة في الثقافة والسياسة وأحوال المجتمع وضرورة الحرية المفقودة في وطن تحكمه الدولة الأمنية التي تكمّ الأفواه وتصادر الحريات.

تابع وهو يدخن: كانت المرحلة مرحلة اضطراب سياسي بعد الانقسام الذي حصل داخل حزب السلطة، المنشقون من الحزب اقتربوا من الماركسية، كما كان هناك شيوعيون تبنوا المسألة القومية، انشقّوا هم أيضاً عن الحزب الشيوعي التاريخي، كما نشأت

فصائل ماركسية مستقلة ومتطرفة، في الوقت الذي كان فيه الأخوان المسلمون والتيارات الدينية تنمو وتتعاظم سراً وعلناً سواء من خلال الجوامع والمدارس الدينية وكلية الشريعة في الجامعة، أو الاجتماعات السرية في البيوت والأحياء والمدن ذات الطابع الديني.

تابع: إيفا وبعض الطالبات كن يحضرن جزءاً من هذه اللقاءات والحوارات، والتي كان يتخللها، في غالب الأحيان، تحضير الطعام والشراب بشكل تعاوني مشترك بين الجميع. هذا كان قبل زواجها من راتب الخوجة المليونير المعروفَ.

سألت رئيف عن موقف إيفا خلال لقاءاتهم، فقال بأنه كان يبدو إيجابياً وحماسياً في البدء، لكنها بعد أسابيع قليلة بدت فاترة تطرح ملاحظات حول بعض المواقف المتهوّرة، وضرورة فصل الثقافة عن السياسة في المرحلة الراهنة لأن السلطة متربّصة وفي حالة استنفار، والأمن عينه الحمراء مفتوحة ليلاً ونهاراً.

ـ أقول لها، يستطرد رئيف، لا أحد في البلد يفكر بالانقلاب والاستيلاء على السلطة. الصراع الداخلي حُسم عسكرياً وانتهت القصة إلى ما هو معروف. الآن، وفيما بعد، المسألة الديمقراطية والحرية هما الملحّان وإلا دخلت البلاد نفق الدكتاتورية، وهذا خطر كارثي في بلد اعتاد التعبير بحرية بعد رحيل الاستعمار ونيل الاستقلال وتحقيق حلم الدولة الوطنية. المواطن بلا حرية أرنب أو نعجة. تدافع إيفا، كما يقول رئيف، عن ضرورة إعطاء السلطة فسحة من الوقت لاسترجاع أنفاسها، وترتيب البيت الداخلي سياسياً واقتصادياً.

ـ فيما بعد غابت عن تلك اللقاءات. ثم جاءت الاعتقالات.

في المعتقل عرفتُ من أحد الأصدقاء بأن أخاها ضابط برتبة رائد يعمل مع أخينا العقيد في فرع الأمن.

ـ برأيك هل كانت تنقل معلومات لأخيها؟ سألته.

ـ لست متأكداً. شكوك ليس إلاّ. هناك احتمالات أخرى حول آخرين. الوسط الثقافي والسياسي كان موبوءاً اختلط فيه الواشي والمخبر مع النزيه والمخلص. لقد اعتُقل آخرون ولم يكونوا معنا في تلك اللقاءات والحوارات.

وأضاف: كما أظن أنها كانت ذات وجهين، وجه ثقافي للمباهاة ووجه مادّي نفعي، وقد اختارت الوجه الآخر من خلال زواجها برجل المال والأعمال.

وأنا أدلف إلى المطبخ لجلب مكعبات الثلج قررت بعد طول تردّد أن أسأله عن العلاقة بينهما.

كنا منتشين والساعة قاربت الواحدة ليلاً، وصوت الأمواج مازال يتصادى تحت ليلة مقمرة. حين رميت السؤال ارتجّت ضحكته المديدة واصطدمت بالموج.

ـ بقدر ما تبدو نبيهاً وذكياً في التحليل بقدر ما تبدو مغفلاً أحياناً. كيف أقيم علاقة مع امرأة هي في مرمى دائرة الشك والظنون!

وأضاف: سأقول لك شيئاً خاصاً يبقى بيننا. أنا أرتاب بسلوكها المثلي والسّحاقي. لديها صديقة عراقية، هي الآن مسافرة، لكنها كانت تقيم معها في البيت.

سألته عن عمل صديقة إيفا فقال بأنها صحافية وهي مطلقة أيضاً، وإذ تحاورنا حول الزواج والطلاق ثم المثلية السحاقية بدا الأمر معقداً عصياً على الإدراك.

قبل مغادرة رئيف شربنا ما تبقى من كأسينا وسط ضباب من دخان السجائر ودويّ الصداع، وتهويمات الأسئلة المحيرة.

28

هتفت مها القادري عصراً راجية قدومي إليها في المساء. أنجزتُ ما تبقى من أعمال المكتب. وهتفتُ البيت. ردّ الولد الأكبر: قل لأمك أن لدي اجتماعاً مع قائد الكتيبة لأمور عسكرية وقد أتأخر ليلاً.

ردّ الولد: بابا. نحن لا نراك إلاّ يوم العطلة. دائماً تتأخر ليلاً. اشتقنا لك.

نبضَ حسّ التأنيب. الولد محقّ. بعد انتشار جراثيم الكراهية وتنامي الشجارات ما عاد البيت يطاق. أشعر بأنني غريب ومكروه في ظلال أسرة هي الآن في مهبّ العواصف. البيت يتصدع. رجل وامرأة مات الحبّ بينهما وجرعات التسمم يتناولها الأولاد بلا ذنب. الأطفال الضحايا.

بعد سنوات ستأتي لحظة الحساب المرّة والعاصفة في إهاب جزء من رسالة عتاب جارحة من الابن الأكبر.

«لقد كبرنا في زمن غيابك الطويل، رفاقنا في المدرسة ينادوننا بكنية الأم، نحن بلا أب.

الأب الغائب أبٌ ميت. اخترتَ هجرنا بلا مبالاة ولا مسؤولية. أسرة بلا أب كبيت بلا أعمدة وأنت كنت عمود البيت الأساسي. والبيت الآن يتداعى. كنت أسير أنانيتك وشهواتك وحريتك الذاتية حين هجرتنا ورحلت رامياً بنا إلى الهاوية وكأننا لسنا من صلبك ودمك.

أمي تحاول التعويض عنك بكل ما لديها من طاقة الحنان والرعاية والتربية القاسية أحياناً. تحمينا تحت جناحيها كما الطائر الذي يضم صغاره تحت ريشه خوف هجوم الحدأت والطيور الجارحة (التي تداهم البيت ليلاً وتفزعنا).

ومع ذلك نحن نحبك ونشتاقك كثيراً. وأحياناً تدمع عيوننا إذ نتذكرك. وإذا ما عدت يوماً إلينا فسيكون ذلك اليوم عرساً بهيّاً حافلاً بالسعادة والحبور. سننسى فيه الأيام السوداء والجارحة التي عبرت حياتنا: لك محبتنا جميعاً»

ابنك المحب

بدا تلقين الأم واضحاً في توجيه الاتهام.

بعد قراءة الرسالة الجارحة والشعور بالمرارة وحسّ التأنيب سيتساءل إن كان بالإمكان إعادة ترميم الزمن الخراب من خلال أولاد شبّوا عن الطوق وهم الآن على أبواب الوعي!

في ذلك الزمن كان كمن يطفو فوق لجّ مضطرب. تمنى لو يخطف الأولاد ويرحل بهم بعيداً عن الوطن والأم التي انشقّ الزمن بينهما وانشرخ إلى غير التحام.

أتراه يتبع الآن خطى الشيخ اسماعيل وفياً لميراثه واستشهاداته الشعرية:

«وإذا القلوبُ تنافرت عن بعضها
مثلُ الزجاجة كسرُها لا يُجبرُ!»

وهو الآن في المضائق. مسيّر فوق خط مصيره المجهول بعد أن ضاعت الجهات. وحين اصطدم بجسد مها القادري في تلك الليلة الليلاء أدرك أن الشرخ قد اتسع، وأن الجسور بينه وبين زوجته قد تحطمت إلى الأبد.

فوجئ بوليمة العشاء المنوّعة الفاخرة التي أعدتها المرأة.

بدت مهيأة هي الأخرى لتكون وليمته في أواخر الليل. ثوبها الشفاف الكاشف عن أرومة نهديها ورائحة عطرها العبق، وابتساماتها الشهوية، وشَتْ بنواياها الاحتفالية والرغبة الكامنة.

ـ هذه الليلة لك. قالتها في منتصف العشاء واستطردت: البنت في بيت جدّها. هرّبتها لأنني خائفة عليها منهم.

خلال العشاء سألته عن صديقه المحامي في محكمة الأمن القومي، أوضح بأنه سيبذل كل ما بوسعه لمساعدتها.

وسألها عن المداهمات والتهديدات فقالت بأنها مستمرة، وأنها خائفة ومتوجسة.

ـ أنا امرأة وحيدة وهم يعرفون أنني مهجورة بعد أن نبذني العقيد. أنا الآن في حماك يا سيدي.

كان الآن في كأس الويسكي الثالثة حين رنّت في سمعه وفضاء الصالون كلمة «يا سيدي». وحده الجندي المأمور يقولها. مها الآن تنطقها بنوع من الضراعة والاحتماء بموقعه، وهو الضابط الاحتياطي المؤقت والذي سيُسرّح قريباً، يضحك في سرّه هازئاً من هامشيته وقصوره داخل المؤسسة الفولاذية التي تحكم البلد.

في بداية السهرة كانت في مواجهته وبينهما المائدة، وبعد أن شربت كأسين انتقلت إلى جواره وبدأت تطعمه بين آن وآخر لقيمات وكأنه طفلها المدلل.

من غرفة النوم نصف المفتوحة انسابت موسيقى كلاسيكية هادئة.

«أنا في حماك يا سيدي». المرأة اللاجئة الآن والمُنتهكة فيما مضى، والتي ستمنحه جسدها المتوهج بعد قليل تلوذ به كسفينة جانحة توقاً إلى الطمأنينة المفقودة. هو الفاقد للتوازن الأسَري والمعتكر والضائع، اللاشيء المُرمى خطأ في عالم يرفضه.

لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً أيتها المرأة. فقط سأضاجعك في الهزيع الأخير من هذا الليل بكل طغيان الطاقة والشهوة وأنا ثمل. معاً في العري العاهر والمقدس سندمر جسدينا حتى تخوم الموت.

هجس الحيوان المستتر تحت العشب، الموشور الآخر النائم في ظلال العتم، هجسه السرّي. النصف المظلم فيه والعاجز عن البوح. هو المغمور الآن بضباب الويسكي وشهوتها وهي تلتحم بجسده وتقبله رامية فخذها نصف العاري في حضنه الملتهب.

- الليلة أنا لك بكلّيتي. هل ستخذلني؟

تموجت كلمة «الخذلان» في فضاء نصف الوعي. بدت ملتبسة تنوس بين التوق لإشباع رغبتها الجنسية، وبين حمايتها والوقوف معها في محنتها.

رائحة المقايضة والتواطؤ اختلطت مع ضباب دخان السجائر ونشوة الويسكي وهذا الانتصاب القضيبي تحت أصابعها المداعبة التي اندسّت بين فخذيه.

ها هما يحتفيان في حفلة مواطأة. ينسجان ستارة بخيوط ملونة. ستارة واهية ستُمزق كما مُزّق غشاء بكارتها المفقود.

حين طوقته وهمست في أذنه وهي تلفحه بعبير تنفسها ولهاثها الحارق: خذني. أنت أميري.

انفتحت فجوة في الستارة الوهمية والمزيفة.

كانا يترنحان وهما يتجهان نحو سرير الشهوة والموت والنسيان.

29

في البيت هبّت عاصفة الجنون. شتائم واتهامات تطلقها المرأة المُخانة بعد أن تسرّب منها زوجها وضاع.

ـ كروائح المراحيض تفوح منك رائحة العاهرات.

تعلو النبرة الاستفزازية لامرأة تدافع عن ملكيتها.

نيران الغيرة والرغبة في الاستحواذ الذاتي تتطاير شرراً وشرّاً في فضاء البيت، وعلى مسمع من الأولاد الذين يلعبون في الغرفة المجاورة.

ـ اخفضي صوتك من أجل الأولاد.

ـ ليسمعوا وليعرفوا من هو هذا الأب الصالح!

قالت بنبرة لبؤة جاهزة للمعركة.

هو كان متعباً من سهرة الأمس. آثار الصداع والرغبة في النوم أقصياه عن ساحة القتال.

بعد أن أفرغت المرأة ما في جعبتها من اتهامات وبذاءات، وحقد على الرجال السفلة والخونة والكلاب المسعورة أغلقت باب غرفة النوم بشحنة من الغضب الحاقد.

على شاشة الذاكرة استُعيد برقياً شريط السهرة والتحام الجسدين وصراخ الشهوة وفنون المرأة المحترفة في منح اللذة وتهييج الرجال. ثم نام.

«ورأى أنه في مكان غريب لا يعرفه. بلدة هي إلى الريف أقرب منها إلى المدينة. وعبر الطرقات يسير أناس في اتجاهات متعارضة. بعضهم يكاد يكون معروفاً لديه، وآخرون غرباء. وسأل رجلاً، كان صديقاً له قبل أن يموت، عن بيته الذي لا يعرف أين هو، ولا يعرف الطريق إليه.

وقال الرجل: اتبعني. لنقف هناك على الناصية وننتظر سيارة توصلنا إلى البيت. وراحت السيارات تعبر دون أن تتوقف. كان الآخرون الذين لا يعرفهم يتحدثون بسخرية عنه لأنه غريب عن البلدة ولذا أضاع بيته. وحاذاه رجل قائلاً: لا توجد سيارات في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل. والتفت نحو صديقه الميت فلم يَره. ورأى نفسه يهبط منحدراً حوّاري التربة وفي الأسفل غابة من السنديان والبلوط وأشجار أخرى لا يعرف أسماءها وتذكر بأنها الغابة التي كان يصطاد فيها الطيور بقضبان الدبق. وعلى حواف أيكة من الغابة رأى طيور السمّان والشحرور وأبو الحن عالقة، وراح يخلّصها عن الدبق ويضعها في حقيبة شبكية معلقة على ظهره. وقال لنفسه سأعود إلى البيت الآن والجعبة مليئة بالطيور. وسأل نفسه ولكن من أين الطريق إلى البيت؟ وسمع في الظلام صوتاً يشبه الصدى ذكّره بصوت الشيخ اسماعيل: أطلق الطيور الحبيسة ترشدْك إلى البيت».

وكانت أحلامه عن الضياع والذئاب في الأماكن الغريبة تتكرر.

وأبداً ما كان يعرف كيف يعود إلى البيت، وحين يخيل إليه أنه اهتدى إلى المنزل كان يفاجأ بأنه محتلّ من أناس غرباء تناثروا في غرفه الضيّقة، وقد التحفوا أغطية بيضاء، وإذ يحاول البحث عن سرير ينام فيه يجد إنساناً غريباً لا يعرفه ينام في سريره.

وفي أوقات اليقظة كان يحاول تفسير أحلامه عن التَّيهان وضياع البيت، والأماكن الغريبة فلم يصل إلى حلّ واضح يرضيه. كانت حالة الصدام والانشقاق في البيت العائلي ماثلة خلال محاولات التحليل لكنها ما كانت كامنة أو مقنعة بشكل حاسم.

وفكر مليّاً في غربته الداخلية واختصامه مع العالم الخارجي ومع الأعراف والتقاليد والخرافات الدينية اللامعقولة وخروجه عن تعاليم الشيخ بعد أن نما وعيه.

وتذكر حادثة طرده من البيت في ليلة ماطرة مع أمه ولجوئهما إلى بيت جدّه. كان الشيخ ثملاً في تلك الليلة، وعاتبته الأم قائلة: لايليق بك كرجل دين محترم أن تشرب الخمر على هذا النحو. وصرخ الأب في وجهها. استشاط غضباً: أنت أيتها البهيمة الجاهلة... وانهال عليها صفعاً وركلاً وهي تولول بين قدميه وتستجير. ورأى نفسه يغطي الأم ليقيها من الضرب الوحشي: أرجوك يا أبي. حرام عليك. حرام. وصرخ وهو يركلهما إلى الخارج: هيا. اخرج أنت وهي من هذا البيت. لا خبز لكما في بيتي بعد اليوم.

نوبة من نوبات العمى كانت تنتابه بعد أن حلل لنفسه شرب الكحول، مخالفاً تحريمه الديني، تحت ذريعة كان يسميها بصوفية الكشف النوراني، حين تشفّ الروح بالخمرة الإلهية وتسمو مرتقية مدارج السموات السبع الطباق لتلتقي بالباري ونوره الكليّ الذي يبهر الأبصار.

«وإذا أبصرتني أبصرتَه نحن روحان حللنا بدنا».

ينشد الأبيات الصوفية بنوع من الترتيل الخاشع، وفي حالات الترتيل كانت دموعه تسيل من شدّة الوجد.

تعرف الأم ذلك وهي تشرح لابنها حالاته الغريبة والمتناقضة، وتضيف: لولا الخمر لكان شبيهاً بالملائكة والأنبياء ـ أستغفر الله ـ في صفاته ونقائه وعلمه وحبّه للناس الفقراء والمحتاجين وخاصة في أزمنة الأعياد والنذور.

فيما بعد إذ يصحو يشعر بالخزي، والاعتراف بأن الشيطان غلب الرحمن في لحظة طيش، يقول للأم التي أعادها الجدّ مع ابنها إلى البيت.

30

الفوضى أساس العدل.

دوّت في فضاء بهو المدرسة الواسع، وسط الطلاب المتظاهرين احتجاجاً على قوانين المدرسة الجائرة.

صرخة احتجاج هتفتُ بها وردّدها المتظاهرون بأصوات مدويّة، بينما المدير والمدرسون يراقبون المشهد عن كثب.

من أين انبثقت تلك الصرخة الغريبة، والنافرة؟

لا بدّ أننا كنا في حالة احتقان وجيشان ضد قوانين المدرسة التي ترفض منحنا عطلة مراجعة للتحضير لامتحان الشهادة الإعدادية.

في حمّى الهياج والغضب والفوضى ترددت الجملة مراراً في البهو والساحة الخارجية.

«حرية. حرية. بدّنا عطلة شهرية» هتفنا بأصوات محتقنة ولامبالاة بالعواقب.

الطلاب الأربعة الذين قادوا المظاهرة مثلوا أمام الإدارة. عوقب ثلاثة بالطرد لمدة أسبوع وعوقبت لمدة عشرة أيام.

ـ أحضر وليّك حالاً. نبر المدير في وجهي.

كان الولي موكلاً عن الشيخ اسماعيل في غيابه. رجل وقور ومتدين يمتّ للشيخ بصلة قربى بعيدة. غرفتي المؤجرة جزء من

داره. قال له الوالد في بداية العام الدراسي: هذا ولدك يا شيخ محمود. أنت وليّه في غيابي. إذا انحرف أو شذّ لا ترحمه.

ـ المدير يريدك. قلت للولي.

ـ خيراً؟

ـ طُردت من المدرسة.

سأل عن الأسباب فشرحتُ له.

بدت مواجهته مع المدير مهينة. كنت صامتاً بحنق.

ـ هذا تلميذ مشاغب وفوضوي يحرّض الطلاب ويتمرد على قوانين المدرسة. قال المدير بغضب ونفور.

ـ لن يعيدها يا سيدي. على كفالتي. قال الولي باستخزاء.

استكانة الولي جرحتني.

قال المدير بنبرة متعالية: انظر إليه. عيناه تقدحان شرّاً وشرراً. ليحضرْ أبوه.

واستطرد: أنت مطرود حتى تعود إلى رشدك.

انسحبت خارجاً. تبعني الولي الطيب. عاتبني موبخاً.

قلت وأنا أعدو باتجاه كروم الزيتون: اذهب أنت والمدير والمدرسة إلى جهنم. أنا أكرهكم.

ـ منذ أسبوع لم نركَ. سألت هالة السيد بعد الحادث. واستطردت بأسى: حنان منعها أهلها من الدراسة.

ـ وأنا طُردت من المدرسة. قلت.

شهقت. تقدمت مني. وضعت كفها على كتفي.

ـ لماذا؟

ـ المدير غبي وابن كلب. يكره أولاد الريف الفقراء.

كنت أسوّغ أسباب الطرد بأعذار مراوغة وحانقة.

قالت هالة: أنت ولد شقي. لا بد أنك فعلت شيئاً يستحق الطرد.

ـ وداعاً. أنت غبية كالمدير ولا تحبين أولاد الريف.

جريت مسرعاً بعيداً عن هالة. صرختْ وهي تعدو ورائي بين الأشجار: نحن نحبك يا أهبل. قالتها بحرارة وغصة.

تواريتُ عنها وأنا أتدحرج بدموعي.

وأنا مستلق على السرير محدّقاً في السقف الأبيض تموّجت الأحداث. المظاهرة. الفوضى. الاضطراب. حنان. الهروب وأشواك الصبّار. وقعُ النبأ على الشيخ اسماعيل. العقاب القادم. ضياع المستقبل. فتى في مهبّ العواصف. لا أمل في شيء.

كنت ممتلئاً بالكراهية والمقت. العالم أسود وأنا أرتجف مهجوراً عارياً في برارٍ يغطيها الجليد.

ـ الدنيا صقيع أدفئيني يا أمي. صرخة ضارعة ماتت في خلاياي.

أيقظني الظلّ المديد الذي دخل الغرفة.

ذُعرت وأنا أنهض. مسح الشيخ اسماعيل على رأسي وجفف العرق والدمع عن وجهي وعيني.

ـ لماذا تبكي؟

ارتجفتُ هلعاً. هوذا العقاب.

وضع الوالد زنده حول رقبتي وطوّقني ثم ضمني إلى صدره. بعد برهة من الصمت سألني فرويت ما جرى.

ـ كنتَ مخطئاً يا بني. العلم لا الفوضى هو المستقبل والعدل.

رويت له موقف الولي الضعيف والذليل واستجداء المدير

ومخاطبته بسيدي. هذا مخجل. أنا اكره المدرسة ولا أريد العودة إليها.

جاء صوت الأب رقيقاً وهادئاً: العلم هو النور يا ولدي. وبلا علم الإنسان بهيمة. ستكمل تعليمك حتى لو بعثُ ما فوقي وتحتي من أجلك. اخزِ الشيطان واتبع سبيل الرحمن يا هزيم. الرحمن هو العلم والطريق القويم.

تضامّا بحنو. الشيخ يعظ والفتى شارد في متاهات هالة وحنان والمداهمة في خرابة الدار والهروب الصبّاري.

31

حين يطوي طائر الزمن خمساً من السنين القادمة تحت جناحيه يومض من الذاكرة مشهد مواز ومفارق للفوضى العادلة.

أكثر من ثلاثمائة حنجرة تهتف بدوي كالرعد:

«الموت للدكتاتورية. الحرية للشعب».

نحن الآن في البهو الواسع للمعهد التربوي، مطوقون من الخارج بالشرطة المسلحة بالبنادق والمسدسات والهراوات. سلاحنا أصواتنا الهادرة وخشب المدافئ المعدّ لمواجهة صقيع الشتاء.

أكوام الحطب موزَّعة في الزوايا وفوق السلالم. حين يقتحم الجنود البهو محاولين الدخول ستنهال عليهم الكتل الخشبية. كنا قد شكّلنا فرق الهجوم على ثلاثة محاور، وفرقة رابعة في الطابق الثاني من المبنى، مهمتها قذف القنابل الخشبية من النوافذ المفتوحة. وراء فصيل الهجوم فرقة للدعم بالحطب، ثم فرقة الإسعاف وإخلاء الجرحى.

مكبرات الصوت تدوي من الساحة الخارجية داعية إلى إنهاء المظاهرة، واعدة بالعفو عن الفوضويين والمشاغبين.

بين وقت وآخر تدخل من الممر الطويل، المزروع على الجانبين بأشجار الصنوبر والسرو، سياراتُ شرطة وإسعاف، تطلق صفارات إنذار لإثارة الفزع والرعب.

منذ أسبوعين والمدينة تغلي. المظاهرات في الشوارع

والإضرابات في المؤسسات الحكومية. المدارس الإعدادية والثانوية ودور المعلمين والمعلمات والمعاهد في حلب تستعد للخروج والتظاهر في الشوارع والساحات.

الأخبار من العاصمة تؤكد خروج طلاب الجامعة إلى الشارع مع العمال. قتلى وجرحى خلال الصدامات بين الشرطة والأمن والمتظاهرين.

الدكتاتورية العسكرية تترنح. أنباء غامضة عن تمرّد قطعات عسكرية في أكثر من محافظة. الطاغية يخطب متوعداً بسحق المظاهرات بلا رحمة.

ليل القمع الأسود سيولد من هذه الظلمة الحالكة، ولن تكون هناك شمس سوى من أزهار الدم.

ليل مديد سيتناسل من هذه البرهة الحمقاء.

دم في الشوارع. دم في الساحات والسجون والمعتقلات والثكنات العسكرية. بلاد تنقسم على نفسها وتتفكك. عصور القمع العسكري تتقدم. وأزمنة الثارات والتفكك والدم يطلب الدم. هوذا الوحش يكسر القفص منطلقاً من عقاله ليبدأ قانون الغاب.

لقد بدؤوا باقتحام المعهد والدخول إلى البهو الواسع. حرب غير متكافئة بين خشب المدافئ والهراوات والرصاص المروّع فوق الرؤوس. جرحى وصراخ: اصمدوا. الموت للدكتاتور. بلادي. بلادي لكِ حبّي ووادي.

النشيد الجنائزي المقاوم: يا ظلام السجن خيّم. الحرية. الحرية.

- ألقوا القبض على قادة الشغب. يدوي صوت قائد الشرطة.

هرج وهروب فوق السلالم وإلى داخل الأقسام والطوابق العليا. قائد الشرطة يُجرح بسكين مطبخ يطعنه بها أحد الطلبة. على رأسه

وأضلاعه تنهال الهراوات وأعقاب البنادق. يصرخ الطلاب تحت الدم والألم: الموت للدكتاتور الوحش. كلاب. كلاب. لن نستسلم.

سعار الجنود يبلغ الأوج. يضربون عشوائياً بحقد أعمى. يعتقلون الطلاب ويرمونهم في السيارات.

طلاب جرحى محطَّمو الأضلاع ومُغمى عليهم يُجرّون فوق البلاط العاري والمصبوغ ببقع الدم.

- هذه مجزرة. يندفع المدير صارخاً في وجه الشرطة المسعورين. يدفعونه بقوّة داخل مكتبه ويغلقون الباب.

الموت للدكتاتورية العسكرية والاستبداد، الآن وغداً وإلى الأبد.

هل صرختُ أم هجستُ بالعبارة وهم يقذفونني مدمّى بين أحذية الجنود في قاع سيّارة الإسعاف!

32

بيت، أو مجازاً بانسيون مدام إيلين يقع في الطابق الثالث من عمارة في حي السبكي.

امرأة أرمنية قصيرة في قدمها اليمنى عرج خفيف. حرث الزمن وجهها الأبيض بالأخاديد، وبيّض شعرها بورود الثلج بعد أن تجاوزت الستين.

ثلاث غرف وصالون متوسط الاتساع، غرفتان للإيجار والثالثة غرفة نومها مع حفيدها إذ تأتي به أمه مرتين أو ثلاثاً في الشهر.

الصالون للقمار لكن لغير المحترفين، وسطه طاولة مستديرة خضراء محاطة بالكراسي، خمس أو ست حسب عدد اللاعبين.

شلّة من الصحاب المدنيين والعسكريين من ذوي الرتب الصغيرة ألِفوا هذا البيت مع الزمن وفي ليالي العطل.

إيلين تعرفهم وتقامر معهم أحياناً. مع ما يُشال لها من «كنيوت» اللعب وإيجار الغرفتين، تكفي نفسها.

في إحدى الغرف يسكن رئيف شاهين منذ حوالى عامين.

إيلين ترى فيه بديل ابنها الذي فُقد خلال مذبحة الأرمن الشهيرة. بقدر ما تحنو على رئيف وتدلله تتطير من صديقه هزيم اسماعيل، خاصة خلال اللعب. تشعر بأنه لئيم حين ينفرد بها في لعبة البوكر، وهو يريها بلفة الغش. يضحك بشماتة فتنهال عليه

بأدعية مسيحية طالبة من يسوع حرقه بالنار وعدم الرحمة به يوم القيامة.

تقول لرئيف بصوت غاضب مبحوح: كيف تصادق هذا الثعلب؟ هذا الحنش الأسود والعقرب السامّ؟

ترتجّ الصالة بضحك اللاعبين.

ـ لماذا تلعبين معنا أيتها الشمطاء الجشعة. يثيرها هزيم كاتماً ضحكة. ويضيف مواصلاً إغاظتها: هذه لعبة بوكر ما فيها ياأمي ارحميني.

تحرد إيلين وتنسحب تاركة طاولة اللعب. تعرج باتجاه المطبخ لتعدّ القهوة للاعبين. وهي تقدم الكأس لخصمها اللدود تقول: محلّ ما يسري يهري بجاه العدرا.

يعترض رئيف: الجماعة ضيوفك وهزيم صديقي. ويستطرد مازحاً: بعدين هذا نقيب وعسكري. ألا تخافين أن يعتقلك؟

تدير ظهرها وتربت على مؤخرتها: يعتقل هذه، ثم تطلق ضرطة: أنتم ضيوف لا هو. شقفة ضابط احتياط بيسوى فرنك.

تضج الصالة بالضحك والمرح. يجمع اللاعبون ما خسرته إيلين ويضيفونه إلى حصتها من كنيوت صندوق اللعب.

مرة أخرى تعود إلي اللعب. البوكر في دمها. إذ يخسر هزيم تشمت. تكاد تزغرد فرحاً: هذا جزاء اللئيم. تتمتم بالأرمنية كلمات لاتلبث أن تترجمها همساً لرئيف مغزاها أن يسوع الحي سمع دعاءها فاستجاب لها وهزم الشرّير.

يهمس رئيف بالعبارة للاعبين في غياب إيلين التي ناداها حفيدها.

كعادته، كإنسان خائب ليس في البوكر إنما في الحياة، كانت خسارات القمار إحدى محطاته العابرة.

هكذا في دورة من دورات اللعب راهن برصيده الكامل مع أحد اللاعبين، بعد أن انسحب الآخرون، فخسر.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة والربع. في الثانية عشرة يغلق صديقه أبو معروف خمّارته.

من رصيد رئيف تناول مئة ليرة ونهض.

تودعه إيلين على الباب والشماتة ترفرف عبر وجهها المخدّد وبريق عينيها: مستأنسين فيك سيادة النقيب. سيوحشنا غيابك.

يضحك وهو يهمّ بالخروج: حنيّ طيزك بالمصاري يا شمطاء. أنا رايح أسكر وغنّي وأتمدد بحضن دافئ، وطظ على أموال الدنيا كلها.

- مرحبا أخي أبو معروف.

- مرحبا. أهلاً.

وجه عبوس قمطرير أبداً لكأنه قادم من مأتم بعينيه الجاحظتين والجمريتين من وهج الخمر، وشفتيه المزمومتين، وجبينه المغضن.

- اليوم متأخر على غير العادة. ينظر إلى ساعة الجدار وهو يدخل مستودعه الصغير في مؤخرة الحانة.

- لن أؤخرك. كأس عالماشي.

هو الآن يرتب الزجاجات والصناديق استعداداً للإغلاق.

الخمارة ضيقة لا تتسع لأكثر من ثلاث طاولات صغيرة، وتطل على رصيف شارع العابد. أبو معروف الخمسيني النزق والمزاجي لا يستقبل في حانته سوى حفنة من النخبة المثقفة كطلاب الجامعة أو بعض الصحافيين أو الأدباء.

- كأس ويسكي مزدوج إذا سمحت.

أبو معروف الآن في آخر نصف كأس بيرة أمامه. ولأنه في

حالة تأفف شبه دائمة، راح يشتكي من الركود الاقتصادي في البلد، والقيود على الاستيراد، وتفشّي ظاهرة التهريب، وتفاقم الغلاء.

ـ شو رأيك أخي هزيم. لوين رايح البلد؟ يسأل بامتعاض.

يدرك هزيم اسماعيل الحالة المأزومة للبلد، لكنه يراوغ في الجواب العمومي المستبطن حول السياسة التي تحرق أحياناً وتودي إلى التهلكة والسجون. كما يدرك أن تسمية الأشياء بأسمائها نوع من مغامرة الاقتراب من الهاوية. يكتفي بعبارة عامة: أخي أبو معروف، الدنيا مخضوضة. ونحن في مرجيحة. وما في بوصلة توجيه تشير إلى شاطئ الأمان.

ـ ولكن أنت ضابط. وبتعرف الحالة جيداً.

يضحك النقيب الاحتياطي وهو يتذكر ما قالته عنه مدام إيلين.

ـ المهم أن نبقى صامدين في الميدان. يقول النقيب ساخراً.

ـ مين؟ يسأل أبو معروف.

ـ العسكر. حامي الحمى. صمّام الأمان وصائن الشرف القومي.

يتجّهم الخمار من هذه العبارة التعبوية الملتبسة.

يشرب مع هزيم بقايا كأسه.

عبر ضباب الويسكي تُقبل مها القادري. ظلال المرأة المستهدفة والمهلوعة خشية المداهمات السرّية. لو طلب كأساً آخر في ربع الساعة الأخير قبل الإغلاق سيفيض احتقانه في هذه الحانة المكشوفة على الشارع. فيض مجّاني هو بغنى عنه. فيض سوف لن يوصل إلى فراش المرأة وجسدها الدافئ. قال له برق خاطف من وعي الرأس.

آثر الصمت. صداع خفيف. نشوة. رغبة تنمو في خلاياه توقاً للمرأة التي تنتظر. جرع ثمالة الكأس. طلب نصف زجاجة ويسكي. لفّها الخمار في كيس ورقي.

ـ لا تؤاخذني أخي أبو معروف. لا بد أنني صدّعتك بترّهات لا معنى لها. وخرج.

النقرات الثلاث على نافذة غرفة مها هي كلمة السرّ. تفتح المرأة بحذر وتوجس. يتعانقان. يعبق عطرها والجسد.

ـ سكران كالمعتاد! تقول وهي تتناول الكيس وتدلف إلى المطبخ.

ـ ألديكِ ما يؤكل؟ أكاد أموت من الجوع.

ـ تعال نتعاون.

في المطبخ فتح زجاجة الويسكي وجهز كأساً. هي كانت تحضّر بعض الخضار والجبن والزيتون وقطع المارتديلا.

ـ ما رأيك بالنقانق. اشتريتها اليوم طرية؟

ـ رائع.

خلال نصف ساعة كان العشاء جاهزاً.

بنهم حيواني راح يأكل في الصالون المطلة نافذته على النهر.

مها بثوب نومها الشفاف قربه. تبدو شبه محايدة وفي وجهها ملامح جهامة.

ـ ما الأخبار؟ سألها.

ـ عادوا مرة أخرى. هددوا بخطف البنت وإحراق البيت.

سألتْ عن اتصاله بصديقه المحامي في محكمة الأمن القومي.

أحسّ بالإحراج. بدا سؤالها عتابياً نائياً عن النبرة الاستفهامية. حاول أن يشرح الأمر بعد لقائه الثاني مع المحامي: ليس الأمر سهلاً كما فهمت منه. أجرى اتصالات مع بعض المسؤولين ومنهم عقيدك الأمني. وعدوه خيراً. وهو لا يثق بهم لأنهم مخاتلون. قال لي: هؤلاء أوغاد. بلا ضمير سوى المال.

يريدون رشوة إنما بشكل غير مباشر. لهم وسطاؤهم سواء في النهب أو النساء أو التهريب. أنت تعرفين حجم الرشوة والمحسوبية والفساد المستشري كالسرطان في البلد.

أحسّت بالإحباط. في وجهها المربدّ لاحت ظلال الخذلان.

ـ أنا وحيدة ومتروكة للذئاب وأنت...

لم تكمل عبارة الاتهام التي لا تحتاج إيضاحاً.

شعر بالغصّة. شرب رشفة ويسكي. ناولها الكأس فرفضت. بدأ التوتر يتصاعد. المواطأة المبرمة سرّياً بينهما أزيحت مؤقتاً. حاول أن يشرح شعوره نحوها في مسألة البيت. أوضح لها إمكاناته المحدودة، وأنه ليس ابن الدولة كما تعتقد، وحوله أكثر من إشارة استفهام جرّاء انتقاده للسلطة.

ـ السلطة بيد الأقوياء، وأنت تعرفينهم. الأمن ورجال الأعمال وكبار التجار والسماسرة هؤلاء شركاء في نهب البلد والشعب. الآخرون. الناس الهامشيون مقهورون. خائفون ومغلوبون على أمرهم.

روى لها باختصار ما يجري في طول البلاد وعرضها من سطو وتهريب وتشبيح على أرزاق الناس وأرواحهم وممتلكاتهم. مافيات وعصابات تروّع البلد. وهؤلاء من لحم السلطة ورحمها.

تحت ضغط نيران القهر والشعور بالعزلة والتخلي تحدثت المرأة عن حالتها واللجوء إلى بيت أهلها في حالة الاستيلاء على البيت.

طلبت من والدها الحماية واللجوء مع ابنتها إلى حماه.

ـ أتعلم ماذا كان ردّ والدي؟

ـ لا.

وهي تغصّ وتجمجم: البنت نعم. أما أنت فلا. مأواك الشارع.

خالفت أوامري وعصيتني. تزوجت من حثالة طمعاً بماله وجاهه. وغد لا شرف له ولا ضمير ولا دين سوى المال والتمرغ كخنزير بين أقدام المسؤولين والتزلف لهم. واستطرد: حذرتك مراراً ولم ترعوي. أخيراً وبعد أن استولوا على شركاته وأمواله وطردوه رماك كنفاية وحوّلك إلى عاهرة تريدين مني حمايتك. قسماً برب العباد لولا خوفي من الله ويوم الحساب لذبحتك كالنعجة ورميتك للكلاب.

تكهرب الجو وتسمّم. انسحبت حيوانات الرغبة إلى كهوفها.

ما عاد للطعام والشراب مذاق سوى هذه المرارة التي خيّمت بينهما. الرجل المهدّم أسَرياً والمرأة المخذولة كلاهما الآن في مهب العواصف.

حاول مواساتها. بحنان طوّقها بعيداً عن الشهوة فنفرت مزيحة ذراعه عنها.

وهي تغصّ بالدمع قالت: ليتني لم أولد. الآن أعرف مصيري. تخلى العالم عني حين تخليت عن نفسي وانسقت في دروب الشهوات. امرأة ملوّثة ومنتهكة. سافلة في عالم نقي جداً. مطهّر جداً من الدنس. والآن تتساوى الأشياء! الحياة والموت.

دخلت في النشيج المرّ. جسدها يتقصف تحت إيقاع تشنجات عصابية. ساعدها في النهوض والدخول إلى غرفة النوم. في الصيدلية المنزلية بحث عن حبوب مهدّئة. أعطاها حبة فاليوم واستلقى إلى جانبها. حتى ساعة متأخرة كان هذيانها يتواصل.

طيوف وأشباح وحوش تنقضّ من الظلمة. كلاب شاردة وأفاعي بلون النار تطوقها وتمزق الجسد المنتهك.

ترتعش وتهذي بكلمات مبهمة حول الله والجحيم وابنتها والأمان والصقيع والحفر الباردة والجنة والنار.

مع بداية ضوء الفجر نامت على ذراعه.

33

هذه الفسيفساء اللبنانية، بأطيافها الطائفية لم تؤسس وطناً حقيقياً، الولاء أولاً وأخيراً للطائفة. يواصل رئيف شاهين: ومع ذلك أرسوا نوعاً من الليبرالية والحرية الفردية. نموذج فريد في بلاد العرب.

- لكنها ليبرالية تحمل جنين حرب أهلية بشكل شبه دوري منذ استقلال لبنان. تردّ إيفا السعدي. وتضيف بأن هذا المناخ الديمقراطي يهيئ ساحة مفتوحة للمخابرات والجواسيس والمافيات وتجار الأسلحة من أنحاء العالم كافة.

- برميل بارود جاهز للانفجار متى شاءت إسرائيل وأميركا.

يلاحظ هزيم اسماعيل.

- والعرب يصولون ويجولون على هواهم وبأموالهم في غابات الطوائف. بازار مفتوح لمن يدفع أكثر.

حوارات المثقفين في المقاهي أو مكاتب الصحف تتواصل. من الصعب تصنيف صحيفة غير مشتراة أو غير موالية للعرب أو الغرب. لا سياسة ولا صحافة بالمجان. ينتقل المثقفون من صحيفة إلى أخرى حسب ارتفاع الخط البياني للدفع. الأمر عينه في الانتقال من حزب إلى آخر، في غالب الأحيان.

شوقي نصر الله واحد من هؤلاء المثقفين الخارجيين. شاب يساري مندفع يعمل في المؤسسة التي نعمل فيها، يشبّه المثقفين

اللبنانيين، عدا استثناءات فردية، بالبغايا المحترفين: لا يتورع أحدهم عن الفخر بأن أكثر من حزب عَبَر من بين رجليه أو من تحت إبطه.

ويضيف شوقي. إنهم يبدّلون مواقعهم ومواقفهم حسب ارتفاع أرقام الشيكات.

مزاجية المثقف اللبناني تؤهله ميكيافيلياً للانتقال من موقع اليسار إلى اليمين، أو من موقع العروبة إلى أحضان الإسلام.

مناخ متقلب الأهواء، داخل هذا الفضاء من الحرية الفردية.

يقول رئيف: ومع ذلك يبقى هذا اللبنان المستباح والمشرذم أفضل بما لا يقاس من أنظمة بلاد العرب الاستبدادية المحكومة بالأمن وهيمنة الحزب الواحد.

في مقهى المودكا، بين ضباب السجائر ورشف القهوة، يتشعب الحوار والجدال حول اليمين اللبناني الأكثر تماسكاً في الجيتو المسيحي، الماروني تحديداً. هذا اليمين المنتمي تاريخياً للغرب، وللأم الحنون: فرنسا. إنه يتوهم بأنه حجر الأساس في تشييد لبنان، ولدى هذا اليمين إحساس بالتفوق والتعالي على باقي الطوائف الموالية للعرب والإسلام. ولأنه الأكثرية كما يتوهم، وبيده عصب الاقتصاد والسياحة، يحاول أن تكون له الحصة الكبرى في قرص الجبنة السياسي. وحين طُرد الفلسطينيون من فلسطين، وفيما بعد من الأردن إلى لبنان، في أعقاب مجزرة أيلول الأسود، اختلّت المعادلة.

المسلمون هم الأكثرية الآن. تخلخلت الحالة الديمغرافية مع إيقاع نغمة التوطين.

هكذا تبدو بيروت مدينة مفتوحة لرياح الشرق والغرب. لكنها تظل المدينة الأجمل في شرق المتوسط.

هنا في هذه المدينة الغرائبية يشعر رئيف شاهين بالأمان بعيداً عن عيون المخبرين.

مع الزمن تهتز قناعاته الوطنية والسياسية. يعدّل مناخ المدينة حرارة الحماسة، ويفتر رويداً الانتماء الإيديولوجي.

الوجود الفلسطيني الكثيف، وهجرة المثقفين العرب إلى بيروت هرباً من استبداد بلدانهم ولّد مناخاً جديداً، وانقساماً سياسياً: مع من أنت؟ مع الكتائب وحلفائهم أم مع الفلسطينيين والحركة الوطنية؟

ببداهة يقول رئيف: نحن لسنا مع الكتائب. هؤلاء فاشيون. مشروعهم مسيحي غربي معزول ومعادٍ للعرب.

حين يفكر هزيم اسماعيل بانتماء ثالث يسأل: ألا توجد أرض محايدة؟

ـ ما وراء البحر. يضحك رئيف مجلجلاً.

ويضيف: إذا ما دارت رحى الحرب سترى كيف يفرّ المحايدون إلى الغرب وأحضان أمّهم الحنون زرافات وأرانب.

جزء من حواراتنا وثرثراتنا يتواصل خلال استراحة شرب القهوة في غرفة المكتب. بغتة يدخل مدير المؤسسة. رجل وسيم طويل طلق المحيّا. هو في حدود الأربعين، جادّ الملامح ورصين. ثقته بموظفيه لا حدود لها.

يحيي مصافحاً بابتسامة هادئة. يسأل عن راحتنا في العمل: أية شكوى! نحن أخوة قبل أي شيء. المؤسسة للجميع.

يوجه السؤال لهزيم: أخي هزيم هل انتهيت من مراجعة مذكرات بابلو نيرودا؟

ـ غداً دكتور. بقي أقلّ من ثلاثين صفحة.

ـ ستشترك المؤسسة في معرض القاهرة الشهر المقبل. آمل أن يكون الكتاب جاهزاً قبل هذا التاريخ.

ـ أكيد.

ـ شكراً. يعطيكم العافية.

بعد أن يخرج أسأل رئيف عنه. يقول بأنه دكتور في السياسة والاقتصاد، خرّيج جامعة هارفارد ومتزوج من أميركية.

ويضيف: الدكتور عبد الوهاب قيادي بارز في إحدى الفصائل الفلسطينية غير الموالية لعرفات.

إذ نتحاور حول الانقسام الفلسطيني، نعتكر.

ـ هؤلاء هم الفلسطينيون الذين مزّقهم الشتات. حالتهم انعكاس لحالة العرب المتناحرين. فصائل وقبائل. ميراث جاهلي ما زال ينخر في العظام ويعكّر الدم.

في هذا العالم المنشقّ على نفسه، عالم روحه الجمعية في صحراء الجاهلية وجسده في القرن العشرين، تسأل: هل من أمل؟ وهل لهؤلاء العرب من مكان تحت الشمس؟

وإذ لا تلقى الجواب في خضم الكتلة الجماعية المتناثرة تحاول أن تنكفئ نحو حريتك الداخلية كملاذ.

من خلال انحيازه للموقف الفلسطيني ينافح رئيف شاهين عن الحرب العادلة. الحرب الدفاعية عن الوجود المهدّد.

يسأل باستنكار: هل كُتب على الفلسطيني أن يكون هندياً أحمر؟ إسرائيل وأميركا ومعهما الأنظمة العربية يشنون حرب إبادة ضد هؤلاء المقاومين.

ـ في هذه المسألة نحن متفقان. لكن حتى الحرب العادلة يمكن أن تنحرف نحو الفوضى والقتل المجّاني.

ـ في الحروب جميعها تُرتكب مجازر بشعة وتجاوزات ضد الأبرياء.

عبر تأمل خاطف تنتابني كراهية ومقت للحروب العادلة والظالمة.

ربما كانت حياتي الشخصية المضطربة، ونزوعي باتجاه جمع

شتاتي للرسوّ فوق صخرة على شطّ آمن، هما في أساس عزوفي عن الحرب.

يدرك رئيف الحالة. يُقصي هذه الحوارات الممضّة فيسألني عن أخبار الأسرة. أشير إلى الرسالة التي وصلتني من الابن الأكبر.

- أتظن ألا عودة للمياه إلى مجراها؟

- أعتقد أن السفن احترقت في البحر.

- مكتوب عليك منذ عودتك من الجزائر أن تظل في مهبّ الحرائق!

خلال الصمت الذي ينام عبر الحوار، تعبر على الشاشة الحروب الخاسرة. كيف وقعا في المصيدة منذ الشهور الأولى للزواج. مصيدة الخديعة، وهما يكتشفان ألاّ شيء يجمعهما سوى الفراش والجنس. وكيف تحوّلت حديقة الحب الخضراء إلى مقبرة.

هوذا الجبل يتداعى، والانهيارات تتوالى وهما تحت الركام. وفي ظلال المواطأة الجنسية بدأ الأطفال يولدون واحداً تلو الآخر. الأطفال الأبرياء الذين سيرثون اللعنة الأبدية، والتي ستورَّث لأجيال لاحقة.

وآن يستحضر روح الشيخ اسماعيل وزوجته اللذين وُوريا في المقابر، يسألهما في الحلم أو اليقظة: من المسؤول عن هذا التاريخ الفادح؟ وما هي جنايته ليأتيا به إلى هذا العالم ليكرس الفاجعة؟

- قل لن يصيبكم إلا ما كَتب الله لكم. يسمع صدى صوت الشيخ التكفيري، قادماً من الوديان، وصفحات الكتب التي اهترأت ثم احترقت في صناديقها المغلقة. هناك ترقد تعاليم القضاء والقدر والألواح المحفوظة المبشرة بالآخرة ويوم النشور وقيام الساعة.

34

تتواتر الأيام بـإيقـاعـاتهـا الرتيبة والمملة. المدن والشوارع والبيوت والمقاهي والمؤسسات والبشر، تبدو متماثلة أو بلا ملامح مميزة في لحظات العزوف والعزلة والاغتراب الداخلي.

حين يفكر بالحاجة أو الرغبة بامرأة جديدة تستنفر صور الماضي، والجراح القديمة التي لم تندمل بعد.

رجل معطوب. هذا ما يراه فيه رئيف شاهين وربما إيفا وآخرون.

هو يقول عن نفسه أنني أطفو فوق السطح بلا اتجاه.

وإذ تلوح إيفا كمشروع علاقة حب يشعر بالنفور والخوف.

ما تزال امرأة مجهولة في مراياه. امرأة قد تُشتهى لكنها لاتُحَب. عشيقة عابرة في أوقات الشهوة. ولكن كيف تُحب امرأة في إهاب رجل! وأنت الهارب من النساء النّمرات. النساء المسترجلات اللواتي يصرخن عالياً في وجهك وهنّ يصِفنك بأحط النعوت في لحظات الخصومة العابرة؟ وماذا لو كانت إيفا سحاقية أو مخبرة سرّية، كما أوحى رئيف؟

تتقاطع هذه الصور والأفكار والاحتمالات في رأسه وهو يروح ويغدو بين المطبخ والصالة الصغيرة ليهيئ العشاء.

يُجلي عن ذهنه فكرة المرأة التي بدأت تلحّ.

حين يتفاقم الضغط العضوي يلتقط غانية من بار قوس قزح ويفجر المرجل.

يفتح التلفزيون وهو يتناول العشاء مع كأس فودكا (زجاجة الفودكا هدية من إيفا).

الأخبار غير مريحة. الوضع السياسي متوتر. الوزارة على وشك الاستقالة. حزب الكتائب وحلفاؤه من اليمين المسيحي مستنفرون في الجبل: مخيمات عسكرية. تدريب على السلاح. تراشق بالتهم للفلسطينيين وحلفائهم الذين أقاموا دولة الرئيس أبو عمار في الفاكهاني والجامعة العربية. دولة داخل الدولة، كما يقولون.

هزيم اسماعيل يهجس بالحب والمدينة تهتز بإيقاع طبول الحرب.

- أين أنت الآن يا صاحبي؟ يسأله الآخر فيه.

يترنح الطوف بين الأمواج دونما جهة محدّدة.

هل كان الهروب إلى هذه المدينة مصادفة خاطئة؟ أم هو اختيار متعثر؟ أم أنه قدر ومصير مكتوبان في اللوح المحفوظ كما يعتقد الشيخ اسماعيل؟

إدراكه الذي بدأ يغيب في ضباب الفودكا ما عاد قادراً على التمييز، ولا على الجواب على الأسئلة.

هو هنا وحسب في هذا الحصار الذي يداهمه وهو الأعزل من أي سلاح للدفاع الذاتي.

وحين يشتعل الجحيم سوف يختار.

35

خلال الامتحانات كان مشوشاً وزائغاً غير قادر على التركيز في الإجابة على الأسئلة. صدامه مع المدير وطرده لمدة أسبوع، ثم قدوم والده من القرية واعتذار الأب من الإدارة طلباً لعودته. حرمان حنان من العودة إلى الدراسة. هروبه من هالة بين كروم الزيتون. الإحساس بفقدان العلاقة الحميمة مع الفتاتين. صور مهتزة تتراءى على ورقة الأسئلة. تغيّم الأجوبة وتختلط عبر هذا الاضطراب والشرود.

حين يتوقف عن الكتابة، ورأسه بين راحتيه، يسأله الأستاذ المراقِب عن حالته فيقول: مجرد صداع خفيف.

ـ هل آتيك بكأس ماء؟ يسأله الأستاذ.

يومئ برأسه الذي ابتدأ دواره.

ما يتذكره فيما بعد أنه نقل إلى غرفة الإدارة وهو في حالة سيئة من الشحوب والزيغان، حيث أسعف بكمادات الماء البارد على وجهه ورأسه وتناول حبة إسبرين لتخفيف الصداع.

بعد أن أعيد إلى قاعة الامتحانات حاول بجهد يائس الإجابة على ما تبقى من أسئلة مادة العلوم الطبيعية.

في البيت بعد انتهاء امتحانات الشهادة الإعدادية يسأله أبوه الشيخ عن مجرى الامتحان. يزيغ في الإجابة، محايداً عن الصدمة التي باغتته وهو يجيب عن أسئلة العلوم.

أبوه كان يرى فيه أملاً ومستقبلاً سيرفع رأسه به في القرية أمام الناس. يراهن عليه كسليل لعائلة عريقة بالعلم والعقل والدين في محيط غارق في مستنقع الجهالة والتخلف والغباء.

انتهت الامتحانات اللعينة، وها هو الصيف الممتع والمضيء يأتي أخيراً. صيف اللعب والبحر والأودية والصيد والفتيات.

الطاقة المختزنة في خلايا الجسد تنزع نحو المتعة والانطلاق العضوي. العلم والعقل والدين كنز مبارك للشيخ السارح في ملكوته السماوي وتهويماته. أما هو هزيم اسماعيل السليل العريق لعائلة تاريخها مؤصل ومجذّر في القدم واللاهوت الديني، هذا الفتى الضالّ والفوضوي فملكوته الأرض والينابيع والأشجار والطيور والبحر، والأهم هو الولع بكرة القدم، والنزول إلى الملعب في ساحة القرية أمام افتتان الفتيات وهن يراقبنه بلهفة وهو يطير رشيقاً وراء الكرة كمهر جامح مع فريقه الرياضي. الفريق المزهو باستعراضاته وخيلاء حركات اللعب، ثم الانتصار على الفريق الآخر، بينما صرخات الفرح تنفجر من حناجر الفتيات والأولاد المتفرجين. أهازيج نشوة تعبر الفضاء لتصل إلى عنان السماء.

نُرفع نحن الفريق المنتصر على الأكتاف، ويُدار بنا تحت دويّ الهتافات في أرجاء الملعب.

وفي ضحى الأيام اللاهبة نهبط كالمجانين إلى البحر ومعنا الكرة. الفتيان الطّلِقون الفرحون بالطبيعة واللامبالون سوى بيومهم. بهذه اللحظة الفارّة والمضيئة في آن وهي تشع بازدهار ورائحة البحر.

على الرمل والحصى ينضون ثيابهم. البعض يتعرى كما ولدته أمه. يندفع العراة سريعاً ليغطوا ذكورتهم وأردافهم في المياه

الدافئة. آخرون يخجلون. يتعرّون سوى من سراويلهم الداخلية. صرخات وصفير ضد العراة الذين طقَّ شرش حيائهم: ويعو. عريانين يا عيبو. يا عيبو. يا زعران. يا فضايحية. بدنا نفسّد لأهلكم عليكم.

الفضائحيون العراة يردّون بالضحك والقهقهات.

ـ خذوا يا جبناء يا نسوان.

فتى أزعر من العراة يستدير نحو المندّين بالعري، ممسكاً بقضيبه. يوجهه كمسدس باتجاه عصبة الرمل، نصف العراة الذين راحوا يتمرغون في المياه الضحلة.

عميقاً يوغل السبّاحون المَهَرة باتجاه جزيرة النمل الممددة كالتمساح في عرض البحر على بعد أقل من ميل. يغوصون. يعومون. يضربون الماء بغبطة واعتزاز بالجسد الحي النابض مع الماء الحي. نشوة وغبطة تنصهران مع التعب.

البعض يغلبه الإنهاك. تنتابهم رعشة ورِهاب الأعماق، يعودون.

أربعة من الأقوياء الشجعان يتابعون نحو الجزيرة. يقهرون التعب. يكابرون حتى يصلوا.

حين نعود من نصف المسافة بين الشط والجزيرة يشمت بنا فتية الشاطئ الجبناء. يهزؤون بنا وهم يلعبون الكرة على الرمال. يصِموننا بالجبن تارة وتارة بنزعة التعرّي والاستعراض الجنسي.

ـ اسمعوا يا شباب. يردّ أحدنا: انظروا إلى الفئران والأرانب كيف تتكلم عن الخوف والجبن!

يهاجم آخر: شوفوا هؤلاء البنات كيف يسترن عوراتهن ويعيّرن الرجال. يتابع: أنا أشارط إذا كان بين أفخاذكم سوى الفروج المقرّحة.

يكمل آخر: بنات آخر زمن. يوجّه قبضته المضمومة بحركة جنسية نحو فتية الرمل.

على الرمال الحارة يستلقي العراة تحت الشمس. تُفتح حفر بطول الفتى. نتمدد في هذه الحفيرات. ونغطي أجسادنا بالرمل الأسمر فنبدو كالزنوج. نحلم بالفتيات العاريات. اثنان يهويان الرسم يرسمان على الرمل بعيداً أشكالاً لفتيات عاريات ويضطجعان فوقها.

آخرون يبنون أكواخاً ومنازل وخياماً وحدائق من الرمل المبلل لا تلبث أن تنهار تحت اندفاع موجة.

تحت خميلة هذا الضوء الفسيح لفضاءات البحر، وهسيس الموج المداعب للأقدام والأجساد المستلقية، تُقبل صورة حنان المفقودة. تقول بحزن مرّ: لقد تخليت عني. أفتقدك في عزلتي واحتجازي أنت الحرّ وأنا السجينة.

غيمة سوداء. ظلام راقص. موجة غمّ. شرارة كاوية بالذنب والتأنيب تحرق الروح.

بعد حوالى ساعتين يعود قراصنة الجزيرة. منهكون وجياع لكنهم مزهوون بهذه المغامرة العظمى.

تنهال الأسئلة عليهم من الجميع الذين تناثروا حولهم. أسئلة لهفى حول طبيعة الجزيرة. كهوفها والوحوش البحرية والطيور التي تسكنها أو ترتاح فوق صخورها البركانية.

فرصة ذهبية للمباهاة ورواية الحكايات الوهمية ونسج الصور المتخيلة عن الدلافين والأسماك الطيارة والأفاعي المائية وعروس البحر التي تغوي الصيادين وتخطفهم في الليالي المقمرة وعبور قطيع من الحيتان على بُعد ثلاثين متراً من جهة الدوّارات الغربية العميقة. رؤية الفقمة التي كانت تستريح على الصخور. إذ فوجئت

بهم زحفت وغطست سريعاً في الماء وهي تصدر صوتاً كالأنين. يروون بزهو ونفَاج المغامرين الذين اكتشفوا أسرار العالم المجهول.

بعضنا يصدق الحكايات. خاصة أرانب الشط الجبناء. آخرون يرون أن قوة الخيال الأغنى من الواقع هي التي تنسج هذه المشاهد الأسطورية. لكننا في لحظة شرود خيالي، طفولي، نندغم داخل هذا المسرح اللامعقول العذب والمخترَع.

36

ما كان الخبر مفاجئاً. كان يتوقعه، لكن أجواء المرح واللعب مع أترابه، ومغامرات الصيد في الأدوية غمرت نتائج الامتحانات في كهوف النسيان. بدا الأمر مؤجلاً. مُزاحاً حتى وقت ما. وقت كان يتوجس منه. خيط نجاة واهٍ كخيط العنكبوت يمسك به في الهواء: ربما حدثت المعجزة ونجح.

في نهار صيفي انقطع الخيط. أُعلنت أسماء الناجحين في الصحف وقوائم المدرسة التي علّقت على لوحات الإعلانات. اسمه كان غائباً.

بمرارة تلقى الصدمة. رياح الهزيمة والرسوب بدّدت الينابيع والبحار والطيور والألعاب والمرح الصاخب. العالم الذي كان مضيئاً وصاخباً دخل في الصمت والخزي والاحتقار.

باندفاعة يائسة تسلق السلم إلى سطح البيت. بأعلى صوتها النادب صرخت الأم: دخيلكم. دخيلك يا عبد الله هزيم سيموّت نفسه.

كان الأب غائباً. أدركته الأم مع جارهم عبد الله تامر وهو يهمّ بالطيران نحو الأرض: اتركوني. الموت أفضل. أنا لا شيء في هذا العالم. الحشرة أفضل مني. انفجر الصمت والاحتقار. نشيج كما في مأتم.

أنزلوه وهو يصرخ محاولاً الانفلات. كانت الأم تطوّقه بذراعيها ودموعها المتدفقة: روحي. حبيبي. اهدأ قليلاً. أرواحنا فداك.

أخوه يبكي في ساحة الدار: إذا متّ من سيكون أخي. سأموت معك.

حضر الجيران وأصدقاؤه. كانوا ممرورين وعلى وجوههم كآبة وحزن. واسوه. اقترب أحمد السلوم وسليمان غانم صديقاه الحميمان في الصيد واللعب. بكيا. شجّعاه: طول عمرك شجاع ومغوار وسبع. شو انتهت الدنيا! لديك فرصة ثانية لإكمال دورة امتحان في أيلول. هيّا. هيّا. كفكف هذه الدموع وانهض. البكاء ليس للرجال.

الهُزء والشماتة من الذين نجحوا. كيف يواجههم هو الذي يغوص الآن في وحل الرسوب؟

ياللخزي!

بين ينابيع الدمع المالح لاحت عصا الشيخ اسماعيل الرمّانية وراحت تنهال عليه: هذه نتيجة اللعب والإهمال والتمرّد على قوانين المدرسة واللهو مع البنات. أن تكون راعياً للبقر هذا ما تصلح له ياعدو العلم.

كان يرتجف هلعاً من صدمة العقاب القادمة.

في هرجة المأتم المأساوي حضر الوالد. بوغت بالجمع المحتشد سأل عن السبب. أخبرته الأم بالنبأ.

كان الإبن الراسب مطروحاً على الحصير في فسحة البيت مخضّباً بالدمع والعار. إذ رأى الشيخ الجليل الغاضب واقفاً فوق رأسه كالقدر المحتوم أدرك مصيره المفجع.

صاح الأب بالناس: اخرجوا ودعونا وحدنا.

جثا قرب الولد وأنهضه. تناول كرسياً وأجلسه عليه. جلس الشيخ على حافة السرير مواجهاً له.

- ماالذي فعلته بنفسك؟ ولماذا هذا المأتم المزري؟ برسوبك انتهى العالم يا سيّد هزيم؟

نهضتُ ولثمت يده. انثالت دمعة فوق سطح كفه: سامحني يا أبي خيّبت أملك. أستحق كل عقاب في الدنيا. آه. لو أموت الآن.

في اللحظة التي تخيلت فيها العصا تأكل لحمي وعظامي طوقني والدي بحنان أبوي مباغت. ضمّني إلى صدره وكفكف عبراتي: ياعيب الشوم. تبكي كالنساء! ألأنك رسبت وخسرت جولة تفعل بنفسك هكذا؟ تشمّت الناس ورفاقك والأهالي فينا!

واصل مواساته: الحياة ربح وخسارة. يوم معك ويوم عليك. خسرت جولة وأنت ما زلت فتى في مقتبل العمر. هناك جولات قادمة. الدنيا كفاح ومواجهة صعاب. كل نزلة تقابلها طلعة. هذه عثرة عابرة يا ولدي. اسمعني جيداً. كن رجلاً واثقاً من نفسك كما عهدتك دائماً. صلباً وقوياً كالصخر وإلا قهرتك الحياة وأذلّتك. ليكن رأسك مرفوعاً وروحك عالية ونفسك أبية لا تخشى في الحق لومة لائم. لا تخف من مخلوق على سطح الأرض سوى من ربّ العالمين.

وتابع وهو يرفع يديه نحو الأعلى: اسمع مني هذه الأمانة أمام الله والناس: والله الذي لا إله إلا هو. ورحمة تربة أجدادك الطاهرين لو رهنتُ وبعتُ كل ما أملك من أرض وحيوان وحتى أثاث البيت لا بد أن تكمل تعليمك لأتباهى بك إن بقيت حيّاً. أنا أراهن عليك وأملنا فيك. المهمّ ألا تيأس من رحمة الله فهو لن يتخلى عنك وعن عباده أجمعين. هيّا. هيّا. تشجّع وامسح وجهك بماء الرحمن. وكما يقول المثل الحكيم: لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة. هذه كبوة صغيرة وأنت أقوى منها. واستطرد باسماً: انهض وجهز نفسك لنذهب إلى الصيد.

أي رجل هذا! بل أي صديق نبيل! كنت أسمع صدى الكلمات وهي تنهمر على روحي كأنها تنهال من السماء تحملها الملائكة برداً وسلاماً وسكينة وأنا لا أكاد أصدق. الأب الغاضب أبداً. المُهاب في البيت. الذي طردني وأمي تحت الرعد والمطر ذات ليلة إلى بيت

جدي. أهذا هو الذي ربطني بعمود البيت وجلدني حتى الإدماء! هو الذي إذا ما صرخ في وجوهنا نشعر بالزلزلة يتكلم الآن كملاك مجلل بالرحمة والمواساة.

كم يبدو الآن قريباً من الروح، قوياً، واثقاً بوجهه الآخر وصوته الرحماني الجديد لكأنه صدى صوت الله.

37

تبدو دمشق مدينة مقبضة للقلب في هذه الأيام.

الاضطراب السياسي وضع البلاد على مفترق طرق.

في الأفق يلوح شبح الدكتاتورية العسكرية. سطوة الأمن والمخابرات تتجلى بهمجيّة وحشية تحت ظل قانون الطوارئ. أي مواطن يشعر بأنه متهم أو مراقب. شرخ سياسي ذو رائحة طوائفية يُرى ويُسمع ويزكم الأنوف. لا أحد يعرف إلى أين تتجه السفينة في هذا اللجّ المضطرب.

اليسار بأطيافه إما مطارَد أو معتقل. الأخوان المسلمون يتربصون في حالة كمون واستفزاز طائفي مسعور ردّاً على طائفية النظام كما يرون.

بلا رحمة تفتك السلطة باليسار واليمين. ينشر الأمن الشائعات حول تحالف غير مقدس بين اليسار المتطرف واليمين الأخواني. فرز طائفي في الجيش وأجهزة الأمن. تسريبات وشائعات سرّية حول هيمنة عشائرية وأسرية في المواقع الحسّاسة للأجهزة الممسكة بالقرار.

في طول البلاد وعرضها يخيم مناخ من الذعر والفزع العام والشخصي. لا أحد بمنأى عن الدهم أو الاعتقال على الشبهة أو التقارير السرّية المغرضة والكاذبة التي يكتبها الوشاة لأجهزة الأمن.

تروي شذرات من مذكرات رئيف شاهين الخاصة التي أطلعني عليها بعد خروجه من المعتقل وهربه إلى بيروت، مشاهد من هذا المناخ المفزع المسيطر على البلاد في تلك الحِقبة السوداء.

تزيح هذه الشذرات الستار عن المجموعة السرّية التي عمل معها: كنا نجاهد في تلك الفترة الصعبة لإخراج البلد من مزرعة الطوائف والأمن باتجاه وطن ديمقراطي واحد. الواحد للكل والكل للواحد. أن يُمحى التاريخ الوراثي القديم وندخل في العصور الحديثة. يعود العسكر إلى ثكناتهم ليواجهوا العدو على الحدود بعد الهزيمة. يُلغى قانون الطوارئ لتكون هناك حرية للأحزاب السياسية، وتُجرى انتخابات حرّة وديمقراطية بعيدة عن الرقابة والأمن.

لكننا كنا قلة ومهمّشين. نخبة مثقفة، البعض منا كان منشقاً عن أحزاب سابقة قومية وماركسية. آخرون انضموا إلينا خلال إضرابات ومظاهرات الجامعة. كنّا تحت المراقبة الأمنية الشديدة.

وتتابع اليوميات بصراحة ونقد: وما كان الناس معنا. هم إما مع الغالب والذي بيده القوة والسلطة، أو لا مبالين بما يجري. الأصوليون الإسلاميون والمتدينون كانوا أقرب إلى الأخوان المسلمين وهم العامة وأكثرية الشعب. لكن الغالبية كانوا في الزمن القبلي والعشائري والطائفي. التاريخ المتأصل في الدم والموروث الجمعي. يبدون منقسمين على أنفسهم إما في مهبّ الأهواء الخاصة أو رياح النفع الذاتي. حوَّلتهم أزمنة الخنوع والتجويع والاستبداد وخيبات الأحزاب والدولة الأمنية إلى ما يشبه القطيع الذي يبحث عن المرعى. رعاة وقطعان ضائعون ومطاردون في غابة الوحوش. أنت معنا لك المروج الخضراء. لست معنا لك الصحارى والتيه والجوع والموت.

تواصل اليوميات بنقد جارح: مع الزمن كفروا بالوطن، الغرباء

فيه. البعض استجار بالله والغيب كوهم مريح ومنقذ. آخرون احتموا بالصمت واللامبالاة والحياد: من يأخذ أمّنا نسميه عمّنا.

تتابع اليوميات نقدها الذاتي وتحليلها: جرّاء الحصار والعجز عن الحركة بين الناس واللجوء إلى العمل السرّي بدونا قاصرين في الوصول إلى أعماق الكتلة الشعبية سوى بالكلمات والمنشورات التي تتحدث عن العدالة والاشتراكية الوهمية.

بدونا معزولين عن الشارع والنبض الداخلي للناس، في الوقت الذي كان فيه الشعب عاجزاً عن المواجهة الشرسة للسلطة التي قهرته ودجّنته بالإرهاب والتهديد وقطع لقمة العيش والسجن، فاستكان. بدت طاقته الروحية المقاوِمة كأنها استُنفدت عبر القهر الوحشي. وفي الضفة الأخرى تجلّى قصورنا في عدم القدرة على إنهاض ماتبقى من تلك الروح وحملها على القيامة من استكانتها إلى حافة الفعل والممارسة.

يختم رئيف شذراته النقدية بعبارة رومانسية ذات مغزى: بدا الزمن آنذاك بلا أفق ولا شاطئ. كنا نبحر عبر مياه ضحضاحة في زوارق من جريد النخل باتجاه جزيرة محفوفة بالضباب واللاأمل.

38

الصَّدع العائلي يتسع. الشجارات لأتفه الأسباب تتحول إلى وجبات يومية. هذا البيت الجحيمي يتداعى يوماً إثر يوم. في الأفق لا يلوح حل سوى أبغض الحلال أو الهجر، وإما ارتكاب حماقة كبرى.

اضطراب خارجي يهز البلد وتصدع داخلي في الأسرة. وهذا العسكري الاحتياطي المهمّش في الجيش الشعبي البائس، يترنح بين مقصلتين. ذئب محاصر في قفص. عاجز عن اتخاذ قرار. يهرب في أوقات اللاعمل (وهي أوقات فارغة شبه دائمة) إلى المقاهي أو البارات أو بانسيون إيلين أو أحضان مها القادري المحاصرة هي الأخرى والمهددة بالخطف أو الموت.

وأنت أيّها السيد. سيّد اللاشيء الأعظم شبه مشلول، عائم وأعزل في عالم قراره بيد السيد الأعظم. الأقوى والمسلح.

ترى هل تتواطأ أنت وزوجتك في السّر؟أم أنكما تؤجلان ما لا بدّ منه. الهجر أو الطلاق أو...؟

وهل ثمة جمرة لما تنطفئ بعد تحت رماد الحب القديم تتقد إذ تتعريان في السرير؟

والأولاد هؤلاء الضحايا ما جريرتهم؟ تسألك المرأة حين تقارب فكرة الانفصال.

ـ في هذا العالم الوحش والفاسد. عالم الأوغاد والسّفلة كيف

تعيش امرأة بلا رجل يحميها. المرأة الأرمل والمهجورة والتي لايرى فيها الرجال الأدنياء أكثر من بغيّ؟ ما شعورك وأنت تسمع أو تعرف من الآخرين أن رجلاً آخر وطئ امرأتك مقابل حفنة من المال لتقيم أودها مع أولادها؟

ـ تتزوجين.

ـ ومن هو ذلك الحمار الأبله الذي يتزوج أرملة لديها أولاد؟

ـ تبحثين عن صديق. يقول بلا مبالاة.

ـ هذه بلاد الشرق والمسلمين أيّها المثقف الغربي المتنوّر.

وتستطرد حانقة ومشحونة بطاقة من المقت: يا إلهي لكم تبدو مقرفاً. تصور ابنك البالغ الآن من العمر اثني عشر عاماً يفاجئني عارية في أحضان عشيق!

الحس الشرقي بالشرف يتململ. ابتزاز الآخر. تحاصره الأسئلة. حسّ التأنيب. تهمة الرجل الوغد والأناني. المنطق الأنثوي المتوجس من المستقبل العاري. الخوف من الزمن القادم المفتوح على العهر والفضائح والعزلة الباردة. زمن اللاأمان والوحل.

تحضر حالة مها القادري وتتجسد الآن. المرأة التي هُجرت فتحولت إلى مومس. حوّلوها.

ـ لا نستطيع الاستمرار على هذا النحو التهديمي. حياتنا تحوّلت إلى جحيم لا يطاق. نحيا في عالم من الاتهامات والشكوك وفقدان الثقة.

ـ لماذا لا تعترف بأن في حياتك امرأة أخرى؟

ـ لا. بل نساء. ليس في رأسكِ سوى شبح الدونجوان زير النساء. سليل الخلفاء والجواري.

ـ هه. في أعماق أي رجل شرقي خليفة يشتهي ويرغب أن يكون محاطاً بمئات الجواري.

وتواصل الاتهام القضائي: كلكم من سلالة هارون الرشيد مثلكم الأعلى في التهتك.

ولا ينتهي تدفق السيل العرِم. تتعمق الهوّة.

هما الآن عدوان مدججان في ساحة معركة. كلاهما مدمّيان. يغوصان يوماً إثر يوم في هذا الوحل والروائح الكريهة.

وفيما مضى في الأزمنة المضيئة ما كانا كما هما الآن في هذا الزمن المعتم.

كان الشغف يغمر الأرض التي يسيران فوقها. شواطئ البحر وضفاف الأنهار والسهرات الليلية. العناق الدافئ وحميمية الجسد في الليالي المسروقة من عيون الأهل النائمين. يرويان عن ألق الزمن القادم بعد الزواج. بناء بيت يضج بالأطفال والأحلام الوردية. طيران في فضاءات مفتوحة على الغبطة. توزّع المسؤوليات داخل البيت. حياة حديثة مشتركة تؤسس على صخرة من الثقة والمودة ومواجهة المصاعب. أسفار ورحلات لتبديد السأم وتجديد الحب والولع.

- ربيع دائم هو حبنا الذي لا يموت. يهجسان وهما على أبواب النشوة الجنسية.

- الحب الذي يقهر الزمن والملل والشيخوخة والموت. يحلمان. يرميان للريح والفضاء أوراق الأماني والتوق للخلود.

الكلمات.

مراهقان في عشرينات العمر يبنيان قصوراً فوق غمام أبيض.

في فندق «وندسور» بعاليه يحتفلان بشهر العسل. من الطابق الثالث المطلّ على بيروت تبدو المدينة غابة من الحجر. فوق الجبل

عبر الأودية تسرح قطعان من السحب البيضاء يمكن لمسها باليد عن الشرفة الغربية. هما الآن مغموران في حالة سحرية.

نشوة الروح.

ـ لو أننا حمامتان نطير داخل هذه السحب!

عذوبة الطبيعة الخضراء. الجبال المكسوّة بالأرز والصنوبر والسنديان. هذا الهدوء الإلهي للكون.

من أجلهما ولد الكون لابدّ. يشعران.

آدم وحوّاء ها هما يهبطان فوق جبال لبنان وأرزه الخالد. العالم يفيض بالوله. إحساس أعمق من الكلمات يختلجان فيه.

يدهمها الجوع فيذهبان إلى المطعم. هي تطلب نبيذاً أحمر وهو سيشرب العرق.

قبل طلب وجبة الغداء المؤجلة، قدّم نادل المطعم مع المشروب تشكيلة مازة لبنانية منوّعة وشهية. تؤكل بالعيون قبل الأفواه.

ننبهر بالمائدة الشهية.

ـ نخب حبنا الجميل. نرفع كأسينا.

ـ المطعم اللبناني هو الأول في العالم. أقول.

تردّ مدافعة عن الطعام السوري: لا يوجد فارق كبير بين الطعامين.

ـ الذوق اللبناني في النوعية أفضل. الطعام حضارة. نضحك ونحن نتناول المازة اللذيذة.

ـ بلاد الشام جغرافيا واحدة وتاريخ واحد. الاستعمار هو الذي قسّمنا.

تقول هازئة من هذا التسييس الساذج: حبيبي لماذا تسيّس

المسألة وتضخمها وكأنك اكتشفت قارة جديدة يا سيد كولومبس. نحن نحكي عن الطعام والنوعية ليس إلا!

يعترض: عيني. روحي. قولي لي: هل ثمة مطعم في دير الزور أو حمص يماثل المطعم الطرابلسي الذي أكلنا فيه قبل أن نصل إلى بيروت؟

- هل نسيت أن لبنان بلد سياحي بالدرجة الأولى!

ليلاً نسري في الشوارع المضاءة والهادئة. عاشقان هائمان، بعيدان عن العيون الفضولية غير المبالية بنا. ندخل باراً على ناصية الشارع. أضواء خافتة. موسيقى غربية ناعمة، جوّ رومانسي هادئ. يرحب بنا البارمان.

بعد أن نجلس على كرسي الكونتوار المواجه لرفوف المشروبات المتنوعة.

- لو هذه المشروبات الرائعة تنتقل إلى بيتنا. أوشوش لبدور. ماذا تشربين؟

- بيرة.

- من فضلك بيرة وكأس ويسكي. أطلب من الساقي.

تسألني عن حالة الميزانية المالية.

- تكفي لمدة يومي إقامة باقتصاد.

نغادر البار منتشيين. نثرثر عن جمال طبيعة لبنان الجبلية والتنظيم العمراني والاهتمام بالمناطق السياحية ونقاء الهواء العليل حقاً.

في غرفتنا قبل النوم نستحم، يجمعنا الشوق العاري في الفراش. نتضامّ وننصهر عبر رائحة جسدين فتيين يصعدان اللحظة إلى أبواب الجنة نحو السموات السبع الطباق. ثم يهويان فيما بعد في الفراغ باتجاه الأرض الهامدة.

في نهاية أسبوع شهر العسل يعود العريسان العاشقان إلى بيت

الزوجية الجديد. بيت السعادة والمواسم الزرقاء القادمة. يأتي الأهل والأصدقاء والجيران للتهنئة بعد العودة من جنة العشق والرحلة الميمونة.

قبل نهاية شهر الجنة العسلية ينفجر البيت بغتة.

نختصم حول ملاحظات ثانوية: أقساط أثاث البيت. تنظيم الزيارات العائلية (المقيتة بالنسبة لي). العلاقة مع الأهل والأصدقاء وحشريتهم الفضولية في أمورنا الشخصية. تحديد أوقات الخروج من البيت والعودة. لا سهرات فردية كما في أيام العزوبية والسكر مع الأصدقاء. الحرية الفردية تدخل القفص الحديدي لصالح التماسك العائلي. إنهاء السيطرة الذكورية والمساواة وتوزيع العمل وتقسيمه في البيت.

سفاسف وتفاصيل اليوميات هي ذي تعوم على السطح. تنفجر المكنونات التي كانت مستورة في زمن الحب المزدهر. ما كان مدثّراً بالوله الرومانسي الخادع ينكشف ستره. ترحل الملائكة الطيّارة فوق السحب البيضاء وتدخل الشياطين في تفاصيل الأيام التي هلّت رتابتها ونكدها من البوابات والنوافذ والوجوه التي تتصادم يومياً. يتسلل السأم.

في أعقاب شجار حادّ، منشؤه الغيرة من ملاحظة عابرة حول جمال ابنة الجيران وعذوبتها تهجر العروس البيت إلى منزل أهلها، ولمّا يكتمل الشهر الأول.

أول الغيث القطر. يفكر العريس المهجور. هل هي بداية التفكك. نبوءة المستقبل؟

يهيئ كأس عرق ويجلس وحيداً على الشرفة. يستعيد الزمن: الحب. الخطوبة. الزواج. هل كان زمن ما قبل الزواج محض خديعة؟ وهل كانا حيوانين اجتاحتهما النزوة في وقت السعادة؟

وهما يتعريان الآن من الداخل.

تكشط صدمة الزواج الطبقات الخارجية. طبقات الثلج البيضاء والأزهار الاصطناعية ـ الأكاذيب. الوله. الشغف. فخاخ الغاب المستورة بالأغصان الخضراء. هل بدأت الوحوش النائمة تستيقظ من كهوفها المعتمة؟

شَطَح أكثر بعيداً وعميقاً تحت نشوة الخمر. فكر بالخطأ المشترك والتواطؤ. بالعطب البشري وعبثية الحياة والوجود. من أين ينشأ هذا الخلَل الكوني في الطبيعة الإنسانية؟

التنافر الداخلي. الانشقاق الذاتي. الدمار الروحي والاعتكار. لماذا يدهم اللحظة السارّة ويبدّد الفرح؟

هو الآن نهْب تيهٍ من الأفكار وأسئلة لا يعرف الإجابة عليها. غير متأكد من صوابية بعض الأجوبة التي يتوهم أنه يعرفها. لعل المفاجأة في هربها، أو ضباب العرق هو الذي يضخم الأمور، ويحمّلها أكثر مما تحتمل. ربما كانت نزوة غضب. أهي حالة استفزاز! نوع من العقاب الاختباري لتأكيد الوجود الأنثوي واستقلال الذات؟

بعد سكرة عمياء ينام وحيداً في فراش بارد.

39

أظن أن سامية صديقة إيفا قدمت من العراق. يخبرني رئيف في المكتب.

ـ من أنبأك؟

ـ إيفا.

ـ وما المهم في الأمر؟

ـ لديها مشروع ثقافي هنا في بيروت ـ على ما علمت من إيفا ـ وأظنها ترغب أن تساهم معها. هي تبحث عن كوادر للمشروع.

ـ ما مشروعها؟

ـ وكالة صحافة أو مجلة. شيء من هذا القبيل؟

ـ مشروع ثقافي والبلد على حافة الحرب؟ المثقفون والصحافة اللبنانية تهجس بالهجرة.

يشرح رئيف بإيجاز بأن سامية أسرّت لإيفا بأنها يائسة من العمل في العراق الذي وقع نهائياً في قبضة الدكتاتورية العسكرية شأنه شأن بلاد العرب الأخرى. حرية الصحافة والكتابة والإعلام أُمِّمت وتحولت إلى بوق رسمي للدولة الأحادية. وأضافت بأن لبنان هو الجزيرة الوحيدة الحرّة في بحر الاستبداد العربي.

ـ ما رأيك أن تتعاونا معاً؟ يسألني.

هززت رأسي بلامبالاة. طلب رئيف قهوة. تابعنا العمل.

بدا الخبر عابراً. فكرة فراغية لا تستند إلى أرض صلبة. لا بد أن إيفا ـ قلت لرئيف ـ حدثتها عني على نحو مبالغ ربما.

ـ ماذا ستخسر إذا التقيتما وأفصحت لها عن رأيك؟

على نحو خاطف خطرت إيفا عبر مخيلتي. اهتمامها بي أنا الذي لا أعرفها سوى بشكل عرضي. المرأة التي تبدو لي ضحية ضالة سواء في زواجها الفاشل أو علاقاتها المشبوهة.

لا يدخل في رأسي كونها فاسدة كلياً، كما لست متأكداً من علاقتها المثلية مع صديقتها العراقية. نحن قطبان متنافران ومتقاربان في آن. لكنها تظل في منطقة الظليل المُلتبسة. حتى الآن ما تزال بيننا حدود من التوجس.

بعد حوالى أسبوع من حوارنا أنا ورئيف تهتف إيفا. تصيح على الهاتف بأسلوبها الفضائحي: مرحباً يا كاره النساء. أتأتي إلينا أم نهجم عليك ونغتصبك في عقر دارك. لدي صديقة مفترسة ومهووسة بك. اسمع. شقتي أكثر اتساعاً ولدي فودكا روسية من إحدى السفارات التي أعمل معها سراً.

قالت العبارة الأخيرة إثارةً ولمزاً.

ـ بعد نصف ساعة أوافيكِ. لدي صديق الآن. قلت. سألني شوقي نصر الله، زميلنا في العمل، والذي يزورني للمرة الأولى: موعد خاص؟ لن أؤخرك.

ـ اشرب قهوتك ولا يهمّك. النساء ينتظرن دائماً.

شوقي شاب جنوبي من بلدة الخيام الواقعة تحت سيطرة جيش لبنان الجنوبي الذي يقوده الرائد أنطوان لحد المتعامل مع إسرائيل. من خلال حواراتنا في المكتب وأحياناً في المقهى أو مطعم آغوب الأرمني يتبدى جانب من شخصية شوقي الفوضوية. نزوعه نحو التمرد واللامبالاة والفردية رغم ماركسيته وانتمائه السياسي.

لايخفي نقده اللاذع لقيادة الحزب الشيوعي الانتهازية (رغم أنه أفضل الأحزاب الشيوعية العربية نسبياً). بلسانه السليط يهاجم المثقفين اللبنانيين. يسِمهم بالمتذبذبين والخرِعين.

ـ المثقف اللبناني إنسان نرجسي عنصري، متعالٍ. وغالباً مجوّف كالطبل. هل قرأت ما يقوله مثقف اسمه ميشيل أبو جودة مثلاً في جريدة النهار بعنوان «حقيبة النهار»: اللبناني يتميز عن العربي في المأكل والملبس والصحة والجمال والتهذيب والثقافة والانفتاح الحضاري. ألا يذكرك هذا بتفوق العرق الآري على العروق الأخرى؟ سعيد عقل الشاعر الكبير يقول: لقد علّم لبنان الأشمّ الأبجدية للعالم قبل أن تبدأ الخليقة. يقول باحتدام ومغالاة.

أعترض: لا تعمّم شوقي. ليسوا جميعاً في سلة واحدة. هناك مثقفون وطنيون ومفكرون ومناضلون.

ـ لكن الطائفية في الدم. فوق الوطن.

ـ هذا هو لبنان المقسّم والمشرذم منذ الاستقلال حتى اليوم. الولاء للعائلة والطائفة أولاً. على الأقل الشيوعيون علمانيون وضد الطائفية البغيضة.

يتوقف الحوار شبه البديهي والمتكرر حول بنية لبنان السياسية. البنية التي تحمل في جذرها عبر التاريخ احتمالات اندلاع جمرة الحروب الأهلية المتواصلة.

يعتذر شوقي. يقول وهو يهمّ بالخروج: آمل ألا أكون أخّرتك عن الموعد.

ـ مؤتمر أرامل. تقول إيفا ضاحكة وأنا مازلت على العتبة.

على الديوان الزهري امرأة غريبة. سمراء طويلة شعرها كستنائي قصير. ترتدي الجينز وحول رقبتها منديل زهري معقود

على شكل فراشة. تتلقاني بوجه بشوش وهي تنهض. نحيي مصافحة.

قبل أن أجلس على الأريكة المواجهة لها تقول إيفا: سامية عبد الأمير صديقتي العزيزة منذ سنوات الترمل المشترك. نضحك.

- هزيم اسماعيل. مثقف مطارد زوجياً. بيني وبينه مشروع صداقة غير بريئة. صداقة رجل وامرأة ملسوعين من أفعى الزواج. تقول إيفا بمزاح ملغوم لترطيب الجو.

بفضولها المعتاد تسأل عن الضيف الذي أخّرني.

- زميل في العمل. أظنك تعرفينه. شوقي نصر الله.

- آ. التقينا معاً في مقهى المودكا مع رئيف.

تدلف نحو المطبخ لتحضير القهوة.

تسألني سامية عن أخبار سوريا الثقافية والسياسية، ومتى قدمت إلى لبنان، وهل أعجبتك بيروت.

- لبنان ليس غريباً علينا نحن السوريين. أعرفه منذ زمن الصبا. الحدود بيننا رمية حجر كما تعرفين. لدينا مثل شعبي دارج يقول: نهاراً نتغدى في دمشق ومساءً نتعشى في بيروت.

يتشعب الكلام حول سوريا ولبنان والعراق.

تروي سامية عن العراق الذي دخل في دوّامة الدكتاتورية المظلمة. عن الثقافة والصحافة والإعلام المؤمم والمجيّر لصالح النظام والحزب الواحد. وهذا يعني المسخ وقبر الحرية.

- كلّنا في الهمّ عسكر. أعلّق عَرَضاً.

تقدم إيفا القهوة: كأس كونياك مع القهوة ما رأيك؟ الفودكا لمساء ما.

ونحن نشرب القهوة نعود إلى السيرة السياسية.

تعترض إيفا: أخت السياسة والسياسيين. تعبنا من هذا السرطان العربي المزمن. عيوني. سامية اختصاص صحافة وأنت أدب. خلّونا الآن من الدكتاتوريات والعسكر. أنا أرى النخبة المثقفة هوامش معزولة. القوة لا العقل سيدة هذا الزمن الخرِع.

تلتفت نحو صديقتها: سامية اشرحي لهزيم مشروعك الثقافي.

تبدأ تاريخاً مختصراً عن عملها عبر المجال الصحافي في بغداد. هي مع مجموعة مثقفين كانوا يصدرون مجلة ثقافية شهرية منوّعة، غير سياسية. بعد التحوّلات الجديدة والتأميمات أُلغي امتياز المجلة وهُدّدوا بإغلاقها إذا لم يلتحقوا بخط إعلام الدولة والنظام. لم يوافقوا على الشروط فأُغلقت المجلة. الآن تفكر بإعادة إصدار المجلة من خلال وكالة صحافة لبنانية ـ عراقية مشتركة.

يسألها عن دوره في هذا المشروع الطموح فتقول بأنها تقترح أن يكون رئيس تحرير المجلة وهي مديرة التحرير، إذا رغب وقرّر التعاون.

يتحاوران حول الوضع الأمني في البلد. الغليان والتوتر بين الأطراف المتنازعة. تحت ظلال هذه الحالة المنذرة بالحرب بين لحظة وأخرى كيف يمكن المجازفة بمشروع ثقافي على هذا المستوى من الطموح!

ـ أنا أرى في الأمر مغامرة غير مأمونة النتائج. يقول.

تضحك. تقول بثقة: أنا أحب المغامرات. ثم تعقّب: قد لا تكون الحرب حتمية.

بدا له المشروع ضرباً من المجازفة اللاواقعية. اقترح الاكتفاء بإصدار المجلة وتأجيل موضوع الوكالة الصحفية.

تُثني إيفا على الفكرة: البلد متخم إعلامياً. المجلة لا تشكل خسارة إذا ما اندلعت الحرب.

ـ حسب معلوماتي، وأظن إيفا تعرف، أن معظم المؤسسات

الإعلامية تشعر بالخشية وربما تفكر ببلدان بديلة. حتى المثقفون يهجسون بالهجرة إلى الخارج.

لم تكن سامية على قناعة بحتمية الحرب. في رأسها يشع لبنان الذي عاشت فيه مع زوجها قبل الطلاق. هذا اللبنان الجميل والحر. واحة الديمقراطية في بلاد العرب المبتلاة بالعسكر والاستبداد.

من خلال الحوار بدت موافقة على إصدار المجلة مبدئياً.

تحدثت عن تعاون ومراسلات واتصالات مباشرة مع أكثر من مثقف في البلدان العربية. وأنها بصدد البحث عن مقر للمجلة وشقة سكنية.

تضحك إيفا. تقول بامتعاض: ستغادرينني إذن يا ناكرة المعروف!

ـ أنت ستسافرين قريباً يا روحي.

ـ خذي حذراً وعلماً. أن هذا البيت لن يكون لك يا مديرة التحرير. سيرثه هزيم بعد سفري. تقول إيفا بنوع من النكاية.

تقطِّب مديرة التحرير ما بين حاجبيها الرجوليين: عيوني. الأستاذ هزيم، إذا ما وافق على رئاسة التحرير، سيسكن معنا في مقر المجلة.

ـ ولماذا لا تقولين معكِ! قالت إيفا بين الجدّ والمزاح والغيرة المستبطنة.

الشبهة المثلية بين المرأتين، والتي شك بها رئيف أو توهّم، ربما عبرت بين إشارات الحوار.

هو كان في فضاء آخر. محايداً ونائياً عن مناخ نوعية العلاقة بين المرأتين. فكر بأن الأمر ليس بالحدث الخطير والمُدان أو اللاأخلاقي في عالم يؤمن هو فيه بالحرية الفردية والاختيار الشخصي النابع من الداخل.

السّويّة الطبيعية والانحراف ذات منشأ واحد يفكر: الطبيعة البشرية المعقدة غير مكتنهة أو مكتشفة على نحو مطلق ونهائي.

ثمة مثلية بين الرجال كما بين النساء. كما هناك حالات جنسية بين الإنسان والحيوان. في عصور الخلفاء والأمراء والسلاطين القديمة والحديثة مورست العلاقات الجنسية مع الغلمان كحالة عادية لا شاذّة. اغتصاب الأطفال والطفلات الصغيرات. أحلام سفاح الأخوات والأمهات.

تأمّل وشرد. كان يدخن سيجارة على الشرفة.

خلال الحوار بدت له سامية عبد الأمير ممسكة بخيط واهٍ من خيوط الأمل. الأمل في الثقافة كجدار أخير في محيط الانهدام العربي. ترسم يوتوبيا حلُمية لزمان مضيء يولد من الظلمة وبروق الدم القادمة. تحلم بالقيامة من عصور المهانة والسقوط. الوعي الجمعي الكامن في أعماق التاريخ، منذ هولاكو الذي أحرق بغداد وقذف بثقافتها إلى نهر دجلة، حتى العصور الحديثة. طائر الفينيق الذي ينهض من الرماد أبداً.

تحكي بثقة عبر استدلالها التاريخي، شبه اليقيني.

تعترض إيفا باحتدام وهي ترسم لوحتها السوداء:

العرب في العصور الحديثة خارج التاريخ. قبائل متباغضة ومحتربة كما في الجاهلية وما بعد الإسلام. العصور العباسية في مواجهة العصور الأموية. ملوك الطوائف هم سادة هذه الأرض الآن. حفنة من الجهلّة والمجانين والمهووسين بشهوة السلطة وجنون العظمة، يمثلون الرب على الأرض بينما الشعوب منفية. حثالة مجوّعة ومقموعة.

تختم مناظرتها بأن العرب هم الآن الرجل المريض في أواخر عصر الخلافة العثمانية، والغرب وإسرائيل يأكلوننا قطعة تلو الأخرى.

يخيم جوّ من الكآبة والاختناق. يدهمه شعور بالعجز والفراغ. حوارات صوتية منهكة ومستهلكة. في سرّه يختنق من حالة هذا الخراب العميم.

امرأتان ورجل يغطي كل منهم أسراره الشخصية ونزيف الداخل ها هم يحلّلون العالم الخارجي، ويشخّصون أمراضه مقصِين اضطرابهم الذاتي.

ما يُروى عن الخراب العام، وأمل النهوض من الرماد قد لايكون بعيداً عن الحقيقة فيما هو راهن أو قديم. لكن أين يكمن مبدأ العطالة؟ في المجموع أم في الفرد؟ في السلطة أم في المعارضة؟ في الانكفاء نحو العصور الدينية واستلهامها، أم في التوق والعمل لقيام عصور الحداثة والتغيير الجذري؟

ثم ماالذي يُستطاع فعله إذا ما كانت السياسة تجرّ الثقافة وراءها كتابع اسمه «قفه» خلف السيّد «علي جناح التبريزي»؟

وأنا أهمّ بالنهوض قلت لسامية عبد الأمير: لنا لقاء آخر حول موضوع المجلة. الوسيط إيفا العظيمة.

ـ ولماذا الوسيط. نبَرت إيفا. طنجرة ولا قت غطاها، كما يقول المثل الشعبي. سَخرت.

ـ لسان كوبرا. ردّت سامية.

ثم أردفت وأنا أودع على الباب: أكيد سنلتقي كثيراً ولو كره العواذل.

40

في أواخر المساء تهيج الأشجان. بعد كأسين أو ثلاثة من الفودكا تتوهج الجمرات في الأعماق الأسيّة. يستعاد زمن الهجرات والاغتراب. زمن العزلة التي تجرح مسامّ الروح. الخسارات المتواصلة جرّاء الصدام من أجل حريتك المقدسة. مواجهة العالم الخارجي والمؤسسات التي تحوّل الإنسان إلى عبد ذليل ومُهان. أن ترفع رأسك، قد تنحني قليلاً لكن لا تنكسر. الثمن الفادح الذي ستدفعه بعد أن تستقيظ أخيراً. ثم تسأل نفسك: هل تستحق الحياة التافهة كل هذه الضرائب الباهظة؟

تكتب في يوميات متعثرة ومبعثرة:

في أمسيات الخريف الممطرة يشتعل حزن الغرباء جمرة في جذع شجرة. الليل طليق في الخارج. وأنت هنا في هذه الحجرة الصمّاء مأسور، مرمى كشيء فائض عن العالم. تحت الرماد يتوهج الماضي الشخصي. صوت الريح أنين فاجع يصدي بالسفر، والقلب شراع مفتوح للرياح التي تهب. وإذ تفاجئك المغامرة وأنت غير متأهب، وأنت أعزل ومهجور، لا بد أن تذرف بصمت دمعة على حياتك التي مضت في مهب العواصف.

الذين ارتضوا مساحة غرفة أو مدينة لا يغادرونها لا يختلفون كثيراً عمن ارتضوا مساحة قبر.

يبدو السفر أو الهجرة أو المنفى حالة حرية. كسر للقضبان

وتمزيق لأقمطة الطفولة الأولى. لا بد أن الغجر هم الأكثر حرية في العالم والأكثر إدراكاً لمعنى الحياة وقيمتها ولو على نحو لاشعوري. اللاوطن أن تسيح في الأرض وتهاجر كما الطيور.

في منفاك وعزلتك تتأمل حقيقة نفسك مليّاً بلا رقابة.

الزمن الماضي الذي خلفته وراءك. الأماكن الواحدة. الوجوه المكررة والبلهاء. الإيقاع الرتيب للأشياء والكلمات. البيت الكئيب المضجر. رائحة البغضاء. الحماقات. الهواء الفاسد للمكان. اختناق الروح. الصرخة المحتبسة في الحنجرة. هذه المرئيات والأحاسيس لها اسم واحد: الموت حيّاً.

للوهلة الأولى يبدو السفر حركة مضادة للموت. اكتشاف للحزن الشفيف المرعش للقلب الإنساني عبر نبضات غير مألوفة. حتى الجلد الخارجي يتقشر كما جلد الأفعى القديم.

ومع أن المدن جميعها، والشوارع، والغرف، وحركات البشر، تكاد تكون متشابهة (تدرك ذلك فيما بعد ربما) غير أن نبض الدم، والعراء النفسي، وإيقاع الدهشة الأولى في مدينة جديدة يبدو حالة مختلفة ولو خلال الثواني الأولى، الساعات الأولى، الأيام الأولى، قبل تراكم الصدأ والدورة الواحدة للزمن.

ها أنت تثب في الفراغ ولا تدري أين ستسقط ولا كيف.

بالأمس الجزائر والآن بيروت وغداً مدينة أخرى لا تعرفها.

وأنت ضيَّعت الطريق إلى البيت، ولا تستطيع العودة، حيث لا بيت لك سوى هذا التيهان عبر فضاءات العالم.

وأنت حين خسرتَ نفسك وأضعتها في ذلك المكان أو تلك المدينة فقد خسرتها وأضعتها في كل مكان آخر. كما يقول شاعر الاسكندرية العظيم قسطنطين كافافيس.

41

صيف القرية رتيب ومضجر. إيقاع متواتر للزمن والبشر. وحده البحر يجدّد المشهد ويضيء الروح. وهذا الصيف يبدو بلا بحر. منذ الفجر توقظك الأم الطيبة للدراسة والمراجعة استعداداً للدورة التكميلية. ستستعاد مواد العلوم مرة أخرى عبر تكرار أصمّ ومملّ.

في البيت أو سفوح كرم الزيتون، قرب معتزل الشيخ، تعيد القراءة عبر غدوّ ورواح على الطريق الترابية المطلة على الوديان. مرة بصوت هامس وتارة أعلى. إذ تضجر تغلق الكتاب وتصرخ كما الذئاب أو الثعالب لتبدّد الضجر وتغيّر إيقاع المشهد وتكسر الزمن. يشتّتك الصدى والمدى المفتوح على الأودية والهضاب الشرقية المغطّاة بأشجار السنديان والبلوط والزعرور والعرعار والعوسج.

تتداعى الأشواق الطيّارة باتجاه البحر والصيد. من فضاءات الحنين والتوق تهبط هالة وحنان. طائران يخفقان ويهويان من الأعالي. تبدوان برشاقة السنونو وهما تحطّان على حافة الكتاب المفتوح. تُطبقان الكتاب، ونبدأ الرحيل نحو الزمن السعيد المفقود. زمننا العذب الملوّن بالخطر وخفقان الفزع. لقاءاتنا النهارية. خلوات الليل قبل المداهمات. المطر تحت شجرة المشمش. الخرابة المضاءة بأشعة القمر ونحن متضامان ومنصهران بحرارة الأرض والفضاء وخلايا الجسد. خفقان داخلي للروح وهي تصعد نحو

الأعمق من الجسدي. نوع من فيض الينابيع المتدفقة من أعالي الجبال وأغوار الأودية الخضراء. الزمان الملوّن الذي كان.

ثم الهلع المباغت.

يتبدد الحلم.

أنجو بالطيران وتموت حنان في الخرابة.

وفي ذلك الصيف الكابوسي تظهر علامات المرض على الأب الشيخ. بدأ يعاني من نوبات حصر البول والحرقة في الإحليل. في البداية بدت الحالة وكأنها عرَضية. خلال أسبوعين يتفاقم الوضع.

في القرية طبيب شاب ما يزال في مرحلة الدراسة بكلية الطب في العاصمة. تستدعيه الأم لفحص الشيخ المريض. حين يكشف عليه، بعد شرح الحالة والأعراض، يشير إلى بداية تضخم فيما أسماه: البروستات.

المعالجة الأولية وشبه البدائية كانت بالإمالة عن طريق إدخال أنبوب بلاستيكي في فوّهة القضيب، وإمالته لتسهيل خروج البول على شكل قطرات.

- إذا تفاقمت الحالة لا بد من نقله إلى مشفى المدينة. يقول الطبيب.

تسأله الأم إن كان يحتاج إجراء عملية.

يقول الدكتور: الأطباء في المشفى يقدّرون ذلك. أنا مازلت في مرحلة الدراسة والتمرين. صلاحية العلاج ونوعيته وحده الطبيب المختص من يقرر الأمر.

يخيم على البيت شعور بالأسى. إحساس الأسرة بأن الرجل القوي، عماد البيت، يضعف وينكسر.

هو الآن ممدّد فوق السرير. وجهه الأسمر الحادّ ينحو نحو الاصفرار. وميض عينيه بدأ يخبو. حين تهاجمه نوبة الألم تخونه

قوّته القديمة وعنفوان روحه الصدامية. ينده: يا الله. يامعين في وقت الشدّة.

تحت المخدّة كتاب الله المجلّد والمطرزة حوافه بماء الذهب. الكتاب المقدس الذي ورثه عن أبيه وجده. الجدّ الذي أتى بالقرآن من بلاد فارس خلال رحلة حجّه التطهيرية إلى قمّ ومشهد، وزيارة أضرحة آل بيت النبي في العراق.

في الأصباح مع بداية الفجر، وفي أواخر الليل تُسمع تراتيل الآيات. يتلو بخشوع وصوت متهدّج. لكأنه يدرك بأن أيامه ما عادت طويلة في هذه الدنيا.

إذ يستعيد زمانه الماضي لا يحصي سوى الخيبات والإحباط. بدءاً من رحلته التعيسة، التي رواها مراراً، إلى الأرجنتين، والتي لم تدم أكثر من ثلاثة شهور، عاد بعدها خائباً ومموراً. أرسل له والده ثمن بطاقة العودة. وحين سيسأله أحد أخوته لماذا عدت بهذه السرعة يجيب بكبرياء: عدت بالشرف رفضت أن أعمل «سبّاتيرو» أي ماسح أحذية.

ويعلّق الأخ ساخراً: وهل كنت تنتظر تعيينك وزيراً في الدولة!

تُوّجت العودة بزواجه الذي آل إلى الفشل. كان صدامه مع زوجته فصلاً من فصول صراعه مع أخوته حول الميراث. صراع يرمي إلى إحقاق الحق والعدل كما يقول.

- في حياتي لم أرَ يوماً أبيض. يشكو.

في حالات ضعفه وشعوره بالخوَر والانكسار يناديني وأخي لنجلس قربه على الفراش. يروي لنا فصولاً من حياته وكفاحه في مواجهة ما يسميه: الزمن الصعب والنفوس الجشعة والأخوة اللئام الذين سرقوا ميراثنا. يروي عن الدنيا الفاسدة وعبادة المال بديلاً عن عبادة الله: هذا الإنسان فقد آدميته وتحوّل إلى وحش. وهو الآيل في النهاية إلى تراب. كل ما سيأخذه معه حفنة تراب يلقمونه

بها في قبره. ثم يتلو: والذين يكنزون الذهب والفضة إنما يكنزون في بطونهم ناراً... إلى آخر الآية.

هو الآن يروي بكبرياء رجل بدأ يتهدم تحت ضربات المرض.

في الزاوية، الأم تنهنه وهي جاثية متكئة على الجدار. هي الأخرى جرّاء ضعفها واستبداده بها واستلاب شخصيتها، شبه منهارة. تبدو مستسلمة للقدر وإرادة الله الذي يملك هِبةَ الحياة والموت.

حين يرى آثار الدمع، دموعي ودموع أخي ونحن نطوّقه، يصرخ بما تبقى من طاقة الحياة: لماذا هذه المناحة! أنا لم أمتْ بعد. يمسح عبراتنا بمنديله.

ـ وأنت أيتها المرأة الخرقاء. كفكفي هذه الدموع المأتمية. يصرخ بأمي التي تراقب جدارها وهو يتداعى.

مساءً يأتي الجيران والأقارب وأصدقاء الشيخ يعودونه بعد انتشار النبأ في القرية الصغيرة. صديقه الحميم عبد الله تامر يشجعه ناثراً نوادره الفكهة. يسأله مازحاً:

ـ شيخنا. سؤال جدّي: أيهما أصعبُ حصرُ البول أم حصر النسوان؟

ببهوتِ رجلٍ هدّه المرض يحاول جاهداً الابتسام: محسوبك ياعبد الله واقع الآن بين المطرقة والسندان.

يتنهد في فضاء اليأس: المصيبة القديمة هربنا منها إلى السفر القريب نحو الوديان وذكر الله. أما المصيبة الجديدة فلا مهرب منها سوى نحو السفر البعيد حيث لا عودة.

يعترض عبد الله: هوّن عليك شيخنا. منك تعلمنا الصبر على الشدائد وأزمنة الضيق. مزحنا مزحة صغيرة كبّرتها حتى أوصلتها إلى ربّ العالمين. تفاءلوا بالخير تنالوه. كل ما اشتدت بتنفرج بعون الله.

بعد خروج الأهالي يتداول عبد الله مع أخوة الشيخ وأمي حول فكرة نذر لأحد الأولياء الصالحين: ذبيحة مع الزكاة للشيوخ وتوزيع البرغل واللحم على الفقراء كما جرت العادة.

حين طُرحت الفكرة على الشيخ الممدد في سريره، أشار نحو أمي كي ترفع له الوسادة وتساعده على الاستناد إلى جدار السرير.

توجّه نحو أخوته وصديقه: منذ بدء الخليقة في الأزمنة البدائية وحتى اليوم كانت هناك نذور وأضاحي لدى جميع الأقوام والأمم، قولوا لي ماذا فعلت تلك النذور والأضاحي للمرضى أو المشرفين على الموت؟ هل سحرت عزرائيل وكبّلت يديه ومنعته من قبض الروح؟

يضيف مستسلماً: لكل إنسان أجل مقدّر لا يزيد ساعة أو دقيقة ولا ينقص. الحياة هبة الله ووديعته لدى ابن آدم، والموت استرداد هذه الوديعة. وهذه النذور التي تقيمونها أو تقترحونها في نظري، ومن الناحية الدينية، هي اعتراض على إرادة الله. رِشوة يرتزق منها الشيوخ الجهلة والجشعون. حتى الملائكة في السماء يسخرون من هذه الطقوس ومن عقولكم المظلمة.

ويستطرد تحت ضغط الألم البادي في وجهه وجبينه وعينيه الكابيتين كأنه يلقي وصية وداع: حتى الرسول صلوات الله عليه وسلّم، وعيسى ابن مريم عليه السلام، والأنبياء جميعاً قضوا حين جاء الأجل. هل أنا أول من مات ومن سيموت أفضل من هؤلاء؟ الجسد من تراب أما الروح فهي نور الله. والخالد هو النور الذي يضيء العالم، انذروا في قلوبكم وأرواحكم أن ترحل الروح النقية بسلام إلى مستقر السلام الأبدي بعد انتهاء رحلة العذاب على الأرض.

خلال أسبوعين تفاقمت حالته المرضية. برّحه الألم جراء الحرقة البولية. هزل الجسد وانحطت قواه. هبطت معنوياته بشكل مخيف. بدأ يدخل فسحة اليأس واللاأمل. في الليل كان يتأوه بأنين

مكبوت حتى لا يوقظ الأسرة ويقلقها. حين يهدأ الألم يتلو آيات من القرآن داعياً الله كي يخفف عنه وييسّر له الرحلة من هذا العالم.

ذات مساء زاره الطبيب ابن القرية. عاين حالته وجسّ نبضه وضغطه. إثر ذلك اقترح نقله إلى مشفى المدينة على وجه السرعة. اختلى الطبيب بصديقه عبد الله الذي يعوده يومياً: الحالة تنذر بالخطر. أعتقد أنه بحاجة إلى عملية جراحية.

42

جاءنا الخبر صاعقاً، مفاجئاً: اغتيال الدكتور عبد الوهاب الكيالي مدير المؤسسة العربية للدراسات والنشر ليلة أمس.

كان الفقيد المغدور يهم بفتح باب سيارته في الطريق إلى عمله حين أطلق القاتل ثلاث رصاصات من مسدس كاتم للصوت على رأس الدكتور وصدره.

وأضافت جريدة «السفير» يبدو أن الاغتيال سياسي ومازال القاتل والجهة المخططة للاغتيال مجهولين.

بدا الوجوم والاضطراب والأسى على وجوه الموظفين. كان الحادث مباغتاً ومأساوياً.

أكثر من سؤال كان يرسم إشارة استفهام: لماذا؟ ومن الجاني؟ وما الهدف؟

لقد اغتيل الرجل الأكاديمي الهادئ والعقلاني. المثقف العائد من الغرب إلى بلاد العرب، وفي رأسه مشروع ثقافي حضاري ليشيد لبنة في جدار الضوء المستقبلي لبلاد طال رقادها في الظلمات. الفلسطيني الذي كتب عن الجذور الأولى والأساسية للمشروع الصهيوني في أكثر من مقال ودراسة وكتاب، كما أصدر أكثر من مجلد عن الدار حول الصهيونية والعنصرية.

هل اغتالته يد الموساد الإسرائيلي؟ أم كان ضحية الصراعات العربية وأجهزتها الأمنية؟

كان لبنان يمور بأوكار أجهزة المخابرات، ومسرحاً مكشوفاً لمشاريع القتل والاغتيال وتصفية الخصوم تمهيداً لحريق الحرب القادمة.

أجهزة أمن سورية وعراقية وأردنية ومصرية وسعودية إضافة إلى أجهزة المنظمات الفلسطينية، كما كانت أجهزة الأمن الإسرائيلية والأميركية تسرح وتنسق وتخطط سرّاً وجهاراً وخاصة في بيروت الشرقية مع الكتائب اللبنانية وعملاء ومرتزقة من العرب والأجانب.

في ذلك المناخ المحموم والمشحون بالرعب سيُلقى القبض على عميل من أخطر ضباط المخابرات الأميركية هو الكولونيل «أرنست مورغان»، وذلك في أعقاب اغتيال الدكتور عبد الوهاب. ألقي القبض على الضابط الأميركي من قِبل منظمة العمل الاشتراكي الثوري.

وبناء على معلومات سرية خاصة سيُخطف من مطار لبنان الدولي من قبل مسلحي المنظمة، ويقاد معصوب العينين للتحقيق معه في أحد الأَقبية السرية.

سيعترف مورغان خلال التحقيق، وتحت التهديد بالتصفية الجسدية بأنه أحد الضباط المسؤولين عن التخطيط في حلف شمال الأطلسي «قسم الاستخبارات العسكرية».

ومورغان من مواليد ولاية فرجينيا، كما سيعترف. نقل إلى كوريا بعد تخرجه من الأكاديمية العسكرية وهناك شارك في القتال ضد الثوريين الكوريين. بعدها نُقل إلى حلف الأطلسي في فرنسا لمدة ثلاث سنوات. ثم يتابع اعترافاته بأنه اتبع دورات عسكرية في ولاية تكساس لمقاومة حروب العصابات في العالم المعادي لأميركا وخاصة الشيوعيين. بعد ذلك نقل إلى ألمانيا الغربية. حرّض وشارك في العصيان المسلح الذي حدث في هنغاريا في العام 1956 ضد النظام الشيوعي.

تمّ نقله إلى جنوب شرق آسيا حيث عمل ضد الثوار في تايلاند وكمبوديا وڤيتنام. بعد ذلك نُقل إلى تركيا ومنها إلى قبرص بمهمة سرية إبان الصراع التركي اليوناني القبرصي. وبعد إنهاء مهمته في تركيا انتقل إلى باكستان وبنما.

وهو الآن في لبنان لمواصلة مهمته في التخطيط لاغتيال كوادر وقادة القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية بالتنسيق مع الموساد.

سترسم هذه المعلومات الجديدة أكثر من إشارة استفهام في المستقبل، حول اغتيال الدكتور الكيالي، وقادة آخرين من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية بتعاون مورغان مع الموساد الإسرائيلي عشية الاستعداد لجحيم الحرب.

سؤال: هل كان لمورغان دور في هذا الاغتيال السياسي؟

سؤال آخر: هل الموساد هي الجهة المسؤولة؟

سؤال آخر: هل المخابرات العراقية أو غيرها تقف وراء الاغتيال خاصة بعد الصراع المفتوح بين الأجهزة الأمنية؟

ستبقى الأسئلة غامضة ومعلّقة في الفراغ وقتاً من الزمن.

الوثائق والشهادات والاعترافات التي ستنشر بعد الحرب، ربما تكشف الأسرار الخفية ليس عن الاغتيالات ومخططيها ومنفذيها إنما عن جذور وأسباب وقائع الحرب الأهلية القادمة.

غمامة أسى ملونة بالغضب والمرارة اجتاحت جميع العاملين في المؤسسة.

في الطريق سرنا على غير هدى، رئيف وأنا. عرجنا على مقهى ومطعم «عروس البحر» في كورنيش عين المريسة. طلبنا بيرة. كان البحر أمامنا مموّجاً يرتطم بالصخور البنية، ثم يتراجع صاخباً ومزبداً. فوق الأمواج نورسان يطيران على ارتفاع منخفض على غير هدى.

وحده صخب البحر كان يُسمع في هذا الصمت الجنائزي المشحون باحتمالات الفزع والموت.

- إلى أين يسير البلد؟

أحدنا رمى السؤال ربما، أو لعلّه كان يدوي في الداخل تحت ضباب الأسى الخانق.

- الدمار!

داخل هنيهة خاطفة بدا الصديقان كغريبين. شقّتهما مسافة الحدث الفاجع، وفي لحظة لا مرئية التحما تحت دويّ خافت للرعب القادم.

هما الآن غريبان خارجياً عن الحرب والموت.

أحدهما مُبعد وهارب من جحيم المطاردة لا يستطيع العودة إلى بلده، والآخر حطّم جسور العودة إلى البيت بعد إحراق السفن.

وهما المحاصران كحيوانين في قفص المدينة. المدينة - الغابة التي تتأهب لاستقبال عرسها الدموي.

ولعل السؤال المؤجل الذي سيطرح فيما بعد: مع من سيكونان في لحظة الانفجار؟

كان الانقسام والفرز واضحاً. إما مع الفلسطينيين والوطنيين، وإما مع الكتائب وحلفائهم.

ولأنهما يسكنان ويعملان في الشطر الغربي من بيروت التي انقسمت جغرافياً وطائفياً، بدا الخيار حتمياً.

بغتة ولنخرج من كابوس الفاجعة، يسألني رئيف إن كنت سأعمل مع سامية عبد الأمير في مشروعها.

- لم أقرّر بعد. ما رأيك؟ سألته.

أشعل رئيف سيجارة وزفر: قد لا تكون لديك خيارات. ربما أغلقت المؤسسة بعد الحادث.

- وأنت؟

نقر بأنامله على سطح الطاولة. تناول جرعة بيرة. بعد لحظة صمت خرج صوته الخافت: الملاذ الفلسطيني. لا يوجد ملاذ آخر.

لكم يبدو الوطن ضيّقاً وطارداً لبنيه.

اللاجئ السوري يلجأ إلى شتات اللاجئ الفلسطيني المطرود من أرضه. والآخر يلجأ إلى حمى اللاجئ العراقي الهارب من جحيم الطغيان.

«لعمركَ ما ضاقت بلادٌ بأهلها
ولكن أخلاقَ الرجال تضيقُ»

قال رئيف بيت الشعر وبريق دمعة خفية تتموج تحت أهدابه.

43

ـ يسعد مساك.

ـ مساك سعيد. يجيب أبو جورج المشغول بالزبائن. حين يلتفت يفاجأ بصاحبه القديم شبه المدمن على البار سوى في الأيام الأخيرة.

ـ أهلاً. أهلاً. نوّرت.

ـ ينوّر أيامك. كأس ويسكي أبو جورج.

ـ على عيني.

البارمان السمين الأجلح قليلاً، والمتزنر بصدرته السوداء وربطة العنق الوردية، يواصل ثرثرته وهو يتناول زجاجة السكوتش عن رفّ القناني المصفوفة والمتقاربة من بعضها كأنها نسق من طيور البطريق الملوّنة.

وهو يصب الكأس يسأل سؤاله التقليدي: وين هالغيبة الطويلة أخي هزيم؟ من زمان ما شفنا هالطلّة الحلوة.

ـ الشغل أبو جورج. وبعدين كما ترى أحوال البلد تعيسة ومضطربة.

بار «قوس قزح» في منطقة الروشة يشبه ملجأً مستطيلاً تحت الأرض. سبع درجات وتفاجئك الأنوار الخافتة، حمراء وخضراء وبنفسجية. ديكور من الخشب البني المحروق. في الزاوية الجنوبية

للمدخل دنّ كبير من الفخار. على الجدار الشمالي زقّ من جلد الماعز معلق قريباً من السقف. الدن والزقّ جاء بهما أبو جورج، كما روى، من قريته التي هاجر منها في جرود كسروان إلى بيروت مركز المال والثروة.

الموسيقى هادئة. أصوات روّاد البار خافتة. يزعم أبو جورج بأن باره يفخر بقدوم المثقفين والصحافيين في أواخر الليالي.

إلى هذا البار، غير الصاخب، يأتي في بعض الأمسيات، وفي الغالب، وحيداً. أحياناً يلتقي بشوقي نصر الله، هذا الفوضوي الزورباوي المهووس بالنساء والخمر: دونهما لا معنى للحياة التافهة. كما يعبّر في لحظات تجلياته الرواقية: الحياة في نهاية المطاف تُختصر في حفرة ضيّقة وحفنة تراب في فم ما عاد باستطاعته لا تقبيل النساء ولا اجتراع الخمر.

عرَضاً أسأله: شوقي هل فكرت يوماً بالزواج؟

ينخر كبعير. ينفخ دخان سيجارته متأففاً في فضاء البار.

ـ أخي هزيم أنا ابن آدم ولست حماراً يُربط بوتد ويُجرّ برسن. هل رأيت أو سمعت بالطير الحرّ الذي يصطاد الأرانب والكروانات والحباري في الصحاري والبوادي؟ أنا أشبه هذا الطائر.

ويتابع: المرأة وجبة همبرغر سريعة تأكلها على الماشي وتواصل طريقك نحو ما هو جوهري وأسمى في العالم.

ـ وما هذا الأسمى والجوهري في حياة تسِمُها بالتافهة والخاوية من أي معنى؟ أسأله.

ـ أن تكون حرّاً بلا قيود. بلا مسؤوليات. خارج الالتزامات الاجتماعية. خارج المألوف والسائد. ضد هذه الحرب اللعينة التي سيأخذوننا إلى جحيمها ونحن لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

بعد أن يسكر لا يكفّ لسانه السليط عن الشتائم والبذاءات،

يرشق بها زعماء لبنان الأوباش والسياسيين خنازير أميركا وإسرائيل. تجار الحروب ولصوص الشعب «المعتّر».

حتى الزعماء والرؤساء العرب يصلهم نصيبهم من رذاذ شتائمه:

ـ هؤلاء الأوغاد السفلة الذين يمتّصون دماء شعوبهم ودم الشعب الفلسطيني.

حين يحتدم ويشعّ ضباب الخمرة في رأسه: هل تعلم ما هي أمنيتي قبل أن أموت؟ يسألني.

لا ينتظر جوابي: أن أصفّ هؤلاء الأبناء الزنا في نسق وأرشّهم بالرصاص. ثم أجلس على جثثهم وأسكر حتى أموت.

أضحك هازئاً: هم لا يستحقون طلقة أخي شوقي. كوّمهم فوق مزبلة. تنكة مازوت وولّعهم.

الآن وحيداً في غياب شوقي الغاضب وتهويماته وأمنياته الطوباوية، تترى موجات حياتي كما أمواج البحر التي تصخب في الخارج. تتموج تداعيات الطفولة والفتوّة والبراري والبحر والفتيات اللواتي عبرن كالطيور المهاجرة إلى ما وراء الزمن. ثم الصدامات. الانتماء السياسي الأخرق ثم الموت الفاجع للأب.

مواجهة الحياة ـ الورطة لفتى لم يبلغ العشرين وهو يصطدم بزواج مبكر. زواج خاطف هو أقرب إلى الاغتيال. ثم الهروب البائس. حالة حصار هناك وهنا بين أسوار الزمن الذي يبدّدك. بدد. بدد. وحين ضيّعت الجهات تحولت إلى علقه من علائق البحر وأشنيّاته المدلاة تحت سطح الماء، يؤرجحك التيار كيفما شاءت أمواجه. تحاول أن تصرخ محتجّاً. لماذا يحدث هذا؟ يرتدّ الصدى من جدران الحصار: يحدث هذا. يحدث...

من خلال ضباب الخمرة تقترب امرأة. تلتبس عليك. هي إيفا أو تشبهها. تتذرع بإشعال سيجارة. تسأل سؤالاً للتعارف. من خلال

أطياف الثمل المهدّم تطلب كأساً بعد أن تعرّف باسمها. يأتيها أبو جورج بكأس ويسكي. تبدأ الثرثرة حول أحوال الزمن وتحوّلات البلد. لبنان القديم الأخضر. بلد الأرز الشامخ.

هو صوتها أم صدى المرارة في داخله: أنت حزين لأن الرجل اغتيل! ثمة اغتيالات أخرى قادمة. البلد واقع في دائرة النار. يكاد يصحو من هذه الالتباسات: لماذا تقول هذا؟ أهو صوتها أم هذيانه الداخلي.

عبر هنيهة صحو شبيهة ببرق خاطف تلوح صورة إيفا. شكل شيطاني أسود يشبه شكل الساحرات. كانت تضحك. بدت أسنانها منخورة ذات رائحة زنخة وعيناها عينا عظاءة. وحين همّ بسؤالها عن الحادث قهقهت واختفت. وسألتِ المرأةُ المجاورة: أترغب أن تؤنس وحشتك امرأة قبل أن تقع الحرب؟

ولأنه مهدّم وفريسة زمن العدم واللامبالاة والضرواة التي تلوح في الأفق، وفي رأسه تدوي طبول الحرب والموت، بدا عازفاً عن الحوار مع المرأة التي بدأت تحتك وتتحرش به. ورغب بحضور شوقي الآن كي يحتضن المرأة يريحني منها، يأخذها ويمضي.

في الأعماق الداخلية كان هناك شوق حميم لامرأة حتى لو كانت مومساً. امرأة تفتك به. تتعرى. تمارس ساديتها. عهرها. ترقص عارية وتصرخ في عراء الليل. ليله الداخلي لعله يُنار قليلاً ويخرج من ظلماته اللعينة. من حصاره وضائقات الزمن وهذا التيه الصحراوي اللانهاية له.

هذه المرأة التي تحاذيه وتمرر أصابعها الآن بين فخذيه أو غيرها من مومسات الشارع، تنسيه لوهلة شقاءه الروحي. هذا الشقاء المُرمض والكابوسي الذي قذف فيه بلا ذنب مذ قَذَف ذلك الرجل الشهواني نطفته في رحم تلك المرأة الخانعة ذات ليلة من ليالي القرى المعتمة في أعقاب سكرة عمياء.

تشرب حتى تشارف أبواب العمى في زمن العبث. زمن الشلل

والرغبة في الهروب. إلى أين؟ وإلى متى تواصل هروبك بحثاً عن ملاذ أو نجاة. الهروب الجبان بعيداً عن المواجهة أو الانتحار؟

التيارات تترى كأمواج البحر عبر هذا الفضاء البرتقالي والوردي والعابق بالدخان في هواء البار الفاسد. وأنت الآن هنا وهناك. شيء فائض. تطفو فوق الأمواج، تحتها. يصدي صوت الزوجة المهجورة: أيها النذل. ها أنت تتركنا للضواري وتنجو بنفسك. ومها القادري تطلب منك النجدة من سفلة الأمن وكلابهم المسعورة المتربصة للانقضاض عليها وانتهاكها أو قتلها وهي تضرع: لماذا تخليت عني في أوقات الضيق؟

وأنت المفتوك بك، يدهمك حس الذنب بالتخلّي والعجز. الطفل فيك المُرمى في البراري ينده ربّه: أغثني يا مولاي.

ولا مغيث. ربّك لا يسمع نداء الطفل الملهوف، الهائم في برّية الوحوش الكاسرة. أو يسمع ولا تعنيه.

والمرأة التي تحلم بها ليست هذه المومس الفاضلة التي تحاذيك وتداعب عضوك المتوتر، متوسلة لاصطحابها معك إلى البيت لتولجك في الجسد الذي تشتهيه، كما هي ليست امرأة الجزر الوحشية الخضراء المستوهمة. وتسأل إن كانت واحدة من تلك الفتيات المفقودات اللواتي عبرْنَ في نهارات وليالي البراري وحقول الزيتون. زمان كنت فتىً مسحوراً بدهشة العالم وبراءته النديّة، قبل أن تبدأ البروق والرعود وصواعق الزمن.

زمان كنت ترسم على الغبار أو في الهواء أو داخل المخيلة أشكالاً سريالية لفتى وفتاة يستلقيان على العشب أو في خرابة يضيئها القمر، وبغتة تطيران بعيداً جداً عن مداهمات العالم ووحشيته. بعيداً عن البلاد التي لا زمان لها. البلاد التي تطفو فوق بحار القتل والدم.

كان عارياً في مشرحة المشفى. ممدداً فوق البلاط البارد العاري. لون وجهه وجسده كالصلصال الأصفر. جثة باهتة خلت من الحياة. هو الآن مسجّى في سكينته الأبدية. روحه غادرت نحو فضاء مجهول وتبدّدت في الأثير. وكما كان يوقن لعلها الآن بين [illegible]

تنتظر مثوبتها عما أحسنت، وتوبتها عما أخطأت.

العملية الجراحية التي أجريت له كانت بدائية. تشبه جراحة الخصي الحيواني، قام بها طبيب مبتدئ ومغفّل، لا يعرف من علم الجراحة أكثر مما يعرفه بيطري في جراحة قلب الإنسان.

أحد أعمامي وصديقه الحميم عبد الله تامر نقلاه من مشفى المدينة إلى البيت. انتشر النبأ في القرية الصغيرة. خيم الوجوم على وجوه الناس الذين توافدوا إلى ساحة الدار. دوّت الولولات وندب

الجثمان. بعد انتهاء الصلاة سُمح للمودعين بـإلقاء نظرة الوداع الأخيرة.

أخي وأنا جثونا قرب الجسد المغطى بشرشف أبيض. وأنا أقبّل جبينه البارد تحت انهمار الدمع صرخت: آه. لماذا تركتنا وحيدين. من لنا بعدك!

فيما بعد ستروي أمي عن المشهد بأن صرخاتي هزّت أركان البيت وأنا أضرب رأسي بالجدار والأرض وعمود السقف: دخيلكم. هزيم يقتل نفسه. صاحت وهي تطوّقني بذراعيها.

ما سأتذكره فيما بعد، وما سيُحفر في ذاكرتي إلى الأبد أنني لم أكن أبكي وأنتحب. كنت أعوي كذئب جريح ينزف وأنا أحطم الأشياء التي تصادفني. حالة جنونية وانفجارية. كنت أعمى وأنا أهذي: أحقاً مات! لا لم يمت. أنت أيّها الرب الرحيم أين عدالتك! لماذا سمحت بموته!

تستغفر الأم ربّها وتنوح: غفرانك يا ربّ. لا تؤاخذه. لم يكن يرى. كان في حالة من الظلام والتيه وفقدان الوعي. خفتُ عليه اللحاق بالمرحوم. أنا وأخوه وأعمامه وعبد الله الحلاّق حاولنا تهدئته والتخفيف من قوة الصدمة التي ضربت عقله.

بعد أن هدأتُ (كان الفقيد قد وُوري الثرى) بقيت أياماً لا أتكلم. تقول أمي بأنني كنت أزور القبر يومياً في الليل وأنا أبكي مطوّقاً الضريح حتى يغلبني النعاس وأتمدد قربه حتى الفجر.

ستحاول تلك الأم الطيبة والمؤمنة مواساتي من خلال إيمانها بأن ما حدث هو مشيئة الله، وأن الموت حق على ابن آدم، والناس جميعاً هم وديعة الله في الدنيا متى شاء استردّها. كما تحدثت عن الجسد الفاني والروح، وأن روح الفقيد هي الآن في الجنة لأنه كان رجلاً مؤمناً بالله والآخرة. بفزع تتذكر صرختي الداوية والغاضبة: لقد مات الله فيه. لماذا يموت رجل مؤمن بالله؟ رجل أفنى عمره في سبيل العبادة وذكر ربه والحلول فيه. اسأليه أنتِ التي تعرفينه جيداً.

لماذا؟ الرجل الذي أقام ما يشبه المعبد في براري الرب ليذكره ليلاً ونهاراً. اسألي ربّك لماذا يتّمنا وتركنا كفراخ الطير في العش بلا معين ولا معيل. أين العدل في هذا وأين الرحمة؟ يومذاك صرخت الأم كأنما صدمتها صاعقة: لا. لا تكفر يا حبيبي. اهدأ. الغضب والكفر من فعل الشيطان. ألا تتذكر كيف كان المرحوم يردد دائماً وهو يتهجد في الليالي داعياً إلى الصبر على المحن والمصائب التي يختبر الله الإنسانَ بها.

في ليلة مظلمة بعد أسبوعين من الوفاة، حملت فأساً وهبطت إلى سفوح كرم الزيتون. أخرجت صناديق الكتب والمخطوطات ثم بدأت أهدم جدران المعتزل.

في داخلي وأعصابي كانت هناك قوّة شيطانية ممسوسة. قوة تتجاوز قدراتي الطبيعية. بعد هدم الجدار قوّضت أركان الخيمة المشادة أمام المعتزل. جمعت حطبها وأشعلت النار في كومة الخشب والحطب. كسرت الصناديق بالفأس ورحت أقذف بالكتب والمخطوطات إلى النار. كنت أراقبها والنيران تأكلها وترمّدها.

هل كنت أتطهر وأنا أراقب مشهد النار وهي تضيء الليل! بغتة انتابني فزع داخلي. بدأت أرتعش من الظلال المتموّجة حول اللهب وصوت الحطب والورق وهو يطقطق ويتلوى تحت الوهج. وجاءتني أصوات وحوش برّية دوّى صداها من عمق الوادي. هل كانت الأصوات خارجية أم أنها تصاعدت من داخلي! وتراءى لي في الظلمة المحيطة بالنار شبح مغطى بالبياض راح يتقدم باتجاه اللهب. وارتعشت رعباً من رؤياه وصوته الداوي: أيّها الشرير. ماذا تفعل؟ أنت تحرق الله وتحرقني. لماذا هدمت بيت الربّ؟ ملعون أنت حتى آخر الزمن.

وأنا أرتعد كنت أسمع دويّ الصدى وكأنه يخرج من ظلال النار: يوم القيامة ستُحرق فيها كما أحرقت روحي.

في تلك الليلة المجنونة لم أنمْ. كانت صور ومشاهد النار واللهيب تتموج أمامي وفي رأسي المصدّع وتراءت صور الصفحات وهي تهوي وتترمد أوراقها، بينما آثار الحروف والكلمات تتراءى حيّة ومقروءة تحت الوهج كأنما تقاوم ضراوة النار قبل أن تتهاوى على مهل وتتحول إلى رماد.

في الفراش كنت أرتجف والمشهد يستعاد على شاشة النار الحمراء. حالة من الحمّى والبرداء والعرق راحت تغزو جسدي المرتعد. وأنا تحت إيقاع الحمّى خطفني وميض داخلي: هل ارتكبت عملاً مدنساً وأنا أعاقب الآن بخطيئتي! وهجس هاجس غريب: أيّها البائس لكم أنت وحيد الآن ومعزول عن العالم!

وطلبت من أمي أن تغطيني فأنا أشعر بالصقيع وهناك جبال من الجليد والنيران تنهال فوق جسمي. وغطتني ثم التحمت بي لتدفئني وراحت تجفف عرقي. وانتابتني أحاسيس غريبة وأنا أعود مولوداً ينام في حضن أمه غبّ خروجه من الرحم. وددتُ لو أعود إلى رحمها لأحتمي وأشعر بالأمان والدفء.

كم بدا صدرها دافئاً وحنوناً منحني الأمن والسكينة، وراحت تواسيني وتغني لي أغانيها الفِراقية الحزينة التي كانت تنشدها في الأزمنة القديمة في أعقاب وداع غالٍ عليها، أو إبان مرضنا. أناشيد عن غوائل الدهر الجائر، وغدر الزمان الذي لا أمان له وحظها العاثر في الدنيا الدنيئة.

تحت موجة من الهذيان اعترفت لها بما جرى، أنَّت أنيناً خافتاً كأنين المُحتَضَر، أحسست بقلبها يختلج وينفطر.

- أية خطيئة. هَمَستْ. يا إلهي اغفر له!

كان ضوء الصباح ينبلج وينير العالم الآن.

45

ما خطر له بأن تلك الليلة ستكون الأخيرة. سهرا معاً حول مائدة عامرة، وتحدثا عن الخوف والمداهمة والبيت المراقب ورسائل التهديد. كررت مها أسطوانتها القديمة حول لا مبالاته وتخليه عن حمايتها. وفي تلك الليلة طرحت مشروعاً غريباً حول الزواج والسكن سوية في بيتها.

ـ وجودك معي يحميني. أنت عسكري ويخشون الصدام معك.

بوغتَ بهذه الفكرة الخرقاء.

أن تكون لديه زوجتان إحداهما شرعية والأخرى سرّية (كتم كلمة غانية وهكذا تكتمل المهزلة). وهو الآن على أبواب الهجر أو الطلاق. وقريباً سيسرّح من الخدمة العسكرية، وربما غادر هذا البلد الكابوسي ولا يعرف إلى أين ستطير به الرياح.

لم يواجه فكرتها باحتدام أو رفض مطلق.

ـ أنا مقبل على هجر أو طلاق. لدي أطفال لا أعرف ما الذي سيحدث لهم في غيابي. كما أنني ضابط احتياط صغير فائض عن الحاجة وعلى وشك التسريح من الخدمة.

حاول الحياد عن صدمة الزواج، وموقفه السلبي من المؤسسة الزوجية الفاشلة، في الأعمّ السائد. هو كان خائباً كغيره من الأصدقاء الذين عرفهم وعانوا من كارثة الزواج، والسقوط في ذلك المستنقع. وعززت أفكاره السلبية تنامي حالات الطلاق في المحاكم

الشرعية بين الرجال والنساء الذين تزوجوا سواء حبّاً أو بالإكراه العائلي السائد في الأوساط الشعبية والدينية المتزمتة.

وفكر، احتمالاً، بأن بنية مؤسسة العائلة، في بلاد الشرق الإسلامي المتخلف والذكوري، تنهض على أساس هش وهلامي مهادُه الكبت الجنسي واللاإختلاط، وتلك الشهوة الحارقة سريعة الانطفاء.

ربما كان اختلاف الثقافة والتربية المنزلية، والتكوين الذاتي الأناني والمزاج الفردي، وجينات الوراثة، أحد المؤثرات الجوهرية في هذا العطب الاجتماعي، والسقوط في حفرة هذا الفخّ المموّه بالثمار الشهية والورود وأحلام العشق السرمدي.

ولأول مرّة حاول الدخول مع المرأة في حوار صريح حول حالته النفسية كرجل لا يصلح للزواج من أي امرأة في العالم.

- في داخلي أشعر بالعزلة. بعد أن وعيت العالم أدركت أن بيني وبين المجتمع انهدام كيف يكون الإنسان غير قابل للاندماج في الحشد أو المؤسسات! هذا الشعور كثيراً ما ينتابني.

واصل تسويغاته الهروبية: هل تصدقين لو قلت لك بأنني واقع تحت ضغط حالة من الاغتراب الروحي، وأحياناً تدهمني رغبة الانتحار للخلاص من هذا الجحيم وهذا الحصار.

نشرب نخباً. تطوقني المرأة. رجل وامرأة مطوّقان بالشقاء.

لتشيحَ عن مناخ الاختناق المخيّم على جو السهرة تقول: لكننا في النهاية أبناء هذا الواقع الذي وُجدنا فيه حباً أو كرهاً وعلينا أن نتكيف لنحيا ونستمر.

- أن نتكيف. هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها. أنا يا عزيزتي غير قابل للتكيف أو المصالحة مع العالم. عالمنا كما أراه وخبِرتُه يقوم على أسس وقيم تلفيقية. قيم موروثة من آلاف الأعوام. عالم مستبد، فاسد، شديد الوحشية. الأنا المتعالية والمتجبرة فيه تكاد تتوازى مع الله. بدءاً من ربّ العائلة وصولاً

إلى رأس هرم الدولة. وحسب قانون الغاب، الأقوى هو السيد، وظل الله على الأرض. أنت وأنا وبقية العباد غير المحميين ضحايا هذا العالم الأحمق.

ـ لكن المرأة مستذلة هنا. مكسورة الضلع كما يقول المثل. تختلف عن الرجل السيد والقوي.

ـ والرجل أيضاً. إن لم يكن ذئباً أكلوه.

واستطرد مذكّراً بما حدث لزوجها: ماالذي جرى لزوجك الذي نهبوه واستولوا على ثروته وتجارته ثم نفوه بعد أن حوّلوه إلى نفاية ورموا به إلى المزبلة بعيداً عن وطنه؟

ـ سفالته وجشعه أوصلاه إلى ما وصل إليه. كان كخنزير يتمرغ في وحولهم. نبرت بحنق واشمئزاز.

ـ إذا أدركت أنك على الهامش في هذا البلد الكابوسي المنخور، بلد المال والجشع والنهب المبرمج في وضح النهار، بلد الرشوة والوساطة وتبييض الأموال وتهريبها إلى الخارج، حينها ستعرفين لماذا سيستولون على بيتك حتى ولو اضطروا إلى قتلك.

تحت تأثير الخمرة بدا محتدماً. لا بد أنه فاض بما لا ينبغي الإفاضة به أمام المرأة المهدّدة والجريحة.

هو الآخر كان جريحاً بدرجة أقلّ نزفاً. وما كان قادراً على فعل شيء لإنقاذها. وفي لحظة صحو مباغتة تساءل إن كان حواره معها ومحاضرته تسويغاً لعجزه أو هرباً من المسؤولية والمصير الذي ستواجهه.

حين تضامّا وهي تكفكف عبراتها ماتت شهوة الجنس. تحوّلت إلى حالة من الحنوّ والتضامن الصامت.

مع اقتراب الفجر غادرها. هبط الدرج واستقبل الشارع. تحت ضباب الفجر لفحته موجة خزي وخذلان. غيمة سوداء: حسّ التأنيب.

شوارع المدينة وخطواته فوقها. أبنيتها. ساحاتها وفضاؤها. حلمه القديم بالهجرة إليها. المطاعم والمقاهي والحدائق. الحوانيت والمكتبات ودور السينما والملاهي والبارات. حتى البشر. تبدو الآن في الطرف المُقصى من الذاكرة. ما عاد لديه أي إحساس بالانتماء إلى هذه المدينة المضجرة والكابوسية.

المدينة التي خرجت من نفسه الآن تتماثل مع أي مدينة أخرى. صداقاته وليالي العصف المجنونة في الخمارات والبارات والمطاعم. حتى الأماسي السرّية في بيت مها القادري وبين أحضانها المشعة بالنيران والشهوة، بدأت تتلاشى.

شيء ما يتحطم في أعماقه. نيزك أو شهاب يهوي من كوكب ما ويتناثر في الفضاء أو في أعماق الأرض.

في البيت تحوّل الخلاف إلى مقت. كراهية العودة إلى المنزل العائلي. نفور من رؤية الآخر وقد صار عدوّاً لا يُحتمل. راح الصَّدع يتّسع ويتعمق. وحدهم الأولاد كانوا الضحايا في لجَّة هذا الصّدع.

من أي كوكب هبط هذا العطب!

ستكون ملعوناً إلى آخر الزمن. برقت العبارة التي قالها شبح الأب الميت منذ خمسة عشر عاماً وهو يهدم معتزله وبيت عبادته، ويحرق الخيمة في كرم الزيتون.

أتُعاقب الآن لأنك أسأت إلى الله وروح الأب في تلك الليلة الشيطانية المشؤومة!

لياليه كانت موزّعة من بيت مها إلى بانسيون إيلين إلى خمارة أبي معروف، أو الاعتكاف في المكتب والانصراف للقراءة وتوقيع البريد الروتيني.

أحياناً كان ينام على الصوفا في صالون البيت، أو في غرفة رئيف في الوقت الذي يغيب فيه صديقه مطارِداً أوهامه السياسية السرية، الأحلام التي سيقول له فيما بعد بأنها محض سراب في بقيع أجرد.

ـ أنت يا صاحبي تحرق أعصابك في بلد عصيّ على التغيير. يتحاوران.

ـ إذا بقي الناس على الحياد كما هي حالك، والمثقفون الخائبون والأنانيون يقفون في طابور الفرجة على ما يجري، كيف يحدث التغيير؟

ـ حفنة من النخبة من أمثالك وحدهم يتوهمون إمكانية تغيير الدنيا نحو الأفضل. أنت تعرف حالة الناس في هذه البلاد. أناس مدجّنون وخانعون ومذلّون. السلطة السياسية والمؤسسة الدينية عبر العصور، حوّلت البشر إلى قطيع. هؤلاء الرعايا غير قادرين على النهوض أو الصراخ في وجوه طغاتهم.

ـ والاستبداد والتجويع والنهب كيف يمكن الصمت إزاءه؟ يسأل رئيف غاضباً.

ـ حتى لو جُوّعوا ونُهبوا وضُربوا كالحيوانات فهم لا يجرؤون على النزول إلى الشارع والهتاف بـ «لا» أو كفى لهذا العهر!

يبدو رئيف مغبوناً ممتعضاً من هذه الأفكار التي سمّاها: انتهازية وسوداوية معادية لروح الشعب.

ـ إلى هذه الدرجة يصل فقدان الثقة لديك؟

- كلمة «ثقة» ليست دقيقة. أنا لم أعنِ ذلك. كما لم أقل بأن الناس منحلّون أو جبناء بالفطرة. السلطة بما هي قمع وترهيب وإذلال، وتهديد حتى بالرصاص والقتل، هي التي قتلت روح المقاومة في أعماق البشر.

واستطرد باحتدام: انظر إلى ما تفعله السلطة المتوحشة في بلاد العرب من اعتقالات وكمّ أفواه وزج في غياهب السجون وإعدام المعارضين، ثم من هو هذا الشعب الذي تتوهم وحدته وقوته الخارقة: أسَرْ حاكمة، قبائل وطوائف متعصبة ومقتتلة. عشائر متناحرة متعددة الولاءات ومنقسمة. على أنقاض هذا النزيف الأهلي، وهذا الشتات تتربع السلطة. تنهب وتثري وتتأبد. يشعل رئيف سيجارة ويزفر دخانها في فضاء الغرفة.

- أنت بهذه الرؤية السوداء تطلق النار على طائر الأمل. الثورات في العالم غيّرت مجرى التاريخ.

- الثورات الشعبية لا الانقلابات العسكرية.

- والعمل؟

- اسأل لينين وماوتسي تونغ وهوشي مينه وكاسترو وتشي غيفارا.

.

ما كان الحوار يورث خصومة. والخلاف في المواقف لا يفسِد المودة. صداقتهما كانت حميمية وعميقة.

رئيف شاهين كان يودّ لو أن هذا الهزيم، اللامبالي والفوضوي، كما يسميه، يطرد من غابات رأسه وأشجارها هذه الغربان السود التي تعكر فضاء الغابة بأصواتها الناعقة.

وحين يحتدم الحوار يفتح زجاجة بيرة ويصب قدحين. يُزاح الاشتباك السياسي الممض والكريه. ينعطف رئيف باتجاه العلاقات

في الجامعة والحب الشبيه بطائرات الورق التي كنا نطيّرها عن سطوح البيوت الريفية. حبّ سرعان ما يتهاوى مع أول هبة ريح.

سيسمّي إيفا السعدي بجوكر ورق اللعب في الحلقات الطلابية، سواء في ساحة الجامعة، أو البوفيه.

ـ إنها هناك منبثّة كالجوكر دائماً، تتحدث بثرثرة لا تنتهي، وتستمع بـإنصات مريب حين يتكلم أحد رفاقنا أو أي طالب يساري، وتحديداً في الأوقات المتوترة سياسياً، حيث يكون جو الجامعة ملتهباً ومهيأً للإضرابات أو المظاهرات والاحتجاجات لمواجهة السلطة، ولأنها عضو نشط في اتحاد الطلاب ومسؤولة إعلامية فيه كنا نتوجس منها ونتحاشاها ارتياباً.

يروي رئيف قصة أحد الأصدقاء المقربين منهم وهو وهيب سلامة، الذي حذّرنا منها لأنه يعرفها ومن أقاربها البعيدين من جهة الأم.

كان يقول عنها: هذه أفعى التبن المستترة التي تلدغك في لحظة الغفلة. وهيب هذا عشقها زمناً، وخلال شهر افترقا.

يحكي لنا بأن الأمن السياسي استدعاه بعد أسبوع من فصم العلاقة مع إيفا. حقق معه مساعد أول من الأمن واتهمه بعلاقات مشبوهة مع الشيوعيين في الجامعة. روى لنا عن المهانات والشتائم والبذاءات التي طالت أمه وأخته وسلالة الشيوعيين الأوباش عملاء موسكو وأعداء الوطن.

بعد أسبوع من التوقيف الانفرادي أطلقوا سراحه بعد أن وقع وثيقة تحرّم عليه العمل السياسي والنشاط في أوساط اليسار، والعمل مع الأمن واتحاد الطلاب.

ـ نخب الحرية في سوريا الحديثة.

غببنا من كأسينا.

ـ دعنا من هذه السِّير المُرمِضة.

ـ ما هي أحوالك في البيت؟ سألني.

هززت رأسي إلى الأعلى: فالج لا تعالجْ. طريق مسدود. وحدهم الأولاد هم الصخرة الجاثمة فوق صدري. أشعر الآن أنني أشبه سيزيف. كلما حاولت رفع الصخرة تدحرجت فوقي.

ـ ومها. هل ما زلتما تلتقيان؟

في آخر لقاء كانت تقف على حافة الهاوية. استجارت بي لأفعل شيئاً من أجلها. النعجة مطوّقة بالذئاب والصياد أعزل.

آخر ثمالة رشفتها من الكأس كانت فاترة. طعمها ما كان يختلف كثيراً عن طعم البول.

47

أمضيت أقل من أسبوع إجازة في القرية بعد زمن طويل. كنت مهدّماً. قلت: أبدّل الجو الخانق وأرتاح من ثقل هذه المدينة الضاغطة على الأعصاب، علّ طائر الروح المتعب يتنفس بعض الهواء النقي وهو يستعيد زمن طفولته القديمة. زمن الأودية والغابات ورائحة البحر، وصدر الأم التي ترمّلت باكراً بعد أن غدرها الزمن بموت الزوج، هادماً هيكل البيت الصلب.

ونحن نتضامّ بدت منحنية، هرمة بعض الشيء بعد أن بدأ الشيب يغزو شعرها الأسود، لكأن جبلاً دهمته صاعقة الأيام فانكسر.

ناحت بصوت خافت يشبه نواح اليمام الذي فقد فراخه، كان صدرها الضامر والنحيل، وهي تضمني وتشم رائحتي، دافئاً، حنوناً وعَطِراً كما في أزمنة الطفولة. في عينيها الصغيرتين الكابيتين بدا حزن العالم مكثفاً في شهقة مكتومة تشبه شهقة الروح الأخيرة.

- ردّيت لي روحي بوجودك يا حبيبي.

وحدها الآن في البيت منذ أعوام الموت وغياب ولديها. أخي بعد نيله شهادة البكالوريا عُينّ مراسلاً للريجي في أقصى جبال اللاذقية، وأنا خطفتني العسكرية منها.

قبل عامين هدمتُ جزءاً من بيت العائلة، وبنيت غرفة صغيرة من الحجر والإسمنت جوار بيتها الترابي بعد ترميمه. كانت الغرفة لي ولأخي نأوي إليها خلال عودتنا إلى القرية.

هي الآن وحيدة ومهجورة في بيتها المضيء، بعد أن طلت جدرانه بالحوّار الأبيض. بيت عابق بالنظافة والحبق ورائحة الغار الذي تقطف أغصانه الخضراء من سفوح وادي الغار تجددها كلما ذبلت الأوراق.

على الجدار الغربي، قرب الباب الخشبي، مرآة صغيرة محفورة في الحائط. قرب المرآة صورتي بالأبيض والأسود وبالطول الكامل وفي فمي سيجارة. صورة رومانسية لشاب مزهوّ تعود إلى أيام الطلبة في المعهد التربوي بحلب. قربها صورة مشتركة لجدي وأخوالي الأرجنتينيين.

كانت تقبّل صورتي يومياً، روت لي، ضارعة إلى الله أن يعيدني سالماً، ويردّني من غيابي بعد أن سرقتني الجندية منها.

في البيت الذي أسميتُه «بيت أشباح الأموات» (والذي سيخرج منه الأموات أفواجاً في الأزمنة القادمة إلى أن تنقرض سلالة العائلة وتتحول إلى غبار)، لم يبق للأم سوى دجاجتين وديك أحمر، وقطتها البيضاء المرصع ظهرها بخريطة سوداء والتي تناديها بـ «ريحانة». هذه عائلتها البديلة التي تتحدث معها وتتشاجر في أوقات عزلتها وغيابنا.

حدث الوضع الجديد بعد أن بيعت حيوانات البيت الكبير ودواجنه لإكمال تعليمنا أخي وأنا بعد موت الأب.

في الجهة الشرقية من بيتها الصغير سريرها الذي ورثته من جدّي بعد أن مات في بيتنا القديم، عقب وصوله من بوينس آيرس بشهرين مع اثنين من أخوالي. أسمته «سرير الموت».

- هنا مات جدّك محمد وعليه سأموت.

أعمدة السرير من النحاس السميك والملولب تعلوه ناموسية بلون الورد الجوري. تحت مخدتها أوراق الحبق والغار والزيزفون، وعلى الجدار قرب الوسادة علّقت فوق رأسها قرآناً مغلّفاً بقماش

أبيض مطرز. القرآن الذي نجا من حريق كرم الزيتون، عثرت عليه تحت وسادة الشيخ بعد موته.

ستسألني، ونحن نتعشى من طبخها اللذيذ المفتقَد، عن أحوال الأسرة والأولاد، وحياتنا في بلاد الشام التي تدعوها: بلاد الغربة.

- الجميع بخير. الأولاد مشتاقون لرؤيتك. في عطلة الصيف بعد إغلاق المدارس سنأتي جميعاً إلى القرية ويلتمّ الشمل.

- إلهي يبعد عنكم الشر وغوائل الدهر. تواصل دعاءها المتهدّج.

- غداً سأزور ضريح الشيخ. لو تقطعين له باقة ريحان خضراء من وادي الغار.

لؤلؤتان لمعتا في عينيها. تنهدت بصمت. ولتداري دموعها نهضت لتحضير إبريق المتة.

في المساء التالي انحدرتُ نحو المقبرة مع باقة الريحان والغار التي أحضرتها صباحاً من الوادي.

- سلّم لي عليه. قالت قبل أن أغادر.

جثوت قرب الضريح الذي تآكل جزء من صندوقه الحجري بفعل الزمن.

وأنا أضع الباقة الخضراء على سطح القبر هبّت رائحة الموت من الأوراق الخضراء ورائحة الحجر الذي لثمته تحية وخشوعاً.

كنتُ صامتاً. لم أبك. رجوته بصمت روحي كي يغفر لي. انتابتني رعشة الذكرى كلفح اللهب. ناجيته في السرّ الروحي: كنتُ أحمقاً وأعمى. وأنت كنت عمودنا الذي انكسر. جدارنا الناهض وقد انهدم. قبلك لم أكن أعرف ما هو الموت. كنت أسمع عن هذا الوحش إنما بعيداً عنا. لم أتصوّر دخوله يوماً إلى بيتنا. موتك صعقني. حوّلني إلى أبله ومجنون، رغبتُ لو أدفن معك. كنتَ والدي وحبيبي

وإلهي. والآن أنا يتيم بلا حبّ ولا ربّ. آنذاك كنت وحشاً ضارياً يصارع وحشاً آخر اغتالك. هل ستغفر لي وتمحو عني اللعنة!

كانت الإجازة مغمّة. لم أر أياً من الصحاب كما لم أسبح. فقط شاهدت البحر عن سطح البيت. حيّيته واعتذرتُ منه.

في الصباح ودَّعت الأم بعد أن وضعت لها مبلغاً من المال في مطمورتها: ملحفة المخدة. كنت مكتئباً ومشوّشاً وأنا في الطريق إلى دمشق.

48

في المكتب أخبرني مروان حاجب المكتب بأن فتاة جاءت وسألت عني. تركت رسالة خاصة، ورجتني تسليمها لك باليد.

ناولني مغلف الرسالة وخرج.

توجّست وأنا افتح المغلف الغفل من أي اسم.

مع بداية أول جملة أحسست بالطعم المرّ في حلقي. كانت أسوأ رسالة تلقيتها في حياتي. بدت الكلمات مشوّشة ومضطربة من خلال الخط والصياغة والحالة النفسية.

«اليوم اختفت أمي. أشهق وأنا أكتب إليك هذه الكلمات. الدنيا في عيني ظلام. لا أعرف كيف أشرح لك. خالي كان ينام عندنا في الطابق الثاني يوم الحادث وأنا مع أمي. فجأة سمعنا أصواتاً ثم كسر الباب الخارجي. حين هبط الخال متأخراً ليستجلي الأمر سألني وأنا أرتعش فزعاً وأبكي، عما جرى.

شرحت له بأن رجالاً ملثمين كسروا الباب واقتحموا غرفة النوم. صرخت. جرّوني إلى غرفة أخرى وأغلقوا عليّ الباب. أمي كانت تصرخ وتعول. أطلقوا الرصاص على الجدران والسقف وحطّموا الثريات وخزائن الثياب. شاهد خالي آثار الطلقات وأغلفتها الفارغة والزجاج المحطم على الأرض. كنا نرتجف من الرعب والفزع. خطفوا أمي بعد أن كمّموها وفرّوا. لا أدري إن كانوا قتلوها فيما بعد. أنا خائفة جداً. أنت صديقنا ولا نعرف أحداً يساعدنا سواك.

بعد يومين جاء رجال غرباء قبل أن ننتقل إلى بيت جدي، قالوا سنختم البيت بالشمع الأحمر. سمحوا لنا بإخراج الثياب والتلفزيون والمسجل والأشرطة وكتبي المدرسية وبعض أدوات المطبخ والصور المعلقة التي نجت من الرصاص. ما تبقى من الأثاث قالوا سيعوّض عليكم ثمنه. البيت الآن مصادر لصالح المصلحة العامة. يُمنع الاقتراب منه. ختموه، بعد خروجنا، ورحلوا. هل أناديك عمّو هزيم أم صديق الأسرة؟

أتضرع إليك أن تحاول عمل شيء لأمي. أن تخبرنا إن كانت حيّة أو ميتة. ما عدنا نفكر بالبيت بل بأمي. جدّي وخالي والعائلة يتحدثون عن عصابة محمية من الأمن هي وراء الاقتحام والخطف.

أنت سندنا في هذا الوقت الصعب. والآن نحن واقعون في ضيق شديد».

فاديا

المصائب لا تأتي فرادى بعد أن تكسرت النّصال على النصال. ما كان أمر الاستيلاء على البيت مفاجئاً. كان منتظراً لكن ليس بهذه الصورة المروّعة والوحشية.

استلقيت على السرير العسكري. جاءني الحاجب بالقهوة. قلت له: أغلق باب المكتب ولا تدع أحداً يدخل. سأنام.

وأنا أحدق في السقف وكفّاي يسندان رأسي فوق الوسادة، فكرت بالبلد الأمين، خطر في الذاكرة بيت الشعر الذي قاله كسرى عن الخليفة عمر ابن الخطّاب حين بلغه أنه ينام ملتفاً بعباءته البدوية تحت الشجرة البرية:

«أمِنت لما أقمتَ العدل بينهمُ
فنمتَ فيها قريرَ العين هانيها»

وسمعت في سماء البلد الأمين صرخته الداوية القادمة من الصحراء: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

طيّب الله ثراك يا ابن الخطاب المغدور. لو تنهض من قبرك الآن لترى هؤلاء العادلين من رعاع قومك الذين ورثوك.

التقيت برئيف شاهين خارجاً من الجامعة. سلَّمنا. رأى وجهي المربدّ والجهم: ما بك؟ لا تبدو طبيعياً.

انحدرنا على رصيف شارع التكية السليمانية ثم انعطفنا نحو ضفة نهر بردى الذي يصفّق بالرحيق السلسل «لو يرى أحمد شوقي الآن هذا البردى الموحل والمنبوذ والعابق برحيق الروائح البولية والنفايات، أما كان سيلغي هذا البيت من قصيدته وهو ينوح؟».

تحت عبق هذا المشهد المأساوي البائس رويت لرئيف ما جرى لمها.

ـ أولاد العواهر. قال بحقد.

عرَجنا على مقهى الهافانا. ونحن نشرب القهوة وندخن ناولته الرسالة. بدا الشرر يتطاير من وجهه وعينيه وهو يقرؤها.

تخيلته وهو يقذف القنابل، لا على العصابة التي خطفت مها القادري، بل على جميع مقرّات الأمن في المدينة.

ـ بلد القتلة. قال وهو يصرّ على أسنانه. ناولني الرسالة. قلت احتفظ لي بها. لو وقعت في يد الست بدور ستكون فضيحة بجلاجل. كما تعلم لو استطاعت، لا في ثيابي، بل تحت أظافري وبصلات شعري، البحث عن امرأة، لما تورّعت.

ـ والآن ماذا ستفعل؟

ـ لا شيء. أنا بين المطرقة والسندان. هي ليست قريبة ولا زوجة. علاقتنا سرّية وهي ذات ماضٍ معروف مع أحد الضباط الكبار.

ـ حقل ألغام فوق مستنقع من الخراء.

ـ أول ردّ فعل خطر لي تقديم طلب بتسريحي من الخدمة العسكرية. بدأت أشعر بالقرف والاشمئزاز. يمكن أن تقول: بالخزي من وضعي المزري واللامجدي، الحالة ما عادت تطاق.

في الخاطر، خاطرينا ربما، عبرت فكرة طلب المساعدة من أخيه العقيد في الأمن.

بدت الفكرة خرقاء ولا معقولة. مليون سؤال مغلّف بالشبهات حول الحادث سيُطرح: من هذه المرأة؟ ما قصتها؟ وما علاقتك بها؟ ولماذا تزج نفسك في مسألة مشبوهة كهذه؟

أُزيحت الفكرة جانباً: يكفيك ما أنت فيه من وضع سياسي مربك للسيد العقيد. قلت لرئيف.

مبلبلَين خرجنا من المقهى.

سرنا في تيه المدينة صامتين كأن على رأسينا الطير.

49

هتفت سامية عبد الأمير. حيّت ورغبت لو نلتقي في مقهى «الهورس شو» في الحمرا: سنتحدث بأمور المجلة بشكل عملي. هنا أصدقاء يرغبون التعرف عليك. آمل ألا تتأخر.

حين دخلت المقهى فاجأتني مجموعة من المثقفين، أعرف بعضهم، يحيطون بسامية حول طاولة مستديرة. كتاب وفنانون عراقيون ولبنانيون ومصريون.

بعد التحية تعارفنا. أشارت سامية إلى أحدهم وقالت: عارف مهدي مخرج المجلة.

بدا لي في حوالى الأربعين من العمر. لحية كاملة بين البياض والسواد. شعر رأسه المرخي والطويل يشبه الهيبيين، يدخن سيجاراً ويضع نظارة طبية على ما يبدو.

كان عارف يواصل حديثاً بدأه قبل وصولي.

وسط الكلام راح يقارن الفروق بين الدوريات والمجلات العربية والأجنبية. تحدث عن فترة وجوده في باريس ولندن، وعمله في الصحافة العربية هناك، ثم عرج على انتقاله إلى قبرص وإشرافه على إخراج بعض الدوريات الصحافية العربية المهاجرة. كان يتحدث باستعراض مهني، وثقة فنان محترف ذي خبرة.

قاطعته سامية: عفواً. عيني نحن إمكانياتنا محدودة كما تعلم. لا توجد وراءنا دولة ولا رجال أعمال يموّلوننا. غادرت العراق

هرباً من القمع والدكتاتورية. المجلة حرّة وهوامشها واسعة. الهدف الأساسي للمجلة: التنوير العقلي والحرية والإبداع والنقد الموضوعي.

ـ مجلة ثقافية منوّعة، مصوّرة؟ شهرية أم أسبوعية أم فصلية؟ سأل المخرج.

ـ مجلة ثقافية: فكرية وأدبية وفنية غير مصوّرة سوى في بعض لوحات الفن. قالت وهي تلتفت نحو جارتها الفنانة التشكيلية.

أخرجت من محفظتها عدداً من أعداد المجلة التي كانت تطبع في العراق قبل إغلاقها، وناولته للمخرج، تداوله بعده آخرون.

وأضافت: مبدئياً ستكون فصلية. وفيما بعد يمكن أن تكون شهرية. طبعاً سنعتمد على مساهمة المثقفين العرب في البلدان العربية، وخصوصاً المثقفين اللبنانيين والعرب الموجودين في بيروت.

واستطردت: الأخ أو الزميل أو الصديق. أيّها تفضل؟ قالت باسمة وهي تشير إلي: هزيم اسماعيل سيكون رئيس التحرير وأنا مديرة التحرير. أفكر بمواصلة تسميتها كما كانت تصدر في العراق: الأزمنة الجديدة. هذا الاسم يذكرنا ربما بمجلة سارتر: الأزمنة الحديثة.

حين سمتني رئيساً للتحرير اضطرب فنجان القهوة بين أصابعي. أشعلتُ سيجارة. قلت: أنا أفضل المساهمة من خلال الكتابة. ربما لا أصلح لهذا الموقع. هذا يحتاج إلى خبرة وممارسة سابقة.

ردّت سامية بحزم رجولي: بل أنت جدير. لماذا تتواضع؟ عملك استشاري معرفي وليس فنياً.

وإذ سألت المخرج عن رأيه قال ضاحكاً بفتور وحياد: أنت صاحبة المجلة ومديرتها، والقرار في النهاية لك. عملي أنا فني ومهني ليس أكثر.

قالت سامية: أنا من أنصار القرار الجماعي. العمل المشترك ذو طابع ديمقراطي.

أضافت: لدينا بعض المواد الجاهزة للنشر. وننتظر إسهامكم. سنكون على اتصال مع نخبة من المثقفين العرب للمشاركة في الكتابة.

أحد الكتاب المصريين سأل عن المكافآت والسقف الأدنى والأعلى. أجابته بأن المكافآت ليست عالية. هناك مثقفون أصدقاء سيساهمون مجاناً: بما أنني زرتُ أكثر من بلد عربي، وتعرفت على مثقفين من ألوان مختلفة، أصبح لدي خبرة بفرز الألوان: من يُدفع له ومن يساهم بلا مكافأة.

ختمتْ وهي تهم بالنهوض: الشكر لكم سلفاً وآمل أن يصدر العدد الجديد خلال شهر.

وهما في سيارتها باتجاه بيت إيفا السعدي، عاودته الشكوك حول هذا المشروع الوهمي الذي تخطط له هذه المرأة المغامرة. المرأة التي تراهن على إمكانية قيام ثقافة ديمقراطية وتنويرية في بلاد تقف على حافة حروبها الأهلية.

ـ هل مازلت متشائماً من نجاح المشروع؟ سألتْ.

ـ أعتقد أن الأوان قد فات، وربما وصلتِ متأخرة.

ـ الحياة مغامرة في جوهرها وأنا أهوى السير على الدروب الصعبة.

واستطردتْ: أنا لم أخبرك بأنني استأجرتُ شقة في منطقة الجامعة العربية.

ـ للسكن؟ سأل.

ـ للمجلة والسكن ولك غرفة خاصة فيها.

ـ هي شقة أم فندق؟

ـ بيت واسع. أربع غرف مع صالون كبير.

ـ العلِيقة قبل الحصان. قال مبتسماً.

ـ المعنى؟

ـ مثل سوري هزلي لمن يشتري كيس العلف قبل أن يشتري الحصان.

استقبلتنا إيفا ببشاشة ملغومة: هل ركب القطار على السكّة عيني؟

ـ أنت وهو من سلالة الغربان والبوم.

انهمكنا في تحضير الغداء.

ـ سيأتي رئيف. قالت إيفا.

بعد أسبوع ستسافر إيفا إلى مدريد حيث عُيّن أخوها المقدم ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية. ونحن نجهّز المائدة في الصالون رنّ الجرس. وهو يجتاز العتبة هتف رئيف ضاحكاً: مرحباً يا رجال. ردّت إيفا: أهلاً بالحريم.

هو ورئيف صبّا قدحي ويسكي قبل أن يجهز الطعام. روى هزيم وقائع ما جرى في «الهورس شو»، في الوقت الذي كانت سامية تشكو في المطبخ من سوداوية هزيم وتشاؤمه حول نجاح مشروع المجلة.

على مائدة الغداء تطاير الحديث حول المجلة وإغلاق المؤسسة حداداً على اغتيال المدير.

عرضت سامية على رئيف العمل معاً.

ـ تنامى إلي خبر استمرار المؤسسة بإدارة أخ الدكتور، وهو يرغب أن أبقى. ردّ رئيف.

إيفا بلؤمها المعتاد صاحت: أما الأستاذ هزيم فسيُخطف مخفوراً إلى مجلة الأزمنة الوهمية. بصحتكم.

رفعنا الأنخاب.

ـ سنكون حزانى على رحيل إيفا. قالت سامية.

ـ عيوني. الله عوّض عليك بالدرهم ديناراً. لغمت إيفا الجواب.

جوّ من المرح ساد حول المائدة الشهية.

السؤال الذي ظلّ غامضاً، مكتوماً أو معلقاً: ما هو العمل، أو ما هي المهمة التي ستقوم بها إيفا في إسبانيا أو باريس فيما بعد؟

50

مع رئيف وشوقي أمضينا يوماً شاقاً في إجراءات وترتيبات النقل من شقتي البائسة إلى شقة إيفا بعد أن سافرتْ. وهي تناولني المفتاح قالت: تحدثت مع صاحب العمارة حول عقد الإيجار ونقله إلى اسمك.

ونحن نودعها في المطار قالت مداعبة: هل أرسل لك الأجر الشهري من مدريد؟ لا عفواً. لقد نسيت أن سامية ستكون العرّابة والراعية في غيابي.

- لا بد من قذيفة لؤم حتى في لحظة الوداع. ردّت سامية وهي تحتضنها بحرارة: ومع ذلك سنشتاقك يا لبؤة مدريد.

قبل أسبوع انتقلت سامية إلى بيتها الواسع. بيت السكن والمجلة.

يقع البيت في الطابق الرابع من عمارة جديدة غربي مبنى الجامعة العربية.

أخبرتنا، رئيف وأنا، بأنها تفكر باستئجار ملحق أصغر للمجلة فوق الشقة، وبذلك يُفصل مقر المجلة عن بيت السكن.

- هذا أفضل. قال رئيف.

- سيكون لهزيم غرفة في الملحق. فاجأتني.

ابتسمتُ: سيكون لدي مقرات تبادلية. رئاسة أركان في الرملة البيضاء ومركز عمليات في الجامعة العربية.

ـ معاون لأبي عمّار في جمهورية الفاكهاني. جلجل رئيف ضحكته.

كنا نشرب القهوة في الصالون الفسيح المفروش بالموكيت الأخضر والأرائك الزيتية، وفي الوسط طاولة مائدة كبيرة فوقها مزهرية بيضاء بلا ورد.

توجهت سامية نحوي: لدي بعض المواد للنشر. ستأخذها معك للمراجعة والتصحيح.

قالت ذلك بنبرة من يصدر أمراً محبباً لرجل بدا كأنها تعرفه منذ زمن طويل.

لكم تبدو هذه المرأة قاسية الملامح وواثقة من نفسها وهي تتحدث، في الوقت الذي يشعّ من عينيها وميض حارّ وحنون. هي ذي تمضي في مشروعها بإصرار ووضوح. تتقدم نحو هدفها كقائد عسكري شجاع ومغامر في آن. قائد يعرف تفاصيل أرض المعركة وهو واثق من قدرة سلاحه وجنوده المؤهلين والمدربين لخوض معركة يتوهم أنه سينتصر فيها.

الليلة الأولى في بيت إيفا، بيتي الآن، بعد أن غادرت جحر الأرانب الصغير والعاري، كنت مبلبلاً رغم الشعور بالراحة والاستقرار السكني. أطفو فوق سطح بحر هادئ، يختزن في أعماقه هيجاناً غامضاً لا تدري متى يثور.

قبل النوم المتأخر، كما هي العادة، وتناول ثلاثة كؤوس ويسكي دهمني إحساس بالمدينة التي تتأرجح فوق زلزال قادم. المدينة التي أحببت والأجمل والأكثر حيادية بين المدن العربية. المدينة الشبيهة بامرأة ساحرة، وغامضة في آن، تدعوك إلى فراشها

تنام فيها ومعها، وفي الصباح تغادرك كطيف هارب، بعد أن تغرس في عظامك حنيناً وحزناً شفيفاً كالحلم لأنها ستبقى أبداً وأنت سترحل.

مدينة الصبوات والموت.

هاجس الحرب والدمار كابوس مخيّم. يتراءى شبحه وهو يطوقك والمدينة، كقنبلة موقوتة. غير أمراء الحرب لا أحد يعرف متى تنفجر.

هو التوقع الضاري. امتحانك الغامض الذي تجهل الجواب على أسئلته: ستبقى أم ترحل؟

وفي الحالتين كلتيهما: كيف ستواجه نفسك أنت غير الواثق من شيء؟ وعبر هذا الامتحان من هو الشجاع ومن الجبان؟ من الذي سيبقى ومن سيفرّ؟ وفي ظل هذه المعادلة القاسية محايد أنت أم منتمٍ؟

الضوضاء ترجّ المدينة.

اجتماعات. تحالفات وطنية لبنانية وفلسطينية.

ميليشيات ومقرات جديدة لمجموعات مسلحة تظهر كالفطور في الشطر الغربي من المدينة المنقسمة. سيارات عسكرية مكشوفة ومسلحة بالرشاشات تتحرك ليلاً ونهاراً في الشوارع.

بين وقت وآخر تسمع أصوات طلقات وانفجارات. بيانات وملصقات تحذر من المؤامرة المدعومة من إسرائيل وأميركا. زيارات سرّية إلى إسرائيل. الصحف تكتب عن مجموعات كتائبية تتدرب داخل الدولة العبرية.

إيقاعات المأتم القادم.

بعيداً عن هذا المناخ المضطرب أشرد. الأسرة والأولاد. الجرح النازف للروح.

لو أن المدينة كعهدها القديم، ما قبل النفير الحربي، والأولاد هنا. نذهب إلى شاطئ البحر المجاور للبيت. بحر الرملة البيضاء

الساحر. ننصب مظلة، نعدو فوق الرمال ونتراشق بالمياه ثم نغوص في اللّج. وإذ نجوع بعد السباحة نتناول السندويش المعدّ في البيت. في يوم آخر نصعد إلى الجبل. ونحن نعبر مدينة عاليه أروي لهم حكاية شهر العسل في فندق «وندسور» قبل ستة عشر عاماً.

بأسى وهي موشكة على البكاء تقول الصغرى: لو أمُّنا معنا الآن؟

يسألني الأكبر: بابا. كنت وأمي حبيبين فيما مضى ماالذي جرى حتى افترقتما؟

أعيا عن الجواب فأصمت.

يسرقني النعاس الأزرق.

51

احتفاءً بالعودة إلى العمل في المؤسسة، والانتقال الجديد إلى بيت إيفا، واستقرار سامية في بيتها وبين أوهام مجلتها العتيدة، طرح شوقي نصر الله فكرة قضاء يوم نزهة في متنزّه ملتقى النهرين، جنوب شرق الدامور حيث يلتقي نهرا الحاصباني والوزّاني مكونين نهراً واحداً يصب في البحر القريب.

ـ جنة صغيرة ساحرة بشجرها العملاق وموسيقى النهر والطيور. انفصلت سهواً عن جنان الله السماوية ـ يواصل شوقي مبالغاته الرومانسية ـ عالم مدهش صوّر فيه أكثر من فيلم سينمائي وتسجيلي. تحت الأشجار مساكب حجرية ومصاطب معشبة خاصة للمتنزهين القادمين من المدينة. الخدمة ذاتية. لا يوجد مطعم أو مشرب. فضاء مفتوح وبرّي. المواد كلها من المشروبات إلى الخضار والفواكه واللحوم والمكسرات وما نحتاجه ستكون معنا.

شرح شوقي باختصار تاركاً لنا تفاصيل المفاجأة.

ـ رائع. فكرة خلاّقة. عفّنّا في المدينة وأجوائها المتوترة والمحطمة للأعصاب. عقّبت.

اتفقنا على اللقاء مساء في بيتي.

ـ سنخبر سامية بالمشروع. لعلها تذهب معنا.

قال رئيف غامزاً: طبعاً. طبعاً. الجوّ بيحلوّ وبيصير أطرى. موهيك أبو الشوق؟

ـ لاحول ولا قوّة إلا بالله. ما عندك مسلّة تخيط فيها غير هذه المسلة العتيقة.

افترقنا.

مساءً اتصلت بسامية وأخبرتها بمشروع الرحلة. طارت فرحاً. سألت عن إمكانية انضمام عارف، مخرج المجلة، وصديقته الفنانة التشكيلية منى: عارف ومنى اللذين التقيت بهما في مقهى الهورس شو. أتذكر عيني؟

ـ بلى. تذكرتهما. على الرحب والسعة إذا رغبا.

سألت عما إذا كنت مشغولاً الليلة.

قلت سيأتي الصعلوكان شوقي ورئيف لنحضّر ترتيبات الرحلة وموادّها.

ـ يقولون بالسوري: حلبية. ها عيني هزيم!

ـ ولا يهمّك. نضيف حساب فاتورتك على أول راتب أتقاضاه من المجلة.

حين قدما أخبرتهما بموافقة سامية واقتراحها بانضمام مخرج المجلة وصديقته إلينا.

باختزال شرحت لهما عن لقائي بهما في الهورس شو خلال جلسة العمل في المجلة.

ـ في كثرة الحركة بركة.

ـ ليس دائماً. المهم النوعية.

ونحن نرتب جدول الرحلة ونوعية المواد والمشروبات والتفاصيل الصغيرة اللابدّ منها، فاجأنا شوقي المعادي للزواج الحميري، كما يدّعي، بأنه سيصحب معه صديقته الجديدة هدى.

ـ أهلاً. أهلاً بعدوّ الزواج، الطليق كالطير الحرّ.

صاح مدافعاً: شوبك خيّي هزيم عم تخلط الأمور. الصداقة شيء والزواج شيء آخر. أنا وهدى متفقان على الصداقة فقط. الزواج مقبرة الحب.

ـ أخيراً نطق شوقي بالحكمة. شُف يا صاحبي، المرأة الشرقية في بلادنا صداقتها بداية الطريق إلى المقبرة. محسوبك، أليعازر قام بمعجزة المسيح. الزواج هَلَكة وحماقة لم ينجُ منهما حتى يسوع الذي تزوج من المجدلية.

هرهر رئيف: دعك منه أبو الشوق. هذا إنسان معقّد من النساء والزواج. إذا استمعت إليه وكنت متزوجاً اليوم ستطلّق غداً. ومع ذلك، والأيام بيننا، أراهن إذا كان سيفلت من براثن سامية عبد الأمير.

ـ ما هو رهانك؟ سألته.

ـ عشاء في مطعم آغوب.

ـ موافق.

زاد شوقي رهاناً آخر: ورهاني مع رئيف سهرة على حسابي في بار أبو جورج بقوس قزح.

ذكّرت رئيف غامزاً: أنت تعلم أن سامية وفية لصديقتها الحميمة إيفا المدريدية.

وأنا أجهز السَلَطة في المطبخ المفتوح على الصالون صبّ رئيف ثلاثة أقداح ويسكي.

ـ يا رجل. وهي تتحدث معه كانت تلتهمه بعينيها. منذ لقائهما الأول قلت لنفسي سرّاً: أكلها صاحبنا وغير رب الأرباب لن ينجيه من فتك هذه النّمرة.

ضحكت بصوت عالٍ وأنا أسمع رئيف يهمس بالنميمة: وقلتَ

لنفسك شامتاً يا نمّام: الله لا يشفيه من هذه الوقيعة. عقبال ماتتورط قريباً يا سيد رئيف ونكون نحن شهودك.

واستطردتُ: وما أظن ذلك اليوم ببعيد.

رغم أجواء الحرب المخيمة على المدينة كنّا نحيا. كانت الحياة مستمرة بسيرورتها الطبيعية وكأن الحرب مؤجلة إلى أمد بعيد. تُنسى أو تنحّى في الأفراح والسهرات والبيع والشراء، وزحمة البشر في الشوارع، وارتياد المقاهي والبارات والمطاعم والمسابح واستمرارية العمل في المؤسسات. هؤلاء اللبنانيون عشاق الحياة والحرية. وبيروت رئة الحرية الوحيدة في بلاد العرب. ملاذ المثقفين والسياسيين يلجؤون إلى رحابها حين تضيق بهم بلدانهم القمعية. وعلى مدى الزمن كانت تنهض حيّة من حطام حروبها الأهلية والطائفية منذ أواسط القرن التاسع عشر.

في السهرة تحدثنا بإسهاب عن الانقسام المذهبي. هذا الطاعون اللاشفاء منه. علّة الحروب التي لا تنتهي.

- لبنان وطن مقسوم منذ الاستقلال الذي رسمت خريطته الطائفية الأمُّ الحنون فرنسا.

يواصل شوقي: أمراء الطوائف فيه دول وكانتونات. أُسَر وعائلات حولوه إلى مزارع لهم ولمحازبيهم وأزلامهم. أولاد القحبة يتحدثون عن الوطن وهم يعنون طوائفهم وعائلاتهم. قسم منهم مع الغرب والقسم الآخر مع العرب. حتى الآن يتصرف الغرب، وتحديداً فرنسا، وكأن لبنان محمية فرنسية يحكمها مندوب سامي كما في زمن الانتداب.

- حتى العرب المجاورون والأشقّاء يرون في هذا البلد الصغير والضعيف مزرعة أو منتجعاً أو مقراً آمناً لمخابراتهم. يقول رئيف.

- ربّ السياسة والسياسيين. دوّختونا بهذه الأسطوانة

المشروخة. خلّونا بيوم الجمعة وبين النهرين. الملتقى هنا. معنا سيارتان. سيارة سامية وسيارة عارف. الانطلاق بعد غد في الساعة العاشرة صباحاً. ثمن المواد مثالثة بيننا. الآخرون ضيوف. اتفقنا. أوضح هزيم.

52

المتنزه غابة ساحرة. على الجانبين تعلو النهرَ المتدفق أشجارُ الدلب والحور والصفصاف الباكي والجوز.

يمين النهر مصاطب مستطيلة وعريضة، مغطاة بالعشب وظلال الشجر، وعلى الأطراف تناثرت مواقد من الحجر.

هنا يخيم القادمون من المدينة ويقيمون حفلات الشواء في الهواء الطلق. في الواجهة الشرقية هضبة عالية حادّة الانحدار، مكسوّة بشجر السنديان والقطلب والعوسج والريحان، يتدفق من خاصرتها جدول ماء عذب، سيضع شوقي في خليج ساقيته الجارية نحو النهر، الخضارَ والفواكه وزجاجات المشروب لتبرد.

ما كدنا نهبط من السيارتين حتى صرخ شوقي بجنونه المعهود: هاي. هذه جنة آدم قبل هبوطه على الأرض.

ـ خلّينا من الجنان والهبل. الآن علينا توزيع المهام.

ـ حاضر أخي هزيم. أنت القائد ونحن العسكر.

ـ لا قائد ولا عسكر. نحن هاربون من وحل السياسة ورائحة العسكر. الكلّ إلى العمل. بعدها ندخل في رحاب الجنان والجنون.

واستطردتُ ونحن نضع المواد على إحدى المصاطب: اسمعوا يا جماعة. بدءاً من هذه اللحظة يُمنع منعاً باتاً الحديث في السياسة أو الحرب أو الموت أو أي كلام جدّي يورث الجهامة أو الاعتكار.

قالت سامية ضاحكة: لا فُضّ فوك. عيني، نحن الآن في فضاء البهجة والأنس. وما عدا ذلك نرميه في هذا النهر الراحل إلى البحر.

وزّعنا المهام: النساء يهيئن السلطة والتبولة والكبة النيّة. رئيف وهزيم يجهزان اللحوم والبطاطا والبصل والثوم وموقد الشواء. عارف وشوقي يجمعان الحطب ويشعلان النار ثم يفرشان الحصر والبطانيات والجرائد فوق العشب. الجلوس سيكون على الأرض. نحن الآن في برية البدو الرّحل والرعاة.

خلال ساعتين تقريباً أُنجزت المهمات جميعها عدا الشواء المؤجل حتى تتجمر النار.

الشراب الأساسي كان العرق، ثم البيرة، والكولا والسّفن آب لمن لا يشرب الكحول.

عارف تناول من سيارته زجاجة ويسكي «جوني ووكر» مع ناي مغلف بقماط حريري أزرق.

وُزّعت التبولة والسلطة والكبّة والمكسّرات في صحون بلاستيكية. الشواء ومشتقاته من البطاطا والبصل والبندورة المشوية ستوضع على صينية ألمنيوم واسعة وسط المائدة. كنا نجلس دائرياً على الحصر والبُسط كما الرعاة والصيادين في مناخ الصداقة الحميمة البعيدة عن أصداء الحرب، والمموجة مع تيار النهر وهواء الشجر وتغريد الطيور وسلام الروح.

بعد صب الكؤوس رفعنا الأنخاب عالياً: كاس الأزمنة الجديدة. صاح شوقي ضاحكاً.

بابتهاج قالت سامية: شكراً لكم سلفاً. النخب الثاني سيكون ابتهاجاً بعودتكم إلى العمل في المؤسسة.

عَبَقُ البهجة كان يخيم فوقنا. ينمو ويتموج في داخلنا مع هدير النهر واخضرار الشجر، وصوت فيروز القادم من مسجلة سيارة سامية:

«بواب العتيقة عم تلوّحلي وصوت النّهورا ينده الغيّاب. وصوات عشبابيك تنده لي: صْحاب رخْ منضَلّ نحنا صحاب».

ـ كاس الصوت الإلهي. يرفع عارف النخب.

رائحة الشواء عبقت في الفضاء. تمددت وضاعت في حنايانا الجائعة وظلال الشجر والنهر والسحر الفيروزي.

الشيف شوقي الزورباوي، يشوي ويوزع سفافيد اللحم وهو يرقص قرب النار وعلى رأسه نصف الأجلح كأس العرق المشنّن غير غافل عن معدته.

بين آونة وأخرى، بعد أن ينتشي، يعوي كالذئاب. يدوي الصدى في الغابة. تحاول هدى كبح جماحه. يطوقها. يلقمها فرمة لحم لتصمت: حبيبتي هذه برّية. والبراري بلا موسيقى العواء بتصير مدينة وسجن.

عارف وصديقته الفلسطينية يرفعان بهمس حنون نخب لقائهما الأول في باريس.

تعترض سامية: ممنوع وشوشة العشاق.

يقول هزيم: ما رأيكم بنخب صديقتنا إيفا الغائبة والحاضرة.

تبتسم سامية: اللعينة. لو كانت معنا الآن!

منى الصامتة بدت مسحورة بالمشهد الطبيعي.

علّقتْ عرضاً وبهدوء بأن السريالية والرمزية ولدتا من هذا الرحم الطبيعي الأم: ما تزال لوحات فان غوغ الطبيعية تبهجنا رغم التطور الفني الذي تجاوزه بعيداً عن الانطباعية الكلاسيكية.

عبرت ملاحظتها الذكية فوق ضباب جهلنا الفني. كنا نشرب ونأكل ونثرثر. بغتة أخرج عارف نايه من قماطه. بحنو عذب عزف لفيروز ثم لوديع الصافي: يا عصفورة النهرين. لم ينسَ عبد الوهاب: بلاش تبوسني في عينيا.

عقدنا حلقة دبكة فوضوية خلال العزف على الناي. خلطة عراقية، سورية، فلسطينية، لبنانية، سيدعوها رئيف بدبكة الأمة العربية المتعثرة.

الأكثر نشوة، بل سكراً، كان شوقي الذي أصرّ على الصعود إلى الهضبة القريبة. وإذ نَهتْهُ هدى وهزيم لأن الجبل حادّ الميلان والشجر كثيف ومليء بأشواك العوسج المؤبر.

ـ الصعود خطر وأنت ثمل. انظر إلى نفسك كيف تترنح! نهره رئيف.

ـ لا بد من مناجاة الرب في الأعالي عن جبل الطور وإلا سيحزن الله من موسى. قال وهو يرفع ذراعيه ليطير.

بغتة اختفى وراء الأشجار.

أُهمِل الأمر لوهلة. أُخِذ كمزاح ونزوة عابرة في حالة سكر.

رئيف وهزيم قررا السباحة عاريين في أعالي النهر بعيداً عن النساء والآخرين.

بعد أقل من نصف ساعة من اختفاء شوقي في دغل الهضبة، جاءنا صوته الذئبي هادراً من أعلى التلّة: الآن أنا على حافة السماء. سآتيكم بألواح الوصايا يا ملّة إسرائيل الملعونة.

ما كان مرئياً داخل الدغل. بدا الوضع هزلياً في سياق النشوة. وحدها صديقته بدت مضطربة وخائفة. اقتربت من منحدر التلّة ونادته راجية منه النزول.

ـ أني مرتاح هون يا حبيبتي. شو رأيك إرفعك لعندي كما رفع الله يسوع بعد الصلب إلى السماء!

بدا عنيداً في النزول. اقتربنا من أسفل الهضبة وتوسلناه كي يهبط لأن وقت العودة إلى المدينة قد أزف.

استحلفناه باسم الصداقة والمحبة كي ينزل. قال خائفاً: أنا ما عدت أعرف طريق العودة.

ـ كيف صعدت؟ ومن أين؟

ـ لا أدري. بدا الهلع في نبرة صوته. بغتة رأيناه ينزلق بين شجيرات الدغل نحونا.

ـ تمسّك بالجذوع والأغصان. نحن قادمون لمساعدتك. شجّعه رئيف.

بدت محاولة الصعود صعبة وشبه مستحيلة. ما كان هناك أي درب أو ممر. عوسج وأغصان متشابكة ومنزلقات صخرية.

فجأة سمعنا ارتطاماً وتدحرجاً بين الدغل. كان شوقي يهوي بعد أن فقد توازنه وخانته قواه في التعلق بأي جذع أو غصن.

صرخت هدى مولولة: دخيلكم شوقي... ما أكملت الجملة حتى هوى قربها.

هُرعنا. كان ممزق الثياب ومدمّى. حين أنّ متوجعاً حمدنا الربّ لأنه ما زال حيّاً. حاولنا إنهاضه. صرخ: آي رجلي.

ما كان بمقدوره النهوض أو السير على قدميه. جرّاء الصدمة تحطم الفخذ الأيسر والحوض. جفّفت هدى دماء الوجه والرأس المرضوض.

بيسر وهو يئن، حملناه إلى سيارة سامية. مدّدناه على المقعد الخلفي في حضن هدى.

ـ بسرعة سامية إلى المشفى. سنلحق بكم مع عارف.

صعد رئيف مع سامية إلى السيارة وانطلقوا.

الآن، ونحن حوله وهو ممدّد ومضمّد على السرير الأبيض، كان هناك رجل آخر لا يشبه شوقي.

كما كنّا لا نشبه أنفسنا مثلما كنا في نشوة الغبطة هناك.

حوّلتنا الصدمة إلى تماثيل من الصلصال الهشّ.

53

تبدو الحياة في دمشق روتينية مملّة ذات إيقاع واحد خالٍ من المعنى. وجوده فيها مع الزمن يلوح الآن بالياً كثوب عتيق هرّأه الزمن المتواتر.

الآن أو غداً سيُسرّح من الجيش. وفي أية لحظة قد يحدث الانفجار مع سيدة البيت بعد أن تبادلا، بما فيه الكفاية، ورود الكراهية، وتحوّلا إلى خصمين عصيين على الصلح.

كان يخيم على البيت شبح الفراق المؤكد: الطلاق أو الهجر.

في ذلك الزمن الرجراج، المُرمض للروح، كان البيت بمن فيه يتأرجح فوق حافة هاوية.

يدرك الأولاد الوضع المأساوي بشكله الخارجي إبان الصدامات والصراخ العالي والتراشق بالعبارات البذيئة، ثم الغياب شبه المستمر للأب عن البيت.

للتخفيف عنهم وإبعاد وطأة الشعور باحتمال الفراق، نخرج جميعاً في نزهة إلى الغوطة القريبة من البيت.

ها نحن نحيا ونمرح بعيداً عن الوجع والمرارات. نلعب ونتبارى ركضاً على العشب. أتحول بكفيّ وركبتيّ إلى قطار: هيّا ياأولاد اصعدوا القطار سينطلق الآن من الغوطة إلى الزبداني. تشك. تشك. تشك.

وفّودي الصغير المدلل يرمي أخوته عن ظهر أبيه. يحوّله إلى

حمار يمتطيه وهو يترنم: ها ياحماري ها. سبقوك الحمير. هاياحماري تاتعميك شعير.

الأم تجهز التبولة والأب يشعل النار للشواء.

سأعلم الولد الكبير، ابن الحادية عشرة، الرماية ببندقية الصيد الصغيرة. أنصب له الدريئة فوق جذع زيتونة هرمة: حجر أبيض مسطح بحجم الكفّين: هذا هو الحجل الذي سترميه. الآن ستسدّد. ركّزْ الأخمص بقوة إلى كتفك الأيمن. أساعده في التركيز. اغمض عينك اليسرى. دعِ اليمنى مفتوحة. سدّد من خط تسديد البندقية العلوي إلى الشعيرة باتجاه أعلى ومنتصف الهدف ثم أطلق. أقف وراءه متماساً بظهره لئلا يقع من قوة الصدمة.

هوذا الفتى، رجل المستقبل، يبدأ لأول مرّة إطلاق النار. جاهز الآن؟ يقول جاهز.

- نار.

يقع في حضني مع البندقية غبّ الإطلاق. تهتز الغوطة من الدويّ. يعلو الهتاف مع الضحك من الأخوة الفرحين والمفزوعين في آن. تصرخ الأم غاضبة: ألا يكفي جنونك حتى تورثه لهذا الولد البريء؟

نركض باتجاه الهدف ونتناوله.

- رائع مجّودي العظيم. أربع حبات خردق في الهدف. مزهواً يطير باتجاه أمه ومعه أخوته رافعاً طائر الحجل المصاب.

- ماما. أنا صرت مثل بابا. صيّاد ماهر. انظري أربع حبات. يعني أن الحجل وقع. ماما بإمكانك أن تطبخيه الليلة مع برغل بحمّص.

ترتج أشجار الغوطة بالضحكات الطفولية. السيدة الجليلة تهز رأسها. توجه كلامها إلى الولد الذي عُمّد الآن صياداً ماهراً: لمين بدّك تطلع؟ الولد سرّ أبيه. الحمد لله سلالة مجانين ما في برأسهم ذرّة عقل.

هوذا رجل البيت القوي القادم. أهجس في داخلي. إذ نعود إلى البيت تبقى أصداء الرحلة المبهجة محوّمة في أجواء المنزل لمدة شهر أو أقل، حتى يبدأ إلحاح الأولاد بنزهة جديدة. هكذا كنّا نغطي فاجعة الهجر، وطيفها الغرابي الأسود، بجرعات من السكينة والإجازات المؤقتة.

منذ زمن تدندن في الرأس أغنية الانتقال من دمشق إلى القرية.

في أوقات الهدنة، حين ينجلي غبار المعارك، ويصحو الجو قليلاً، يَطرح كحالة اختبار، مع السيدة بدور، مشروع بناء بيت في القرية. تعترض مبدئياً. يراوغ ويتودّد. نبرة زمن الحب القديم، المرحوم الذي دفن في الغياهب، تعود الآن.

ـ يا بنت الحلال. وجودنا في هذه المدينة مؤقت وعابر. قريباً سأسرّح من الخدمة. ماالذي يبقى لنا هنا؟ هناك أهلنا وجذورنا. مهما طال الزمن لا بد للطائر المهاجر من العودة إلى موطنه الأول.

وهو يفترّ بابتسامة ذرائعية يرشقها ببيت الشعر المعروف:

«كم منزلٍ في الأرض يألفُهُ الفتى
وحنينه أبداً لأوّل منزل»

إذ تلين نسبياً تسأل: ولكن من أين لنا المال؟

ـ تحصلين على قرض سكني من نقابة المعلمين.

تنبق غريزة اللبؤة من مكامنها: تبني لنا بيتاً قرب وديان الثعالب والضباع. تدفننا هناك ثم ترحل.

تتحسس الحالة بغريزتها الماكرة وقرون استشعارها.

لا بد أن يحني جسمه للموجة العاتية كي تعبر.

ـ دعيكِ يا امرأة من هذه التأويلات الخرقاء. أنا أتحدث جدّياً

في هذا الموضوع لصالح الأسرة والأولاد والمستقبل. ممكن فنجان قهوة لنحكي بهدوء؟

مع القهوة والسيجارة يشرح: وضعنا المادي هنا دون المتوسط. إيجارات البيوت وفواتير الكهرباء والماء والغاز والهاتف في تصاعد مستمر. في القرية الحالة ستكون أخف وطأة بكثير. ثم في النهاية نحن بحاجة إلى بيت نملكه. لو بقينا هنا خمسين عاماً لما حلمنا بملكية حجيرة بحجم قنّ دجاج.

تتطاير حججها وذرائعها: أنا في الأساس بنت مدينة وأمقت العيش في القرية. الناس هناك همج ومتخلفون. اعتدتُ حياة المدينة وأجواءها. حتى أنت ستفتقر إلى المناخ الثقافي. السينما والمسرح والمكتبات والمعارض والمجلات والجرائد. هنا كل ما نرغبه مؤمن. نبض المدينة الاجتماعي مختلف. القرية مغلقة وفقيرة. هناك لا شيء سوى المدرسة والبيت والحانوت. عدا ذلك ليس إلا الثرثرة والنميمة. رؤوس محشوّة بالتبن والضغائن الصغيرة والتافهة.

ـ المدينة على مرمى عشرة كيلومترات من القرية.

ـ عن أي مدينة تتحدث. هي مدينتي وأنا أعرفها. مجموعة قرى مهاجرة حملت معها كل التخلف الريفي وضيق الأفق. تقول هازئة.

أخيراً وبعد مماحكات ومناورات وتودّدات ليلية ملفقة وانتهازية، يصلان إلى حل وسطي. استئجار بيت مؤقت في المدينة الساحلية ريثما يتم بناء منزل الضيعة.

54

«لا نعرف شيئاً عن ماما. هل لديك أية أخبار عمّو هزيم؟ حظي سيئ لأننا لم نلتقِ».

وريقة صغيرة تركتها فاديا ابنة مها في غيابي لدى حاجب المكتب.

ما كان هناك من ضوء أو خيط أسيرعليه باتجاه الظلمة التي اختفت فيها تلك المرأة التعيسة.

وأنا في الطريق مع رئيفٍ للغداء في نادي الضباط أطلعته على الكلمة التي تركتها ابنة مها: أُحِسّ بوخز الضمير ولا أعرف سبيلاً لعونها.

ـ حدثتني سابقاً عن جاركم المحامي في محكمة الأمن القومي.

ذكّرني رئيف.

ـ آ. نوّرتني. سامي هلال جارنا وصديقنا. إنسان نبيل وشهم إنما لا أرغب في زجّه مرة أخرى في هذه القضية الموحلة.

ـ اسأله بلا إحراج. كونه صديقك سيقول لك: نعم أو لا. نوع من الاستشارة ليس إلا.

بدا لي أنه الملاذ الأوحد والأخير.

بعد الغداء مررت على مكتب المحامي. طلب قهوة. سألني عن الأحوال.

قلت بأنها تتدهور من السيئ إلى الأسوأ. شرحتُ له حالة مها المُختطفة وحال أهلها وابنتها الذين لا يعرفون إن كانت حيّة أم لا.

ـ أنت تعرف بأنها مسألة شخصية وإنسانية في آن. وأنا لاأريد إحراجك. لا أعرف كيف أشرح حالة المحاكمة الداخلية أمام محكمة ضميري. أريد استشارتك.

أشعلت سيجارة: هي امرأة بريئة. مغلوبة على أمرها. هم من خلالها استهدفوا الاستيلاء على المنزل آخر ما أورثها زوجها من تركته بعد أن سرقوه وأبعدوه.

قال: مسألة موحلة وخسيسة. كما تعلم هؤلاء أوغاد لايتورعون عن فعل أي شيء. أنا أرى أن تبقى في منأى عن هؤلاء. تكفيك متاعبك الأخرى. ومع ذلك سأحاول بطريقة غير مباشرة السؤال عن الموضوع.

ـ لا أريد زجّك في هذه الموحِلة. فقط إمكان معرفة أن كانت حيّة أم لا. بعد ذلك سأنسحب من هذه القصّة نهائياً.

ـ سأحاول.

بعد يومين أخبرني بأنها موقوفة في أحد فروع التحقيق الأمني، وهم يضغطون كي تقدم تنازلاً خطياً عن ملكية المنزل وتسلمهم صك الملكية.

أحسست بانفراج داخلي. صخرة انزاحت عن صدري. المهم حياة هذه المخلوقة ونجاتها من براثنهم وليذهب البيت إلى الجحيم. فكّرت.

في المكتب كتبت رسالة مقتضبة لفاديا أخبرها بأن أمّها ماتزال حيّة، والعصابة التي خطفتها تريد الاستيلاء على البيت.

ناولت الرسالة للحاجب العسكري: إذا جاءت تلك الفتاة مرة أخرى سلمّها هذا المغلف الموجود في درج المكتب.

55

بعد شهرين استلمتُ قرار التسريح.

ودّعت زملائي الضباط وجنود السرية. بدا المشهد مؤثراً وعاطفياً. في المساء أقام قائد الكتيبة عشاء وداعياً متواضعاً في مقر القيادة، نوّه فيه بالمناقبية العالية والسلوك المثالي لضابط مثقف وشجاع خسره الجيش، في وقت يحتاجه وأمثاله وطننا الصامد في وجه الأعداء المتربصين على الحدود.

داخل المثقف الشجاع، كان هناك شخص آخر أبله وجبان يضحك من كلمات القائد التي لا تصلح للضابط المسّرح والمهمش، هذا المقدام الذي لم يخُضْ معركة ولا واجه عدواً على امتداد خدمته الاحتياطية.

ما كان حزيناً ولا فرحاً حين أخبر الأسرة بأمر التسريح. كان نهب مشاعر مختلطة ومضطربة. إحساس بالفراغ والعري أمام المجهول. الآن ما الذي تفعله بهذه الحرية المباغتة؟

خلال أربع سنوات من الخدمة العسكرية كان محصّناً بمؤسسة الأوامر والنواهي والانضباط الصارم. في الخفاء كانت هناك جيشانات غير مرئية لمؤامرات داخلية، ونوايا انقلابات. نزوع شبقي للسلطة تحت شعارات مثالية جوفاء وخادعة، سيثبت الزمن مدى خوائها.

وفكر أنه كان محمياً داخلها، رغم السلب والعزوف الداخلي عن انتمائه إلى رحمها.

والآن هو في الخارج. بغتة هذا العراء المكشوف.

أمّنا الحانية، فكّر وهو مستلقٍ على السرير، تلك التي رعتنا وحمتنا، ولو وهماً، من الأعداء منذ ربع قرن وربما إلى الأبد وذلك حين انطلقت بقوتها الخارقة التي لا تقهر، إلى الشارع الفوضوي والديمقراطي وصرّحت ببيانها الإذاعي الأول: منذ اليوم أنا سيدة هذا العالم المتخلف والمتناحر والفوضوي. ستتحرر البلاد مرة واحدة وإلى الأبد من فوضى الأحزاب والسياسيين الأوغاد الذين يقتتلون ويتعاركون كالكلاب الشاردة.

مباركة هذه القوّة العظمى. القوّة التي تستمد شموليتها وتفويضها من الرّب الأعلى. أمّنا الحامية التي ترعانا جميعاً برحمتها وبركتها الإلهية. هي الآن تتخلى عنه. يُزاح قماطها الحميم فيشعر بالصقيع والعزلة الجوفاء. طائر مهيض الجناحين.

فكّر أن يقدّم لها هدية في عيدها الثالث والعشرين. ابتهاجاً بحروبها المتوالية وانتصاراتها. وهكذا، في حالة خارجة عن سياق الزمن العاقل، قرر إطلاق اثنتي عشرة طلقة في سقف غرفة النوم من مسدس الضابط المسرّح، الذي سيُسّلم غداً.

لا بد أنه كان في حالة ذِهانية مشوّشة، وربما عصابية وهو مُرمى خارج العالم. كان يطلق بهدوء غريب. وحدها اليد كانت ترتعش جرّاء الصدمة بين الطلقة والأخرى. كان مستلقياً على الفراش يشاهد بحيادية باردة آثار الطلقات في الزوايا والسقف الذي يُثّقب ويتقشر.

حين هُرعت أم الأولاد صائحة بفجائعية: لقد انتحر أبوكم! انهمرت والأولاد فوقه بالبكاء والصراخ:

ـ لماذا فعلت هذا يا مجنون؟

ببرود وهو يشبك كفيه تحت رأسه على الوسادة قال:

كنّا نحرّر فلسطين!

56

أربكتنا حادثة شوقي المأساوية. كنا نزوره في المشفى بعد الانتهاء من العمل ومعنا سامية وعارف ومنى أحياناً.

صديقته هدى تكاد تكون مناوبة في غرفته في النهار والقسم الأول من الليل.

ـ مدير المؤسسة زاره. تخبرنا هدى.

يقول الطبيب بأن كسر عظم الحوض شفاؤه العاجل ليس سهلاً. قد يستغرق بقاؤه في التجبير مع الساق حوالى شهرين.

في إحدى الزيارات، بعد عشرة أيام من دخوله المشفى، وشوشني همساً إن كان باستطاعتي تهريب بطحة ويسكي بعيداً عن أنظار الطبيب والممرضات: ريقي ناشف وخرمان. حبيب قلبي أنت أدرى. وربك رحْ طقْ عرشفة تبلّ الريق.

ـ وأين ستخفيها حتى لا يراها الطبيب أو الممرضة؟

ـ أجهز لها مواقع تبادلية. تحت المخدة. تحت الفراش. بين صدري وقميص النوم. أخي هون. وأشار ضاحكاً نحو مؤخرته.

ـ لكنك ممنوع من الحركة.

ـ يا أخي هاتها والباقي عليّ. هدى بدبّرها.

أومئ برأسي مفترّاً: أبشر أبو الشوق سأحاول.

ـ حبيب قلبي. أبوس عينك.

هتفتُ لسامية وأخبرتها بأنني راجعت المواد وصحّحتها.

قالت: جيّد. تعال الليلة. نفرز معاً المواد الصالحة للنشر ونسهر معاً إذا لم تكن مرتبطاً بموعد.

ـ لا. مسافة الطريق.

في الطريق إلى شقتها فكّرت بشكل مبهم بهذه المرأة. حتى الآن مازلت حيادياً معها. علاقة عمل وبداية صداقة. ما كان في سياق تفكيري أي مشروع لتطويرها باتجاه آخر.

في وجهها المشرق، رغم قساوة الملامح والإيحاء الرجولي، أطياف مودّة تُلمح في عينيها العسليتين، وعبر ابتسامتها الطفولية. تعطيك انطباعاً لا يخطئ بأنها تحب الحياة من خلال دينامية جسدها النحيل والفارع.

بعد الانتهاء من تفقد مواد المجلة وفرزها، بحركة عفوية مفاجئة أمسكت بيدي: والآن هيا بنا إلى المطبخ لنجهز العشاء.

كان المطبخ بحجم واتساع بيتي الأول. أثاثه حديث. خزائن الحائط من الألمنيوم. داخلها رتبت الصحون والكؤوس، وفي الأدراج السفلى السكاكين والشوك والملاعق. وفي الوسط طاولة بيضوية كبيرة فوقها صحون الخضار والفواكه والموالح وزجاجة ويسكي.

خلال تحضير العشاء رويتُ لها رغبة شوقي إلى الويسكي.

ـ هذا المجنون الذي حوّل فرحتنا إلى مأساة ومع ذلك لاتحرمه من رغبته.

وأردفتْ وهي تجهز البطاطا وشرائح اللحم بينما يقطع هو الخس والبندورة للسلطة: بحياتي لم ألتق رجلاً كهذا. إنسان عفوي وطلق. عاشق مهووس بالحياة.

ـ رجل حرّ من الداخل إنما فوضوي. من الصعب أن تتصوريه ماركسياً.

ـ نزعته الوجودية تذكرني بزوربا كازانتزاكي.

سألها عن أخبار إيفا.

ـ تلفنت الأسبوع الماضي. تسلم عليك وعلى رئيف. وكعادتها في الدسائس والنميمة وزرع الألغام قالت: هزيم لقطة نادرة لاتضيعيها كما ضيعت الآخرين وحياتك يا هبله.

سأل باسماً: وهي هل التقت بحياتها بعد ضياع؟

ـ رغم صداقتنا بيننا مسافة. بوصلتانا تشيران إلى اتجاهين مختلفين. قالت.

خلال تجهيز العشاء صبّت كأسي ويسكي.

شربنا نخب إيفا الدسّاسة.

ـ بعد أن ننتهي من التحضير سننتقل مع صحون العشاء والمشروب إلى طاولة الصالون. على المائدة يتشعب الحوار.

تسأله عن حياته وتجربته في الزواج.

ـ الزواج لعنة آدمية موروثة منذ بدء الخليقة على الأرض على ما يبدو لي.

يروي باختزال الخلل الذي اصطدم به باكراً. الحب الرومانسي. ولع الفتى الشهوي. قصور الأندلس التي تُبنى في الخيال. حدائق بابل المعلقة والمشيدة فوق الأراضي العذراء قرب الأنهار المضاءة بالشموس الساطعة. فضاءات ملونة تحت نجوم الليل في الفراش الدافئ داخل الجسدين الحميمين. الطيران نحو الأعالي في مهرجان المتعة. ثم بغتة السقوط الحرّ من جنة السماوات المتخيلة.

ـ هذه حكاية آدم وحوّاء في نهاية المطاف.

بحرقة تتنهد سامية. في جبهتها تنعقد غضون شجرة اجتاحها صقيع شتائي.

ـ نخب حكايتنا جميعاً.

داخل الجو الشفيف المخيم على السهرة الحميمة يوضّح: مؤسسة الزواج شيء والمرأة شيء آخر. مرة سألني رئيف شاهين عن عقدتي من المرأة والتجربة الشخصية. قلت له: أنت أحياناً

تفهمني خطأ. مرة قرأت عبارة عن المرأة تقول بأنها أقرب الكائنات إلى الكمال. إنها وسط بين الرجل والملاك. هي كوكب يستنير به الرجل ومن غيرها يبيت في الظلام. المرأة الحقيقية هي نور العالم. أصلنا الأول في الكون. أمّنا وحبيبتنا وابنتنا وأختنا، ورويت له طرفة عن زواج غوته الشاعر الألماني العظيم، حين حضر أصدقاؤه ليهنئوه بالزواج. أجابهم بكلمته الساخرة: وهل يُهنّأ الإنسان على شراء ورقة يانصيب؟

يخيم صمت. موسيقى ناعمة تنتشر في فضاء الصالون.

حتى الآن تبدو سامية كتيمة تحت أمواج من الغبن والحزن المستتر.

إذ يسألها عن زواجها ينكسر جليد الصمت. تقول بألا جديد آخر يضاف إلى ما رويت. هناك تفاصيل شخصية في أية علاقة بين رجل وامرأة. تروي نثارات عن زواجها المتأخر من رجل مثقف وسياسي. إنسان يحترم المرأة ويدين بشدّة موضوع هيمنة الذكر على الأنثى. هذا الخلل الموروث، المنصوص عليه دينياً. زوجي عاصم يرى ويأمل بأن الأجيال الجديدة، وبناء المجتمع التقدمي والثوري لا بد أن يصححا هذا الخلل لتكون المرأة في مكانها الجديرة به، جنباً إلى جنب مع الرجل في العمل والمسؤولية.

ستروي بأنهما عملا معاً بانسجام وحماسة في المشروع الصحافي والمجلة. كما كانا يعيشان، سواء في البيت أو خلال السفر خارج البلد، كصديقين حميمين: كان عاصم رجلاً محباً وحنوناً. تتوقف عن الكلام. في وجهها تلوح ظلال جهامة أسيّة. نشرب ونأكل وندخن. تعبر لحظات شرود خارج الصالون. الموسيقى تنعش السلام المعتكر.

من حي الفاكهاني تُسمع فجأة أصوات طلقات رشاشات.

تخيم على الجو ظلال توجس.

ـ هل بدأت الحرب. تسأل

ـ لا. لا أظن. الحرب تبدأ بالمدافع الثقيلة لا بالرشاشات.

واستطرد: أنا عسكري سابق وأعرف هذا. ربما كان هناك اشتباك بين الفصائل، كما هي العادة.

ـ يعيدون أزمنة حروب قبائل العرب في الجاهلية. تقول.

يعلّق: ليسوا وحدهم في هذا التصدّع والانقسام. العرب قبائل متناحرة منذ سقيفة بني ساعدة.

بعد أقل من ساعة يتوقف إطلاق النار.

رويداً يتبدد الاعتكار.

ـ دعنا نخرج من أجواء الحرب والسياسة.

يسألها عن علّة انفصالها: ما دمتما أنتِ وعاصم بهذا الانسجام والحميمية والتقارب الثقافي.

ترفع رأسها نحو السقف. تطلق تنهداً عميقاً. وهي تعود من الغياهب البعيدة تصرّح: الآن يجمعنا مناخ صداقة وثقة. سأقول لك بأنني كنت السبب في الانفصال. أنا كنت باردة جنسياً معه. هو كان على العكس ومع ذلك استوعب الحالة. بعد فترة اتفقنا أن ننام في غرفتين منفصلتين. ما كانت هناك كراهية بيننا أبداً. الصداقة العميقة والحب الروحي والثقة المتبادلة والعمل. هذا كله كان بمثابة التعويض. بعد افتراقنا وسفره إلى لندن للعمل في السلك الدبلوماسي بقينا أصدقاء. نتواصل بالهاتف. يسأل عن أحوال مشروعنا بعد أن أحاله لي تاركاً للمجلة رصيداً كافياً للاستمرار في العمل.

وأردفتْ: حين قررت الانتقال إلى بيروت سألته فوافق.

ـ الدنيا ما تزال بخير ما دام فيها رجال بهذه الشهامة والنبل. علّقتُ.

مذ طَرحَتْ مشروع التعاون معه في المقهى اتخذ بينه وبين نفسه قراراً بالعمل معها مجّاناً.

رفعنا نخب زوجها عاصم. سألتني عن العلاقة الجنسية مع زوجتي قبل الهجر.

ـ كانت طبيعية. أكثر من ذلك لعل الانسجام الجنسي بيننا هو ماأطال زمن الزواج. المسألة مختلفة عنكما. التكوين النفسي والاجتماعي كان متبايناً. غريزة الامتلاك وانعدام الثقة والأنانية كانت نامية لديها إذا لم أقل طاغية. فيما بعد انفجر الصدام المؤجل بين قطبي الحرية ونزعة التملك.

ـ والآن ما حال الأولاد؟

ـ بعد جهد وديون وتعاون الأصدقاء بنينا بيتاً في القرية قرب بيت جدة الأولاد وعمّهم.

مع تقدم الليل، وتحت ضباب الكحول، والشعور الداخلي بالثقة والأُلفة تروي سامية أموراً غريبة وصادمة عن طفولتها. تحكي عن أمّها التي ماتت بالسرطان الرئوي. كان الوالد سيئ السمعة. مقامر وسكّير ولديه نزعة غلامية. تربّت وهي ما تزال طفلة في بيت خالتها.

ـ كنت شقية. أميل إلى اللعب مع صبيان الحي أكثر من لعبي مع البنات. كانت لدي نزعة صبيانية. وهي تضحك تحكي عن الانفراد مع الصبيان في الزوايا المظلمة، وتمثيل دور العروس والعريس: قبلات وتضامّ وتماس عضوي لذيذ يرعش البدن، البنات كنّ يسمونني حَسَن صبي، لممارستي دور الذكر.

الحادثة التي تركت في أعماقها ندبة لا تنسى كانت حادثة اغتصابها وهي في سن التاسعة.

زوج خالتها حاول انتهاكها بوحشية من الخلف. كان في حالة ثمل والخالة خارج البيت. تقول: بعد أن كبرت تعمقت كراهيتي ومقتي للرجال. أي رجل أراه في الشارع كنت أتخيله وحشاً يخرج عضوه المنتصب كحيوان وهو يطرحني على الأرض ويعرّيني. حتى أحلامي كانت معتكرة ومليئة بالرعب والعري والاغتصاب.

يتشعب الحوار حول ظاهرة الانحراف والمثلية واللواط في المجتمع العراقي المكبوت.

- حتى بعد الزواج يحدث ذلك؟ يسأل.

- إي. حتى المتزوجون يقعون فريسة هذه الظاهرة الشاذّة.

- فيما أرى المجتمع العراقي لا ينفرد بذلك. المجتمع العربي والإسلامي عموماً تتجلى فيه هذه الظاهرة جرّاء الكبت والقمع الديني وتحريم الاختلاط بين الأنثى والرجل في البيت والمدرسة والشارع والعمل.

ويضيف: مجتمعاتنا إخصائية تكاد تكون.

تردّ سامية جانباً من هذه الظاهرة إلى الخلل النفسي. ما تسميه العطب الداخلي في الإنسان والطبيعة البشرية.

- حتى في الغرب الحضاري الظاهرة منتشرة رغم الحرية والثقافة والاختلاط بين الجنسين.

وتضيف بأن الانحراف أو الشذوذ جزء من الطبيعة البشرية على ما يبدو.

- في الغرب حالات استثنائية. هنا في الشرق العربي والإسلامي ثمة موروث تاريخي من زمن الخلفاء. إلى جانب الجناح الحريمي كانت هناك أجنحة لغلمان الخليفة العربي أو العثماني، كذلك للأمير والوالي.

كم بدا الحوار مفتوحاً وصريحاً في تلك الليلة.

لاحت في الجو بوادر صداقة بعيدة عن المرمى العاطفي أو الجنسي.

امرأة حرّة واثقة من نفسها. فكر بذلك وهو في الطريق إلى البيت.

57

من الأفق الغربي، جهة البحر، يبدأ البرق يعقبه رعد كالمدافع. يضع الكتاب الذي يقرؤه جانباً. منذ بداية الشتاء لم تمطر سوى مرّة أو مرتين. الأرض عطشى والمواسم والأشجار تموت بلا مطر. المطر ينعش الروح. يعيدها إلى طفولتها.

يقصف الرعد الآن المدينة ويزلزلها لكأنها القيامة.

ـ العزّة لله!

تفاجئه العبارة بعد برهة بين قصفتين. كان يرتعد تحت هذا القصف الداوي.

من أين انبثق هذا الإيمان المباغت!

يبرق في الذاكرة مشهد الأم، هناك تحت عاصفة الشتاء. كعادتها في تلك الشتاءات العنيفة كانت تقول العبارة، حين يشتد دويّ الرعد ويضيء البرق الليل فيحوّله إلى نهار.

كان يسمعها وهو صغير يرتعش خوفاً.

خشية هذا الهلع الإلهي، تبدأ الأم بتلاوة بعض الآيات والأدعية التي حفظتها شفوياً من الأب الشيخ. تراكم البخور البلدي في المجمرة على شكل هرم صغير. تشعله ثم تضعه وهي تبسمل على عتبة البيت تيمُناً وقرباناً للإله الذي سيحمينا من هذا الغضب السماوي. ترفع ذراعيها ضارعة للرب القدير أن يحمي الأولاد والأسرة من الشرور والمصائب، وأن تكون مواسم الرزق في هذا

العام مواسم خير وبركة إذ ستتفجر الينابيع من الأرض المباركة التي تسميها أم الناس جميعاً.

وهو يفكر ملياً بالعبارة يدرك بأن شجرة الموروث ما تزال أوراقها خضراء هناك في الأراضي المنخفضة والمعتمة من النفس. أنت لم تتطهر بعد كلياً على ما يبدو. وها أنت تُضبط وتتعرى في جلسة سرية حين تتزلزل الروح هلعاً من الموت والغضب الإلهي الغامض.

كان الشيخ اسماعيل ينهاك في حياته عن الشِّرك والوقوع في الغَيّ والضلال. يحبّب لك الإيمان بالله والتُقى، وضرورة القيام بواجباتك الدينية لتفوز بالجنة وتكون، يوم الحساب في الآخرة، مع المؤمنين الصالحين. لكنك بعد وفاته ستنكص وترتدّ.

تتحدث وتقرأ وتحاور حول أهمية العلم والعقل والتقدم الحضاري وضرورة إعادة النظر بالتراث على ضوء العقل. تماحك وتجادل حول التاريخ المشوّه والمزيّف، تاريخ الخلفاء والملوك والأمراء والحكّام الطغاة، في حين يُهمّش أو يُزاح تاريخ الناس والبشر الذي صنعوا التاريخ الحقيقي. وحتى تدشّن بيتك العلمي والعقلاني على أساس مادّي صلب، كما تزعم، هدمتَ المعتزل وأحرقتَ الكتب المقدّسة. الآن وأنت تحت رحمة الغضب السماوي وخوفك الراعش تصرخ لا شعورياً: العزة لله!

وفي لحظة نداء الرحمة، ورعشة الرعب والانهدام الروحي، بعد هدوء العاصفة، تتساءل: أين هي الحقيقة؟

في تلك الليلة الليلاء دهمني الكابوس: الدنيا قفر وأنا تائه في صحراء بلا شجر ولا طير ولا بشر، أصوات وحوش وهوامّ لا مرئية تصدي من الجهات العارية. أتساءل داخل الحلم: أين بندقيتي لماذا ليست معي لأواجه هذه الوحوش الهاجمة وهي تقترب مني؟ أرى قريباً مني بيتاً يشبه بيتنا الريفي. أدخل البيت. أسمع صوتاً يشبه صوت أبي: لا يوجد للبندقية طلقات.

خارج البيت، في العراء المفتوح، تهاجمني وحوش بأشكال بشرية. أسدّد باتجاهها. البندقية لا تطلق. تتحوّل إلى قصبة جوفاء. ألوّح بها مدافعاً. أتعثر بصخرة فأهوى على ظهري. أصرخ في ليل الكابوس مستنجداً. أبتاه أنا...

حين استيقظت في الفجر كان رأسي مصدّعاً ويداي مدمّاتين جرّاء الصدمة بحاجز السرير الخشبي.

58

في أعقاب التوقف عن العمل في المؤسسة حداداً على وفاة المدير، ألمح رئيف، قبل عودتنا إلى العمل، إلى فكرة مشروع دار نشر للكتب. يومها دُهشت من هذه الفكرة المغامرة والمرتجلة. أخذت الموضوع شطحة عابرة، أو هي محاولة للخروج من المأزق الذي كنا فيه آنذاك.

الآن يبدو أن الفكرة اختمرت في رأسه.

كنا على العشاء في بيتي حين فاجأني بأنه يفكر جدياً بالمشروع. سألته عن التمويل كأساس للبدء. قال بأن إيفا، قبل أن تسافر، قدمته لمدير المصرِف الذي تعمل فيه. ولأنها، على ما يبدو كانت على علاقة حميمة معه، أوصته بمساعدتي إذا اقتضى الأمر.

ـ كيف؟

ـ بالحصول من المصرف على قرض طويل الأمد في الدفع.

ـ ولكن من أين ستسدّد الأقساط؟

ـ من راتبي. ثم هناك التعويض أو المكافأة عن خدمات عملي في المؤسسة بعد الاستقالة. وأذكر أنني سألته عما هو مطلوب مني لمساعدته في حال البدء بمشروعه الفضائي ونزوله على الأرض.

قال: الاستشارة واختيار النصوص العربية الجيدة، والاتصال معاً أنت وأنا، بالكتاب والمترجمين في لبنان وخارجه. أنت لديك زملاء وأصدقاء من الكتّاب العرب في أكثر من بلد إضافة إلى مثقفي

سوريا. ضحكت وأنا أتذكر الشطر الأول من بيت الشاعر عروة ابن الورد: «أقسّم جسمي في جسوم كثيرة».

قلته لرئيف وأنا أشير بالبوصلة العضوية التي تتجه نحو ثلاث جهات: المؤسسة، مجلة سامية، ثم هذا المشروع الهوائي.

بالأمس كنا نسخر من فكرة سامية المغامرة، والآن هوذا مغامر آخر يجلي احتمال الحرب من ذهنه. يرسم مشروعه الثقافي وكأنه في لبنان قبل ربع قرن. يوم كان لبنان بلد الاستقرار والأمن والثقافة والنشر والحرية الفكرية.

من غير المعقول ألا يكون مدركاً الحالة الارتجاجية والانقسامية لبلد يقف على حافة الحرب، هجستُ سرّاً.

إذ حدس بما يجول في رأسي، قال: أنا أعرف بماذا تفكر. الحالة الأمنية مفلتة من عقالها. لكن الصدام لو حصل فلن تُحسم المعركة بين عشيّة وضحاها. كما لا أظن بأن الغلبة ستكون لهذا الفريق أو ذاك.

وأردف بعد إشعال سيجارته: أنت تعرف أن هناك أطرافاً إقليمية ودولية في المعادلة. كما لا أحد يعرف كيف ستؤول الأمور في حال دخول إسرائيل كطرف مباشر، وتحديداً مع الكتائب، لمواجهة المقاومة.

ـ طيّب. لنفترض أن ما تقوله هو احتمال ممكن. أنت لماذا تفكر بدار للنشر في بلد يصخب بنذر الحرب؟

يردّ رئيف متأففاً:

ـ ليس في رأسك سوى دوار الحرب. هل نؤجل سيرورة الحياة إلى ما بعد الحرب؟ نذهب إلى العمل ونحن نفكر بالحرب. إلى البار والمطعم ونقول: غداً الحرب؟ نلتقي مع الأصدقاء ونحكي عن

الحرب؛ حتى علاقتك الودّية مع سامية والمجلة مؤجلة إلى ما بعد الحرب. إلى الجحيم الحرب. تأتي أو لا تأتي. نريد أن نحيا الآن ولتأت الحرب اللعينة فيما بعد. أفّ. غريب أنت حقاً!

ـ حسناً. الآن كاسك وكاس الدار الموعودة.

ـ سأشرح لك يا صديقي لماذا أفكر بدار نشر. قال.

شربنا النخب.

ـ أنا لا أضمن استمرارية هذه المؤسسة إلى الأبد. الراتب محدود، وفي أي لحظة يمكن أن تنتقل إلى بلد آخر. مؤسستنا غير لبنانية كما تعلم.

وأضاف: أنت تستطيع العودة إلى سوريا أما أنا فلا. من خلال وضعي الأمني أفكر بالبقاء هنا على المدى الطويل. في هذه الحالة ماذا تفعل. تتسوّل المقاومة كالآخرين؟

خفّفتُ من احتدامه: ما رأيك لو تتزوج من لبنانية!

ابتسمنا: أين المشكلة! زواج انتهازي للحصول على الجنسية. يلعلع ضحكته الارتجاجية.

نشرب نخب الزواج النفعي القادم.

ليخرج من الزاوية التي حوصر فيها، يحوّل الموضوع. يسألني عن لقاءاتي مع سامية. أشرح له بأنه وشوقي سيخسران الرهان: المرأة إنسانة مدهشة، واثقة من نفسها. في خيالها مشروع ثقافي لاعاطفي كما تتصوّر.

أضفت: أنت لا تعلم بأنها ما تزال صديقة لزوجها السابق بعد الانفصال؛ وهما يتواصلان هاتفياً.

تعلو ضحكته متناثرة في فضاء البيت.

ـ يبدو أنك كسرت الدفّ وبطلّت الغناء بعد مها القادري.

أمتعض برِماً: ما الذي يقارب بين المرأتين؟ المسافة بين الشخصيتين مسافة الكواكب عن الأرض.

ينأى عن التفاصيل الخاصة التي باحت بها سامية حول أسرار طفولتها. حادثة الاغتصاب. البرود الجنسي. العزوف ومقت الرجال.

يفكر بأن الأذى أو الجرح المشترك بينهما يرسّخ علاقة صداقة ومودّة، أكثر منها علاقة حب. كلاهما خارجان من معركة خاسرة وآثار الجراح ما تزال تنزّ في الأعماق.

ـ اسمع رئيف. أنت وشوقي تفكران أحياناً دينياً على ما يبدو رغم فكركما اليساري الشكلي. هذا الرافد الانحرافي يمكن أن يصب في نهر حسن البنّا بعيداً عن بحر ماركس.

يسأل ممتعضاً: ها. كيف تجلّى لك هذا الاتهام الإشراقي؟

ـ الدينيون يقولون: ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما. أي دماغ إيروسي!

هازئاً يضحك: أتعرف يا عزيزي هزيم ما هي مشكلتك؟ أنت تفتقر أحياناً إلى روح الدعابة. المرأة والرجل والشيطان ليسوا خصوماً، هم من جبلّة واحدة. أخوة على الأرض وفي السرير. الأمر وما فيه أنهم يتبادلون الأدوار والمواقع. أليس هذا ما يقولهِ كتابك المفضل: التحليل النفسي؟

ولا ينتهي الجدال بينهما.

قبل مغادرة رئيف، يتناول من البراد بطحة معدنية فارغة يملؤها بالويسكي: هذه البطحة لشهيد النهرين. غداً سنزوره مع باقة ورد. نهرّب البطحة في حقيبة هدى النسائية درءاً للشك من الطبيب والممرضات.

ـ إيه. معقول؟

ـ رجاني بحرارة وقد وعدته. أخونا خرمان وعايف سماه شوقاً لقطرة كحول.

59

في غرفة ما سُمّي بمكتب المجلة، كان عارف ومنى وسامية يتداولون حول الغلاف والماكيت النهائي، وألوان لوحة الغلاف التي سترسمها منى.

قالت سامية بأنها تميل إلى غلاف هادئ ومتزن ذي لونين، قريب من الغلاف القديم. اللون الأبيض هو الغالب.

اقترحت منى أن يكون اللون الآخر بنياً فاهياً: سيكون هناك غلافان يقع الخيار على أحدهما.

الرسائل والاتصالات التي أجريت مع عدد من الكتاب العرب لإرسال مواد للمجلة لم تكن في المستوى المتوقع. وعود خلّبية واعتذارات، وأسئلة حول هوية المجلة والمكافآت.

منذ البداية كنت متوجساً، ومدركاً الأسباب الكامنة وراء ستار اللامبالاة والذرائع المبطنة للكتّاب، وحين أفصحت لسامية عن شكوكي حول استجابة المثقفين مع مجلة شبه جديدة بعد انقطاعها الطويل، واجهت فكرتي بمثاليتها النقية، وثقتها بالمثقفين الذين تعرّفت عليهم خلال أسفارها، والمؤتمرات التي دُعيت إليها في مصر وسوريا والمغرب والأردن وبلدان أخرى.

بدا حوارنا متبايناً: هؤلاء المثقفون الذين تعرفينهم وتثقين بهم يعطونك من طرف اللسان حلاوة وعسلاً فضائياً. العسل

الحقيقي يا عزيزتي يكمن في خلايا المكافآت المادية. هم في النهاية، وهذا حقّهم، يبيعون قوّة عملهم وإنتاجهم.

ـ لكن «الأزمنة الجديدة» مجلتهم في النهاية، وقد ساهموا في أعدادها القديمة. أعني بأن المجلة ساحة حرية مفتوحة إلى أبعد مدى في الإبداع والنقد الجريء.

ـ مرحبا حرية وساحات وإبداع. لكن هذه العناوين الجميلة هل تطعم خبزاً؟

واستطرد بين الجِدّ والهزل: الأفضل والمجدي، كما يقول مَثَل عاميّ دارج عندنا لمن سيسافر إلى بلاد بعيدة لمدة طويلة، أن تتزودي: بزاد ومِزواد وعليق للجواد وتسافري في كفّ الرحمن.

سألت ضاحكة: شو المعنى؟

ـ المعنى هو أن المثقفين والكتاب عموماً كالجياد. تابع مناخ الفكاهة: بحاجة إلى عليق أي علف لملء المعدة الفارغة.

واصل جوّ الدعابة: لذا يا سيدتي الكريمة أرى أن تتزودي بدفتر شيكات، وتحجزي مكاناً على بساط الريح، وتسافري بكفّ الرحمن نحو بلاد العرب الواسعة.

واستطرد متهكماً: إلا إذا كنت ستكتفين بمثقفي مقاهي أرصفة الفاكهاني والجامعة العربية.

عبست واكفهرّت.

ـ لا يوجد في رأسك سوى الإحباط. عجيب!

لتبديد عبوسها فاجأها بفكرة رئيف شاهين حول مشروع دار النشر.

الغيمة الرمادية تبددت ولاح في وجهها انشراح.

ـ مشروع هواي جيد. يمكن أن نعمل معاً. نصدر المجلة طباعة

مع كتب الدار. كما نخصص في باب النقد صفحات لنقد الكتب الصادرة عن الدار مع الإعلام عنها. شنو رأيك عيني؟

ـ مشروع دونكيشوتي متكامل. واصل المزاح.

مغتاظة عقدت حاجبيها وقالت: جدّياً أنت شخص ثقيل في لحظات المُزاح والهزء. واضح أنك غير مقتنع لا بالمجلة ولا بدار النشر وتستخفّ بهما.

واصل مناخ النكد والخفّة: الخفيف سرعان ما يطير في الريح أما الثقيل فيثبت كالصخرة في الأرض. على صخرتك تُبنى كنيستي يا بطرس. أتذكرين عبارة يسوع؟

انتقالاً من مناخ الفكاهة إلى الجدّ كان عليه أن يكرر فكرته للمرة المليون، انطلاقاً من أن أحوال البلد مضطربة تشبه قِدراً فوق النار وأي مغامرة من هذا النوع لن تثمر. هي كمن يحلم بزراعة شجرة كرز في صحراء بلا ماء. ومع ذلك، رغم عدم قناعتي قلت لك وأكرر: أنا جاهز للعمل معك ومع السيّد رئيف.

60

في منطقة الجامعة العربية، وحيّ الفاكهاني، استقرت جمهورية المقاومة الشبيهة بكومونة فوضوية.

هنا استوطنت المقاومة الفلسطينية بعد أيلول الأسود والخروج من الأردن.

في هذا المربّع الأمني المحدود، احتضنت الحركةُ الوطنية اللبنانية المقاومة، وتحالفت معها لمواجهة المشروع الكتائبي الفاشي، المتحالف مع إسرائيل، والرامي إلى إخراج الفلسطينيين من لبنان تحت ذريعة التوطين، وخلخلة التوازن الديمغرافي بين المسيحيين والمسلمين. داخل جمهورية اللجوء الفلسطيني هذه، ومن أقاصي بلاد العرب، لجأ المثقفون والسياسيون الفارّون من اضطهاد أنظمتهم إلى حمى المقاومة.

فسيفساء ملوّنة بألوان وأطياف الفصائل، المتنازعة فيما بينها، والموحّدة في وجه العدوّ المشترك. وكما تحدث اشتباكات وصدامات بين الفصائل ينعكس الوضع على مواقف هؤلاء العرب اللاجئين.

على أرصفة المقاهي المتناثرة تحتدم الحوارات بين المثقفين العرب والفلسطينيين. جدالات واتهامات حادّة حيناً، وهادئة أحياناً حول الأوضاع السياسية، والآفاق الثقافية في الشعر والرواية والقصة والمسرح والسينما والنقد والفن التشكيلي.

ماركسيون وفوضويون وتروتسكيون، عروبيون وليبراليون ووجوديون وإسلاميون.

فوضى قبائلية، تستعيد التاريخ، قديمَه وحديثه، على لوحة الشطرنج العربية. ما يجمعهم ويحميهم شجرة المقاومة التي يستظلون بفيئها.

سامية عبد الأمير ليست غريبة عن هذا المناخ. خَبِرته واحتدمت مع المثقفين في حوارات حامية، كما تحدثت خلال لقاءاتها معهم عن مشروع المجلة وضرورة مساهمة الكتابة فيها.

لديها مواقف ريبية من هذا النمط القبائلي. تقول عنه بأنه حالة من الشتات والضياع. استعراض نميمة، نفاج أجوف، حسّ مرضي بالعظمة الفردية ومحاولة نفي الآخر.

هي ترى بأن الغالبية منهم تفتقر إلى الثقافة العميقة والتجربة والموهبة.

تقسو وهي تتحدث عن الضحالة والحرمان والرؤوس الجيّاشة بجراثيم الجنس المبتذل.

ـ اللقاء مع امرأة يعني الصيد، والذهاب بالطريدة إلى الفراش.

تواصل حملتها التحليلية بنوع من المبالغة أحياناً.

ـ العقدة الذكورية، حتى بين الماركسيين والتقدميين تبدو أهم من حلم تغيير العالم بالثورة.

إذ تُدهش مما تسميه حالة مرضية، ذهانية، تسأل: كيف سيغير العالم من لم يغيّر نفسه من الداخل أولاً؟

تروي حواراً بينها وبين أحد هؤلاء الثوريين، كيف واجهته بهذا النزوع الشهوي، شبه المرضي، رغا وأزبد وصاح محتدماً: أتطلبين من الشيوعي أن يكون قدّيساً أو ملاكاً. حتى الدين يقول بأن لجسدك عليك حقاً. أين هو الخلل في كون المرأة رفيقة وعشيقة في آن؟

ويضيف مسوّغاً: الأنبياء والرسل كانوا بشراً عضويين وشهوانيين. هذا هو تكوين الطبيعة البشرية منذ بداية الخليقة.

يحتدم الجدال. هو يكتشف فيها الأنثى الذكورية كما عبّر لها صراحة. وهي تستبطن رغبته السرّية في استحواذها كامرأة حرّة، يشتهي لو تدعوه إلى شقتها ليغيرا العالم، بدءاً من تحرر الجسد، وصولاً إلى المدينة الفاضلة. مدينة أفلاطون الماركسية المطهّرة من الأدران والعقد الدينية الرادعة.

61

حين وصلت بطحة الويسكي إلى شهيد النهرين، مُناجي ربّ موسى على هضبة طور سيناء لتناول الألواح السرّية، صاح فرحاً: حبيب قلبي. أنت أروع صديق عرفته في حياتي.

ـ المهمّ أن تخرج معافى من هذه السقطة. وحده المجنون عقلياً يفعل ما فعلت. والمثل أو الشعر يقول: ليس المخاطر محموداً ولو سَلِمَ.

وأنا أشعل له سيجارة قلت: أنا مثلك، ربما، لا أخلو من لوثة إنما في حالات مختلفة.

قهقه عالياً.

أبلغته، بين المداعبة والجدّ، بأن حياته المستقبلية أصبحت مؤمّنة وفي حرز حريز. بعد أن يخرج سالماً سيكون له موقع في الأطياف المستقبلية حتى لو ترك المؤسسة أو استُغني عنه.

ـ أنا في الضائقة الآن كما ترى ولا أعرف شيئاً عن المستقبل. أخبرني ماذا هناك؟

ـ أخبار سارّة. مستقبلك مضمون فلا تخف. في الأفق اللامرئي (واصلت مزاحي) مشروعان فضائيان ينتظرانك: مجلة ثقافية لسامية عبد الأمير، ودار نشر لصاحبك رئيف شاهين. أنت حرّ في اختيارك.

بهدوء حرّك فخذه المرفوع فوق حمالة السرير، وهي داخل قالب الجبيرة البيضاء، (كانت هناك كلمات مكتوبة على الجبيرة مع تواقيع الأصدقاء تدعو له بالشفاء وسلامة العقل).

بدا مرحاً. انفرجت أساريره: حقيقي ما تقول؟ سأل.

ـ هما يخططان بجدّية على ما يبدو.

ـ وأنت ما رأيك؟

ابتسمت. بعد جرعة من بطحة الويسكي المخبأة تحت مؤخرته، طلب إشعال سيجارة (كان في حالة انفعال مبهج).

قلت بين الجد والمزاح بأنها أحلام مشاريع هوائية مغامِرة: تشبه محاولة طيرانك عن الهضبة نحو سماء النبي موسى. ضحكنا.

سألته عن أحواله الصحّية فقال بأن التحسّن بطيء والطبيب يقول بأن كسر عظم الحوض من أسوأ الكسور، وقد يولّد عاهات مزمنة، والمتقدمون في العمر لا ينجون من هذه الواقعة.

ـ تفاءل بالخير أبو الشوق. مازلت كالليث الهصور. شجّعته بنبرة تفاؤل.

ـ هي ذي هدى. لمحتها وهي مقبلة. دخلت ومعها باقة ورد، وسلة من الخيزران يبدو أن فيها ما لذّ وطاب.

حيّت. قبّلت شوقي على جبينه.

فتحت السلة وبدأت تخرج علب الطعام البلاستيكية. كباب مشوي. سلطة خضار مشكّلة. تبولة وبطاطا مقلية. فواكه وحلويات. قالت هدى بأن طعام المشفى رديء نوعياً، وشوقي بدأ يعاف الأكل المطبوخ والمخصص للمرضى.

وسألتها عن السماح بدخول الطعام من الخارج فقالت بأن أخاها طبيب في مشفى الجامعة الأميركية، ولديه أصدقاء هنا أوصاهم بشوقي.

وهي ترتب المائدة على طاولة خاصة بالمرضى وتضعها في حضنه، سألها شوقي بمودة عاتبة: حبيبتي. هيدا الأكل كيف يمكن مضغه بلا كأس عرق؟

ـ شوقي. نبرتْ غاضباً. فهمنا. تخّنتها. طلبت ويسكي ووصل.

كمان عرق! شو رأيك ننقل لك بار أبو جورج ومطعم آغوب إلى المشفى!

- حبيبي هزيم. طوّل بالك عليّ. ألا ترى. أنا في حالة ضيق. احتملوني قليلاً!

قال العبارة بانكسار وبحّة صوت تضمر شهقة نشيج. في وجهه لاح أسى وإحساس بالضعف.

استدركت قسوتي: أنا أمزح حبيبي أبو الشوق. ولا يهمّك. وحياتك لو تطلب لبن البلابل يصلك. المهم خروجك سالماً.

تقدمت من رأسه وقبلته على جبينه: سامحني يا صديقي.

خرجت تحت موجة خزي.

في الطريق عرجت على بار قوس قزح. حييت أبو جورج وطلبت كأس ويسكي مزدوج. كنت في حالة سيئة. مزيج من الغبن والندم. سألت نفسي: لماذا فعلت ذلك مع شوقي؟

طافت في الذاكرة حادثة سقوطه الرهيب وهو يتدحرج بين الأشواك والحجارة. الآن هوذا ملقى كحطام على سرير المشفى ولاأحد سوى القدر يعرف إلى ما ستؤول حاله بعد خروجه.

وأنا جالس قرب سريره أمازحه كنت أتأمل وجهه الناحل وقد بدأ الشحوب يلوح عليه، خلال شهر من الاستلقاء المنهك، والحرمان من الشمس والهواء النقي، يستنشق روائح الأدوية والضمادات والأغطية المعقمة، والسيرومات والبول والغائط اللذين يخرجهما وهو في الفراش غير قادر على الحركة إلا بمساعدة الممرضات وصديقته. شوقي الذي يشبهني في عشق البراري والغابات والأنهار والبحر يخونه الجسد وحيوية الروح الطلقة. هو الآن مأسور ومقيّد. حريته لا تتجاوز كلماته وشهواته الصغيرة حول بطحة ويسكي أو كأس عرق. ماذا لو كنت مكانه هل سأكون إلاّه في هذا السجن الكريه والحالة النفسية المنهارة؟

- معذرة شوقي. كنت فظاً. نخبك.

وجرعت آخر ما في الكأس.

قبل نهاية الدوام في المؤسسة خرجنا. قال رئيف بأنه سيمرّ على المصرف لمقابلة المدير: مساءً نلتقي وأخبرك النتيجة.

أخبرته بأن لدى سامية رغبة في التعاون مستقبلاً معه.

ـ كيف؟

ـ إصدار المجلة عن الدار.

ضحك.

ـ الأمور سابقة لأوانها. حتى الآن ما زلنا نبني قصوراً في إسبانيا، كما تزعم. فيما بعد ندخل في التفاصيل إذا...

سأل عن الوضع الصحّي لشوقي: منذ أسبوع لم أذهب إلى المشفى.

ـ متشائم والنحول بادٍ عليه. بالأمس كنت فظّاً معه. رويت له ماجرى.

اغتمّ: مزاجك لا يُحتمل أحياناً.

حوالى الساعة السادسة مساءً دوّت الانفجارات والطلقات النارية في محيط جسر الكولا غربي الجامعة العربية. كانت هناك اشتباكات، تبين فيما بعد أنها بين قوات الـ 17 التابعة لفتح، ومقاتلي الجبهة الشعبية. استمرت حتى العاشرة ليلاً إلى أن فُضّ الاشتباك بين الطرفين بتدخل الشرطة العسكرية الفلسطينية.

قتلى وجرحى بين التنظيمين. كانت الخسائر أكثر فداحة بين مقاتلي الجبهة.

صباحاً نشرت الصحف نبأ الاشتباك مع تصريح لياسر عرفات يشجب فيه الاقتتال بين الأخوة. وأن المعركة ليست هنا. ينبغي توحيد البندقية الفلسطينية لمواجهة العدو الفاشي والإسرائيلي.

ومع ذلك بقي التوتر بين الطرفين لمدة أسبوع، خفّف من حدّته دخول قيادات الحركة الوطنية اللبنانية على خط المصالحة.

هكذا كنا نحيا في حصار المدينة واضطرابها، تحت مظلّة من الفوضى والترقب والفزع والموت.

نتوهّم أننا محميون داخل الدائرة الأمنية الحصينة للمقاومة، وها هي الدائرة تتشظى وتُفتح فيها ثغرات في أكثر من نقطة.

بغضب تسأل نفسك وأنت في عزلة البيت وحصار المدينة: من أين يأتي النصر والقبائل تحترب بينما العدو على الأبواب؟

وإذ تستعيد التاريخ الدموي للعرب بدءاً من مقتل الخليفة عثمان بن عفان حتى يومنا هذا، تشعر بأن ذلك التاريخ الملطخ بالدم يواصل دورة حروبه الأهلية حتى يومنا هذا، وداخل الغصّة المريرة تدرك أن هؤلاء المقاومين أوفياء لمسيرة أجدادهم الأُول.

وتقول وأنت في ظلال اللاأمل: على أنقاض اقتتالنا الأهلي يشيّد الأعداء قلاعهم الحصينة.

63

ها أنتذا تودّع دمشق إلى القرية البعيدة، مهد الطفولة والصبا الأول.

ودمشق تلوح الآن، في الذاكرة، من أجمل وأقسى مدن العالم. على الشاشة تترى أطياف حياة مضطربة وخصبة، في زمن هو الآخر مضطرب وجيّاش. زمن المدينة الغابر، التي لن تعود إليها إلا زائراً بعد أن غاب أو غُيّب من عرفت وأحببت.

حين ستهاجر وتقسو الغربة جاثمة كالصخرة على وتين القلب، ستُقبل المدينة القاسية والحنون، ساحرة وسخيّة سخاء مها القادري في الليالي العذبة والشهية، مها التي غُيّبت في غياهب الغابة وزئير وحوشها.

تعبق المدينة برائحة الياسمين وأنت تعبر مع المرأة وابنتها في الشوارع الفرعية، تحت أشجار الصفصاف المستحي، بمحاذاة جدران الأرصفة الغبارية، حيث تتدلى شجيرات الياسمين والورد وزهر الليلكي.

وفي نوبة غيظ تصرخ إيلين حول مائدة القمار: أيّها اللئيم. حين تخدعها بفلوش البوكر. تطردك من بانسيونها أكثر من مرّة، ولكنك تعود أبداً لتناكدها ضاحكاً: التوبة إيلين العزيزة. لا غشّ بعد اليوم. تهز رأسها ساخرة: لا أمان للديب بديار الغنم.

ويسألك أبو معروف، الذي لا يحبّ الملوّنين من أي جنس

كانوا، وهو القرِف أبداً من بشاعة العالم والبشر الغلاظ، الثقيلين والثرثارين: وينك ياعم هزيم. صار لك زمان ما طلّيت. كيف البلد؟ وتردّ: زفت والحمد لله. والآتي أعظم أخي أبو معروف. وتطلب كأس ويسكي.

وأنت تدخّن تتموج مع خيوط الدخان ظلالُ مدينة مضطربة بالدسائس، والمؤامرات السياسية. تشمّ روائح الانقلابات العسكرية القادمة ودوريات الأمن. يطوف بك الزمان القديم. الزمن الموّار بالأمل المشعّ في رأس الفتى الجامح وهو يرى الآن زمن الوحل والدم: ما فائدة الندم أيها المهمّش. لقد تمّت الخديعة وانتهى زمانك، زمان الحماسة والأمل والنجوم المضيئة.

ومن عمق الصحراء يأتيك صوت الشاعر الحزين:

«تـودّع مـن شـمـيـمِ عَـرار نـجـدٍ
فـمـا بـعـد الـعـشـيّـة مـن عَـرار»

وتسأل وأنت في الخارج الآن: لماذا هذا ليس زمني وتاريخي؟ ولماذا ما عادت هذه المدينة مدينتي؟ وأنت المنبوذ المنفي تتذكر صحراء ربذة جدّك أبي ذر الغفاري الذي نفاه عثمان وقال له معاوية: بعد هزيمتكم في صفّين أدبرَ زمان الأنبياء وسلالتهم وجاءنا المُلك العَضوض الذي سنعضّ عليه بالنواجذ.

وفي المحنة تستجير بك مها القادري: ألا تستطيع أن تفعل لي شيئاً؟ فيقول: لا. أنا أشبه الآن بردى الموحل في هذا الوقت الضيّق. لا أحد هنا أو هناك ينقذ الغريق المغطّى بالأوساخ والروائح الزنخة.

وتنشد لنفسك المغادِرة مقاطع من قصيدة كافافي شاعر الإسكندرية اليوناني:

«سوف أرحلُ إلى بلاد أخرى
إلى بحار أخرى

إلى مدينة أجمل من مدينتي هذه.
آه كم من السنين أمضيتها هنا
أنفِقُ ما لديّ وأتلفُه
ولا أفوزُ بشيء.
لا أرضٌ جديدة يا صديقي هناك
ولا بحرٌ جديد، فالمدينة ستتبعكَ
وفي الشوارع ستهيمُ إلى الأبد،
وفي ضواحي الروح نفسها
ستنزلقُ من الشباب إلى الشيخوخة.
وفي البيت نفسه
سوف تشيبُ وتموت.
وأنتَ حين دمّرت حياتك في هذا المكان
فقد دمّرت قيمة حياتك في كل مكان آخر
على وجه الأرض».

64

جوّ من الثقة بدأ ينمو بينه وبين سامية من خلال العمل في شؤون المجلة، واللقاءات شبه الأسبوعية في بيتها أو في شقته الصغيرة.

أحياناً كانا يرحلان في نزهات نهارية أو مسائية إلى شاطئ الرميلة أو الدامور بعيداً عن العاصمة، وفي أحايين يصعدان إلى الجبل: عالية أو بحمدون. في إحدى الرحلات حكى لها عن شهر العسل في عاليه، الشهر الذي اخُتزل في ثلاثة أيام سعيدة وساحرة تشبه الحلم.

وفي المقهى أو المطعم الذي يؤمانه كانت الحوارات تتشعب بعيدة، في غالب الأوقات، عن السياسة أو الثقافة. وفي زوايا الصمت بدا وكأن كلاً منهما يحاول سبر الآخر ومعرفته من الداخل.

ذات غسق من تلك الأغساق الصيفية في مقهى الوادي الأخضر ببحمدون المطل على غابات الصنوبر والأرز، سألته إن كانت له عشيقة خلال الزواج، فأجاب بلا مواربة عن المرأة التي اعتقلوها اقتصادياً، لا سياسياً ولا عاطفياً، لكنه لم يدخل في تفاصيل العلاقة. ما كان الأمر يعنيها.

وبدأت تقترب أكثر من الهدف الذي تنوي الوصول إليه، فسألته عن توقه إلى امرأة بعد تلك السنوات من الهجر والحرمان. فقال بأن

أي رجل يتوق ويرغب لكن الملسوع مثلي يظل حذِراً كذئب تلقى طلقة جرحته لكنها لم تقتله.

ضحكنا.

هي أدركت المكر في الجواب، وهو اشتمّ رائحة المراوغة في السؤال.

وطاف الحوار حول إيفا فقال بأن علاقتهما كانت محض صداقة عابرة مشوبة بالتوجّس.

وسألته عن السبب فأوضح بأنها امرأة غامضة، علاقاتها تشبه شجرة اللبلاب التي تتسلق أول جذع يعترضها.

- أتشكّ فيها أمنياً؟ سألت بريبة.

- الجواب لديكِ. أنت صديقتها وعشتما معاً في بيت واحد.

- ربما لم تكن بريئة. قالت بين الشك واليقين. وروت بأن لديها علاقات متشعبة مع ضباط سوريين وبعض كوادر المقاومة، إضافة إلى رجال أعمال وشخصيات لبنانية ذات نفوذ سياسي ومالي. حين كانوا يزورونها أخرج من البيت.

وسألها إن كانت تشير إلى هؤلاء مراوغة أو نفياً، فكانت تقول بأنهم أصدقاء ومعارف تعرّفتْ عليهم من خلال علاقات زوجها الثاني، اللبناني الجنسية.

وفي مناسبات أخرى كانت تعود إلى شخصية إيفا وتلمح إلى الطبيعتين المتباينتين بينهما. طبيعة إيفا المستبدة والمزاجية والملولة بسرعة.

- أعتقد أنها إنسانة ذرائعية. علاقتها بالآخر نفعية ومادية.

واستطردت لتكون عادلة: لكن هذا لا ينفي طيبتها ومودتها. قلبها أبيض كالثلج. في ظنّي هي طفلة تعيسة، شوّه روحها المضيئة

ظلّ أسود. ظل رجل سافل ووغد، عالمه المال والنساء والمغامرات والزلفى للسلطة والأمن.

أذكر يومذاك أننا كنّا نشرب القهوة بعد الغداء في مطعم «دبيبو» المطل على صخرة الروشة. أمامنا البحر الساجي، وطيور النورس الخافقة بأجنحتها الرمادية عبر أشعة الشمس فوق حقول البحر.

وأضافت سامية بأن ذلك الرجل السامّ ربما ورّطها في وحل الأمن، إن كانت متورطة.

وقال بأن رئيف، والعهدة على الراوي، ألمح إلى الشبهة حولها إبان المرحلة الجامعية في دمشق، قبل الزواج الأول.

ـ هذا أعرفه الآن لأول مرة. ما أعتقده أنها لم تحاول إيذاءكما، إن صحّ أنها متعاونة مع الأمن. وحاولت الدخول في تحليل لشخصية إيفا المنقسمة: الوجه البريء والوجه الملوّث.

ـ في ظني أنها كانت ترى فيكما وجهها الأول. جوهرها النقي. يخيل إلي أن في أعماقها حجراً مضيئاً وآخر معتماً.

واستطردت: تبدو لي منقسمة على نفسها. شقّ في الظلّ المضيء والآخر في العتم. هل هذا يوجز انشطارها الروحي بين الملاك والشيطان؟ لا أدري.

65

وهو يخبرني بموافقة مدير المصرف على تسليفه قرضاً بنصف مليون ليرة بكفالة، كان البِشر يطفح في وجه رئيف.

عليه الآن تقديم طلب إلى وزارة الإعلام للموافقة على تأسيس الدار.

- ماذا سنسميها؟ سألني.

- الخيار لك.

- أنت معجب بالعقل الرشدي. ما رأيك باسم ابن رشد شيخ العقلانيين في الأندلس؟

- نِعم الإسم. إنما العبرة في الإنجاز والانطلاق.

- يا أخي. منذ الآن أنت مستشار الدار الثقافي وعلى عاتقك نهوضها ونجاحها أو العكس.

باسماً قلت: وعلى بركة الله فليتوكّل المتوكلٌون.

جلجل الضحكة المدوّية ماسحاً جلحته السمراء: سبحان من أنطقك بالحق. بانت حقيقتك أخيراً. ضحكت. وبين الجد والهزل قلت: اسمعْ. أنت تعرف بأنني سليل عائلة مؤمنة جذورها ضاربة في خلاياي ولعلني لم أتطهر بعد. ربما كنت مشدوداً على حبل فوق هاوية الإيمان والعقل ولا أدري إن كنت سأهوي أم أنجو.

في أعماقي كنت محبوراً بمشروعه التنويري، مصمماً على

الانخراط معه والأخذ بيده، رغم غراب الشؤم الذي يحوّم في رأسي من هذه المغامرة المتعثرة.

لعلني كنت أفكر في بُعد آخر، وأن هذا المشروع سينأى به عن السياسة وحرائقها وما جرّت عليه من ويلات.

انطلاقاً من هذا المنظور أوجزت رأيي حول ضرورة التركيز على المنحى الثقافي ـ التنويري والحداثي، بعيداً عن الإيديولوجيا البائسة والمستهلكة.

وأذكر أننا تحدثنا عن أهمية الترجمة والتركيز عليها. وضرورة الانتباه إلى العالم الثالث وأميركا اللاتينية والآداب الآسيوية.

ـ هذه الآداب أكثر قرباً منا في همومها ومشكلاتها وإنسانها وأساطيرها وكفاحها. إنها أقرب إلينا من الآداب الأوروبية والأميركية.

وقال: لكن الفكر الإنساني والأدب يصبان في مجرى واحد: المعاناة والصراع ضد الوحش الكامن داخل الإنسان والمجتمع. الزنوج في أمريكا يكافحون ضد العنصرية والتمييز والتهميش. وفي إسبانيا الأوروبية أدب وروايات ساحرة ومدهشة، كذلك في اليونان وإيطاليا.

ـ لم أعنِ الإقصاء إنما الاهتمام المركّز على آداب وفنون العالم الثالث الحديثة. أوروبا وأميركا الشمالية تكاد تكون استنفدت الروح الحيوية للإنسان هبوطاً باتجاه المادة والجنس الفظ وعوالم المافيا والمخدرات.

هكذا كنا نرسم أفقاً أولياً واحتمالياً لمستقبل الدار الموعودة.

66

وفي الظن الداخلي، ربما تحت اللاشعور، كان هناك رجل وامرأة ينسجان بصمت مؤامرة حبّ سرية، عذبة ومرتجلة في الزمان والمكان غير المناسبين. سيدركان أنهما كانا في الضفة المستحيلة العبور.

رجل وامرأة لعلهما التقيا مصادفة على رصيف المحطة بعد رحيل قطار الحب، هما كانا في الوقت الضيّق والمكان الضيق، حين كان الحصار محكماً من الجهات كلها: جهات الروح التائهة، وجهات المدينة.

هو الذي أحرق سفنه وقال للرياح كوني جيادي إلى حيث لامستقر.

وهي التي ستقول في لحظة البوح والمباغتة: أنا مثلية. أنتشي بالمداعبة الخارجية.

لعلهما كانا في الثمل أو الحلم، ومحاولة التماسّ العضوي، آن روت عن علاقتها مع صديقتها زهرة في بيت الطالبات الجامعيات ببغداد.

في الهزيع المتأخر من الليل كان يسمعها بهدوء. وما بدا له الأمر مستهجناً أو صادماً.

هي كانت تروي عن النشوة الجميلة والعذبة.

امرأة وأخرى عاريتان في فراش واحد يزيحان الآخر - الرجل.

إحداهما تتقمصه أو تخصيه والأخرى المرأة المستلقية وهي تستقبل المداعبة بنشوة. معاً يدخلان أوج الحبور والمتعة واللذة وهما توغلان في المسامّ الحميمة لذرات الجسد، نحو الطرف الأقصى للاكتمال والتواشج؛ بعيداً عن المواصفات الأخلاقية السائدة، كما تروي سامية المنتشية والطليقة، وهي تستعيد الحادثة وتيار الزمن الماضي. زمان حبّها.

في تلك البرهة ربما كان يحاول تطويقها أو مداعبتها وتقبيلها.

آنها نَفَرت: نحن لن ننام معاً.

تحت حسّ الخذلان، انسحبت رؤوس أنامله عن حوافّ حلمتيها الضامرتين.

- لنكن أصدقاء.

هكذا أوصدت الباب بين الجسدين.

حين استيقظ من حلم اليقظة الليلي وجد نفسه نائماً في الغرفة التي خصصتها له في شقة المجلة.

- يا كسول أنا أهيئ القهوة. نادته من المطبخ.

سيتناولان القهوة على الشرفة الغربية، وتحتهما ضوضاء المدينة التي استيقظت قبلهما.

بدت سامية منشرحة. سألت: هل نمت جيداً؟

- كالقتيل.

أي منهما لم يسترجع ذكرى الليلة الفائتة. لكأن الحادث والبوح ما كانا، أو طويا سرّاً كصفحة من كتاب قديم، مهمل، روائح حروفه كرائحة وردة ذبلت واختفى أريجها في الأثير.

ما كان الأمر يستحق الإعادة أو التأمل العميق بين رجل وامرأة يفهمان معنى الحرية وخياراتها الفردية، كما يدركان التركيب النفسي للطبيعة البشرية في بعديها السلبي والإيجابي. وبدا التفكير بالمنحى الأخلاقي نافراً وبلا مغزى سوى في المرمى الديني والاجتماعي السائد الذي يحدّد مسار ما هو سويّ ومنحرف.

وإذ سألت إن كنا سنبقى أصدقاء، أجاب مبتسماً: بالتأكيد.

ولينأى بها عما حدث بالأمس ويزيحه، أخبرها بأن رئيف سيحصل على قرض من المصرف، لكنه بحاجة إلى كفيل يضمن للبنك حقوقه القانونية في حال التأخر عن دفع الأقساط.

وبأريحية فاجأته بأنها على استعداد لأن تكفله من خلال رصيدها المالي في المصرف إياه.

وسألت عن رأي رئيف في العمل المشترك بين المجلة والدار، فقال بأن الأمر متروك لبداية التنفيذ.

- أتذكرين المثل القائل: لا تشتر المعلف قبل الفرس. دعي الأمر لي. أنا المستشار الثقافي للدار كما اقترح رئيف.

وسألته عَرضاً عن وضعه المادي، وإمكانية تسليفه مبلغاً فقال: لست محتاجاً الآن ولو احتجتُ سأطلب.

- ولكن عليك مساعدة الأسرة وراتبك لا يكفي.

- أرسل لهم نصف راتبي الشهري. أنا أعيش بالحدّ الأدنى والضروري. الأم مدرِّسة وفي القرية المصاريف محدودة.

وسألت عن الاتصالات والرسائل بينه وبين الأسرة.

- غير منقطعة. الأصدقاء القادمون من البلد يزودونني بالأخبار. كما تعلمين الأولاد يشتاقون الأب الغائب. في غيابه هم كشجرة بجذعين انشقّ جذعها الأقوى.

وروى لها عن رسالة وصلته منذ أسبوع. رسالة عتاب من الابن الأكبر على هامشها علق أخوته بكلمات اشتياق وحنان طوقوها برسوم طفولية لي ولهم، داخلها أزهار ذابلة من حديقة البيت ومع الرسالة صورهم الجميلة وهم يشمون ورود الدار، وتحت الصور كتبوا: هذه رائحتك يا بابا البعيد. نحن بانتظارك.

ـ لقد كبروا في الغياب. لا أكتمك أنني أنتحبتُ بحرقة. أي ظلم بل أي لؤم أن يحيا الأطفال بلا أب! ومن المسؤول عن هذه المأساة؟ وكم من الكراهية ستترسخ في أعماقهم البريئة! عبرتني موجة تأنيب. إحساس بالطعم المرّ. لقد تخليت عنهم وأنا أغادر كما عبّر الابن في الرسالة.

وفي مقلتيه شرق بالدمع. شهق. كم كان قاسياً وأنانياً وجانياً.

ـ خلال لحظة ضعف وانخذال فكرت بالعودة لأطلب غفرانهم. أضمّد الجراح القديمة وأرمّم الخراب. كنت أفكر بالأم الوحيدة والمهجورة في بلدة جاهلة ينهشها فيها الحاقدون والشامتون والأدنياء. يشيرون إليها ويسِمونها بالأرملة التي لا زوج لها. ولايتورعون عن نعتها، سرّاً أو علناً بالبغي.

في وجه سامية لاحت إمارات التأثر والكمد، وفي لحظة إشراق مفعمة بالإنسانية قالت بأنها مستعدة للسفر لمقابلة الأسرة ومواساة الأولاد وطمأنتهم، وإذا ما وافقت الأم فهي على استعداد لاصطحابهم بسيارتها إلى لبنان.

عانقها، وهو يشهق: لكم أنت نبيلة يا صديقتي!

وقالت: أنا جادّة هزيم. بصدق.

وليخرجا من هذا المناخ المأتمي قال مازحاً: لكنك قد لاتعودين.

دُهشتْ: لماذا؟

ـ لأن السيدة، الأم ـ اللبؤة لن تتخلى عن أولادها. ستكونين الضحيّة ـ العشيقة القادمة لخطف الأطفال منها.

ـ محال!

وطوى صفحة المرارة.

ـ دعيك من هذه الفكرة النبيلة والخطرة وفكري بالسفر إلى مصر والمغرب للاتصال بالمثقفين وضرورة التعاون معهم وإسهامهم في المجلة.

قالت بأنها تدرس الموضوع ولم تقرر بعد رغم صوابية الفكرة.

وأنا أغادر قلت: غداً أو بعد غد نلتقي معاً برئيف في بيتي ونتحدث حول إجراءات الكفالة والتعاون المشترك.

67

في المكتب زففتُ لرئيف بشارة استعداد سامية للكفالة. طار عقله فرحاً.

ـ من الآن فصاعداً سيتغير اسمك من هزيم إلى نصر. الغداء على حسابي في مطعم صاحبنا آغوب.

رشاني أو كافأني، لا فرق.

ـ وفي طريقنا نعرّج للاطمئنان على شوقي. اقترح.

ـ ما رأيك أن نفاجئه بنصّية ويسكي مع المارلبورو، دخانه المفضل؟

ـ فكرة خلاّقة.

دخل إلى المكتب مديرنا الجديد، المزهوّ بأناقته، والمميز بتواضعه الجمّ، ورشاقة لسانه التي تقتضيها العلاقات العامة والذرائعية. بعد أن حيّا سأل عن أحوال شوقي الصحّية.

وضّحت له حالته غير المطمئنة، وأنه مكتئب وخائف من التشوّه الدائم.

توجه إلي: إذا مررت عليه قريباً أخي هزيم بلّغه سلامي وخذْ له راتبه من المحاسب. واستطرد: أخبره أن راتبه لن يُقطع وستحاول المؤسسة مساعدته في كلفة العلاج.

قبل أن يخرج سأل رئيف وهو يبتسم عن شائعة تأسيس دار للنشر.

ـ من أخبرك. سأله رئيف.

ضاحكاً قال: كل سرّ جاوز الإثنين شاع. نحن هنا أسرة واحدة ولا أسرار. على أية حال سأكون سعيداً بهذه الفكرة ونحن جاهزون للمؤازرة. مبروك سلفاً.

ـ شكراً. بوركت. ردّ رئيف.

بعد خروجه سألني بنوع من الريبة إن كنت صدّقته. قلت بأن ذوقه وحس المجاملة والتهذيب يمليان عليه هذا الموقف: لو كنتَ مكانه كيف تتصرف سوى على هذا النحو. هل تتصور أن هناك منافسة؟

رجّ ضحكته: بالطبع لا. إذا قامت الدار ستحتاج إلى عشرات الأعوام لتصل إلى مستوى المؤسسة.

حين لاحت نصّية الويسكي صرخ شوقي: الله. الله. رُدّت الروح إلى المضنى. استعاد حيويته. وصل صدى ضحكته إلى ملتقى النهرين.

ـ هذه هدية رئيف، مديرنا ورئيس دار ابن رشد.

قلت وأنا أناوله مغلفاً: وهذا راتبك.

أخبرناه عن استمرار الراتب ما دام في المشفى وقرار المؤسسة المشاركة في كلفة العلاج، مع تحيات المدير.

ـ أنا لا أعرف كيف أكافئكما أيها العزيزان. قال العبارة ببحّة ممزوجة بالحزن والفرح.

من كرتونة المارلبورو تناولت علبة. أشعلت له سيجارة: اسمع أبو الشوق. عليك أن تكون متفائلاً. في طريقنا إليك عرجنا على غرفة طبيبك وسألناه عن حالتك فقال بأن الوضع يسير نحو الأفضل. بُنية صديقكم متينة. إنما يحتاج إلى إبعاد اليأس وشجاعة التفاؤل.

وقال رئيف مشجّعاً: الروح المعنوية هي الأساس في هذه الحالة.

وبمرارة قال: ولكن كما تريان أنا مقيّد كحيوان إلى هذا السرير. أبول وأتغوّط في الزحّافة كما الأطفال. هذا وضع غير بشري.

ـ وقال الطبيب بأن من الممكن أن يبدأ تدريبك على المشي في الأسبوع القادم.

ـ أكيد؟ سأل بلهفة.

ـ قريباً ستخرج معافى. وسنحتفل بك في بار أبو جورج وفي حضنك أشهى غانية من عاهراتك الحزينات على غيابك.

ارتجت الغرفة بالضحك.

68

في وجه آغوب مرح دائم وتحت شاربيه البنيين المصبوغين، وفي بريق عينيه ابتسامة جاهزة إذ يلِج المطعم أحد الزُّبن المداومين.

ـ أهلاً وسهلاً. حظكما اليوم بيكون واقع كنجمة من السما.

ـ خيراً! سأله رئيف.

ـ أكلة أرمنية هي الآن في الفرن. بتكون أحلى مفاجأة ياخبيبي. هلاّ بيدوق. آغوب أهم من أعظم طبّاخ في العالم.

جاءنا بالمقبلات والتبولة مع صحن بطاطا مقلية، وزبدية صغيرة من هريسة فليفلة حمراء ممزوجة بزيت الزيتون، مع قليل من النقانق.

ـ الأكلة الأرمنية بعدين. شو نوع المشروب؟

والتفت إلى رئيف: أنت بيسمع مني؟ عندي زجاجة نبيذ معتّق هصوصي. وصلتني من يريفان عاصمتنا الأرمنية. شو بيكون رأيك؟

ـ هاتها.

أحضر قنينة النبيذ. صبّ لكل منا جرعة للتذوق. كان الطعم كالعسل الحارق قليلاً.

ـ ها. كيف بيكون طعم النبيذ الوطني؟

ـ نبيذ أرمني ساحر. رفع رئيف إبهامه إشارة إعجاب.

ما كان أي منا ذاق في حياته أعذب من هذا النبيذ الشهدي. كنا ونحن نشرب واقعين تحت سحر هذا الاستيهام الأرمني اليبرفاني.

بعد ما يقارب نصف الساعة أحضر آغوب صينية وهجُ بخارها الحريف عبق في الجوّ.

مزيج من اللحم المحمّر والسجق وشرائح الكوسا والبطاطا والبصل والفليفلة الخضراء والتوم والزعتر البّري وورق الغار، هذا الخليط الشهي غُمر بصلصة بندورة وزيت الزيتون.

كان آغوب يتجول بين الطاولات المحشورة في حيّز المطعم الضيّق يلبي طلبات زبُنه.

بدأنا نأكل بشراهة حيوانية حين اقترب آغوب وسأل عن الوليمة الأرمنية.

قال رئيف ضاحكاً: أكلة قاتولية يا آغوب. أظن أننا سنحتاج بعدها إلى طبيب أرمني مهاجر من يريفان.

ضحك آغوب: بيكون مطمئن خبيبي رئيف سأرسلكما إلى مشفى في برج حمّود موطن قبيلتنا المهاجرة.

مساءً حوالى العاشرة اندلعت الحرب.

بدأت تقلصات الأمعاء والجيشانات المعِدية مع الإقياء والإسهالات والتعرق والألم اللايطاق.

وأنا داخل المعركة الأرمنية المشتعلة في الجوف الملتهب كنت أشتُمُ وألعن جذور ما تبقى من الأرمن بعد المجزرة التركية، وتحت هذا الجيشان الوحشي المندلع في الأحشاء تمنيت لو أن الأتراك أجهزوا على سلالة آغوب وأبادوا آخر طبّاخ فيهم.

69

المدينة والبشر داخلها يعيشون تحت ضغط وتوتر الانفجار المتوقع. في فضاء بيروت قنبلة معلقة بخيط واهٍ قد ينقطع في أية لحظة.

الآن يبدو واضحاً وقوع المدينة تحت سيطرة المسلحين الذين يجوبون الشوارع عبر سياراتهم العسكرية المكشوفة وراء رشاشاتهم. مظاهر مباهاة واستعراض تلوح من خلال وضع صواريخ «ب. سفن»، و«آر. بي. ج»، على الأكتاف وكأن العدو تحت المرمى الآن.

تتواتر الأنباء عن خطف وخطف مضاد بين الطرفين. تعذيب في الأقبية السرية. استجوابات وتصفيات جسدية. نشاط سرّي ولقاءات على أعلى المستويات بين قيادة الكتائب والجبهة اللبنانية والإسرائيليين؛ التنسيق والتعاون والتدريب على السلاح، سيُزاح الستار عن هذه الأسرار حين يكشف «شيمون شيفر» مؤلف كتاب «كرة الثلج» وبعد سنوات هذه اللقاءات الحميمة في جونيه.

يروي شيفر عن لقاء بشير الجميل وأرييل شارون على مائدة طعام شهية في مدينة جونيه. في هذا اللقاء يعرب بشير باسمه واسم أبيه بيار الجميل وكميل شمعون رئيس حزب الأحرار، وقادة المسيحيين، عن عمق شكره لزيارة وزير الدفاع الإسرائيلي الجنرال شارون، الذي تحترمه الكتائب لماضيه العسكري كقائد، ولآرائه

حول ميزة التعاون بين الجيش الإسرائيلي والمسيحيين في لبنان. ويضيف: نحن الآن نجتاز مرحلة مصيرية في لحظة الحقيقة.

يردّ شارون بأن تحرير بيروت من الفلسطينيين هو مشكلتكم أنتم. إن هدف هذه الزيارة هو توثيق التعاون بيننا في المستقبل القريب حتى نستطيع وضع الخطط لمسارينا. هذه ليست سوى الزيارة الأولى. نحن شركاء مصير وأخوة سلاح منذ الآن.

ويتحدث بشير الجميل عن أهمية هذا التعاون لإقامة جيب مسيحي يؤمّن التواصل الإقليمي بين المسيحيين في لبنان ودولة إسرائيل.

وفي لقاء آخر مع شارون وبيار الجميل الأب عن مستقبل ومصير المسيحيين في لبنان هذا المصير المرتبط عضوياً مع إسرائيل يقول: ستصبح بلاد الأرز رأس جسر بين إسرائيل والدول العربية.

ويتابع سيمون شيفر بأن العلاقة بين الكتائب وإسرائيل قديمة. (كان لابد من هذا الفاصل الوثائقي في الرواية لإيضاح العلاقة العضوية بين إسرائيل والكتائب).

يروي شيفر: خلال التحضير للحرب الأهلية جاء زعماء مسيحيون إلى إسرائيل طلباً للمساعدة والحصول على السلاح، غير أن تجار الأسلحة الإسرائيليين رفعوا الأسعار. لكن الميليشيات كانت تبحث جاهدة عن معدات القتال. قال هؤلاء الزعماء: إننا نقاتل عدواً مشتركاً هو الفلسطيني.

وهكذا بدأت تصل صناديق الأسلحة والذخيرة التي دفع ثمنها المسيحيون حتى آخر شيكل إسرائيلي.

وفي لقاءات سرية أخرى، يروي شيفر، بأن لقاء تم بين إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي، وبين بيار الجميل وكميل شمعون. قال رابين: نحن سنساعدكم كي تساعدوا أنفسكم.

(كان المقصود من العبارة أن إسرائيل لن تقاتل عن الكتائب).

وتحدث بيار الجميل رئيس الكتائب عن الخطر الفلسطيني الذي يهدد لبنان وتحريض المسلمين بحيث اختلت التركيبة الديمغرافية وحلّ الخراب في الدولة.

ويتابع الجميل: بعد أن تخلى عنا العالم المسيحي (المقصود هنا فرنسا)، لم يعد لنا سواكم كي تساعدونا. لذا أتوجه إليكم آملاً مساعدتنا لمواجهة عدونا المشترك.

ويجيبه إسحق رابين بأن دافعنا للإسراع بنجدتكم هو شعورنا كيهود قبل كل شيء. نحن نشعر بواجب أدبي يقضي بمساعدة أقلية دينية مضطهدة، إنما هناك حافز سياسي في قرارنا: إن أعداءكم هم أعداؤنا. سنقدم لكم مساعدة عسكرية، لكننا لن نقوم بالمهمة عنكم.

بعد هذه اللقاءات بدأت طلائع الكتائب والجبهة اللبنانية بالوصول إلى قواعد الجيش الإسرائيلي في الشمال لتلقي التدريبات على القتال.

70

منذ يومين، بعد النقاهة من طبخة آغوب اللعينة، وأنا شبه محاصر في البيت، بعيداً عن المشهد الخارجي المكرب والضاغط على الروح.

كنت أقرأ كتاباً عن تاريخ الهنود الحمر، وعمليات إبادتهم برصاص اليانكي وهم لا يملكون سوى السهام والفؤوس.

فكرّت بهذا الفلسطيني التائه على وجه الكوكب العربي، منذ مايزيد عن نصف قرن. الفلسطيني ـ الهندي المطارد والمطلوب رأسه أينما حلّ في ديار العرب بعد طرده من بلاده.

الآن ما الذي يملكه سوى سلاحه. هذا السلاح هو الوطن، ولو تخلى عنه فسيتحول إلى متسوّل ومشرّد في أرجاء المعمورة.

وها هم العرب، الملوك والأمراء والسلاطين والرؤساء، ينهرونه، ينفونه كوباء معدٍ. وباء يلوّث سلامهم وأمنهم وسلطتهم وأرصدتهم، ويستر خيانتهم.

وهم، هؤلاء الأوغاد، باعوه منذ الهزيمة الأولى والخروج الكبير من فلسطين وبداية التيه.

وسيواصلون مطاردته ونبذه وبيع دمه في واشنطن ولندن وباريس وتل أبيب. الدم ـ الدولار والجنيه والفرنك والشيكل. والدم ـ البترول لتزويد الطائرات والبوارج والغوّاصات وأقمار التجسس. حين يأتي الزمن القادم، زمن الدم والخيانة والندب اللامجدي، فتتحول فيه بلاد العرب إلى محميات أميركية، وقواعد عسكرية

لحراسة منابع النفط، وحماية الملوك والشيوخ والأمراء، ليواصلوا العهر في قصور الحريم والغلمان، والتجوّل في بلدان أسيادهم حيث البغاء وأندية القمار في لاس فيغاس ومونت كارلو، وعقد صفقات الطائرات والدبابات لمواجهة العدو الفارسي والتكريتي المتوحش.

وفي الحروب القادمة، حروب الوحش ـ اليانكي، لا ضد الفلسطيني ـ الهندي فقط، بل ضد العربي ـ الهندي، ستتمزق بلاد العرب إلى كانتونات، وإثنينيات، وطوائف تخوض حروبها المذهبية والأهلية تحت حماية البوارج والغواصات المرابطة في مياه العرب، أو من خلال الغزو والإنزال المباشر لجنود البحرية الأميركية.

أيقظني من شرودي وهذياني الاستيهامي وتحليلاتي المكربة صوت رئيف على الهاتف.

ـ هل حدث لك ما حدث لي بالأمس؟

معاً لعنّا الطوطم الأول للأرمن وسلالة آغوب.

سألني ماذا أفعل، ولماذا تغيبت عن العمل، فقلت بأنني أتكهن عن المستقبل المشرق، والزمان الجميل للقبائل العربية التي ستعود إلى أصلها الأول في الصحراء مخيِّمة تحت مضاربها الخافقة في الريح وهي تحدو إبلها فوق الرمال الحارّة بحثاً عن واحات الكلأ والماء.

ارتجّت ضحكته في أسلاك سماعة الهاتف.

ـ دعك من هذا التبصير الفراغي. أخبر سامية كي نلتقي في المصرِف لننجز مسألة الوكالة والقرض.

ـ ولا يهمك. سأخبرها غداً. في العاشرة نلتقي سوية.

خلال أقل من ساعتين تمّت إجراءات الكفالة والقرض. بدا رئيف مبتهجاً. هوذا مشروعه على مشارف البداية العملية. لقد هبط من سماء الأمل والتصوّر الوهمي إلى أرض الواقع.

بعد خروجنا من المصرف باركنا له. قالت سامية ونحن نتجه نحو سيارتها: ما رأيكم أن نذهب إلى الغداء احتفاءً بهذه المناسبة. وأضافت: في الرميلة قبل صيدا مطعم شعبي نظيف يقدم مشاوي، تحت خيمة من قصب الخيزران المجدول في السقف. منظر مضيء يطل على البحر من أعلى تلة مشجرة.

كانت سامية ترتاد هذا المطعم مع إيفا. حين وصلنا رحّب بنا مدير المطعم الذي يعرف سامية: أهلاً ست سامية. أهلاً. خير إن شاء الله الست إيفا ليست معكم!

ـ مسافرة أخي أبو أحمد.

ـ رافقتها السلامة. شرّفوا. كرر الترحيب. طلب من النادل تجهيز طاولة على حافة الجهة الغربية المواجهة للبحر.

كانت الخيمة مائلة السقف باتجاه الغرب ستراً لأشعة الشمس الغاربة، على حوافها ستائر نصفية ملونة ونظيفة، وشرق الخيمة يقوم بناء المطعم والمطبخ.

بدا المطعم مرتّباً ونظيفاً رغم بدائيته المعزولة عن مناطق السكن. أرضيته فرشت بالرمل الذهبي نصف المبلل بالماء، وحول الخيمة الواسعة كانت هناك مساكب ترابية زرعت فيها ورود منوّعة وشجيرات صغيرة من الدفلى الأحمر والأبيض واللوز والصفصاف والحور والنخيل مع نباتات زينة دائمة الاخضرار.

ونحن نتجّول ونتأمل قالت سامية: بالمناسبة المطعم يا جماعة لا يقدم سوى الشواء. لحوم وفراريج وطيور برّية.

رتّب النادل الطاولة. فرش فوقها غطاء وردياً، وأحضر كراسي القش، ثم الماء والكؤوس.

بعد أن جلسنا تداولنا حول المشروب. اخترنا، رئيف وأنا العرق، واختارت سامية البيرة.

جاء النادل بصينية صُفّت فوقها المشروبات وصحن الخضار المشكلة مع المتبلات. باحتفال طقسي رفعنا نخب الدار الميمونة.

سألت سامية عن الإسم، فقال رئيف: اتفقنا مبدئياً على اسم ابن رشد. ما رأيك؟

ـ رائع. خوش انتقاء. ابن رشد منارة العقل في تاريخنا. واستطردت. ما كان عبثاً ترجمته وشرحه لأرسطو. أفكار كتبه تدرّس في السوربون تحت اسم العقلانية الرشدية ـ الأرسطية.

وقلت: لذا أحرق الأصوليون الظلاميون والجهلة كتبه في قرطبة ثم نفي. أعني كونه دعا، هو القاضي، إلى تحكيم العقل في رؤية العالم والدين والإنسان.

وقال رئيف: حدث لسقراط ما يماثل إنما بشكل مأساوي حين تجرع السم دفاعاً عن العقل والتنوير في أثينا اللاهوتية.

ـ نحن الآن بين حجري الرحى: الأصولية الدينية المتطرفة والعمياء، وبين الاستبداد العسكري والأمني.

ولنخرج من هذه الحوارات والتنظيرات الفكرية الغليظة، تحت هذا الفضاء البحري الساحر، اقترحتُ الدخول في موضوع التعاون المستقبلي بين رئيف وسامية.

ـ الدار والمجلة أنا أرى فيهما مشروعاً ثقافياً متكاملاً.

ـ موافق. قال رئيف: أنت العرّاب. ما تفصّله نحن نلبسه.

واصلت الفكرة: إذا وافقت سامية على السفر للاتصال بالمثقفين خارج لبنان يمكن أن تشرح عبر اتصالاتها إمكانية التعاون بين الدار والمجلة.

خلال الحوار فاجأتنا سامية بأن عاصم، زوجها السابق، اتصل بها، وطلب منها القدوم إلى لندن، وأخبرها بأن في لندن مثقفين عرباً اتصل بهم وأبدوا استعداداً للمساهمة في النشر بالمجلة.

ابتسمتُ: ها. عيني. عظيم هذا الخبر. ثمة محرّض جديد لضرورة سفرك.

وأضفت ملغزاً: لعل المياه تعود إلى مجاريها بعد أن ظنّ الشتيتان ألا تلاقيا.

بين البسمة والسخرية قالت: سهمك كصيّاد يُسدّد لكنه لا يصيب الهدف دائماً.

شاركها رئيف: عزيزتي سامية، كما قلت لك، هذا أمير الدسائس. أنا أعرفه منذ عشرين عاماً. لذا احذريه.

فاحت رائحة الشواء الشهية.

صحت: جعنا يا جماعة.

وأنا أتأمل البحر والأمواج، طافت كوميض مفاجئ، بروق الصبا التي طويت في ضباب الزمن.

الحنين إلى الأزمنة المفقودة، ومعي الأولاد، قبل الوداع، ونحن نمرح على الشط ونوغل في البحر قليلاً، أعلّمهم السباحة والغوص، وإذ نتعب نعود. أستلقي على الرمل بينما الصغار يجمعون الأصداف ويطاردون السراطين الصغيرة وهم يتصايحون. يبنون القصور الرملية المبتلّة التي سيجرفها الموج.

كانوا يمرحون كالملائكة في بهاء الفضاء الشمسي الدافئ، وهم مغمورون بالرمال السمراء والذهبية التي تغطي أجسادهم غير عابئين بغدر الزمان القادم وجراحه التي ستنزف فيما بعد في تويجات الروح.

قال رئيف بما يشبه الهمس، كأنما يقرأ الداخل، عبارة غريبة تشبه سهماً مشتعلاً: هي ذي الغزلان تشرد نحو مراعيها الخضراء.

نفرت دمعة في المآقي وضُغطت.

جاءنا الطعام: كباب وشقف وشيش طاووق مع البصل والبندورة والفليفلة الخضراء المشوية.

كم كان الطعام لذيذاً وشهياً. حدث عتاب مع سامية التي خبأت عنا هذا المكان الساحر.

خلال الطعام سألث رئيف ماذا سيفعل الآن، فقال بأنه سيبحث عن مقر مناسب للدار. وبعد تأثيث المكتب لا بد من سكرتيرة تجيد العمل على الآلة الكاتبة، وتدير الشؤون الداخلية وتشرف على

الاتصالات الهاتفية. وما تبقى من أمور أخرى تُستكمل مع الوقت والوضع المادّي.

علّق هزيم لمزاً: من المفضل أن تكون السكرتيرة عزباء، جميلة، مهذبة، مثقفة، ذات ميول تحررية.

نظر رئيف شزراً: المعنى يا لئيم!

ـ لتليق زوجة للمستقبل.

هزّ مدير الدار رأسه وهو يفترّ: إذا لم تنمّ أو تدسّ لا تستطيع النوم. المثل العامي يقول: الدجاجة المهذارا لو قطعوا منقارا ما راح تغيّر كارا.

ـ فقط كنت أصف مزايا المرأة النموذجية في نظر المثقفين المعاصرين.

ـ في جميع الأحوال. قال رئيف: ستكون لك. أعزب دهر ولا أرمل شهر. صحّ سامية!

ضاحكة احتجّت: رئيف عيني. اسمع. هذا المثل يطالني أيضاً. أنا غير موافقة على مثلك الشعبي المتخلف.

الآن حبكت. جلجل المدير العام ضحكته ملتفتاً نحو سامية:

ـ ما دمتما هكذا لماذا لا ترشين طحينك على عجينته؟

ـ سامية. شفتِ من الأكثر لؤماً ودسيسة! قال هزيم.

بِحَيرة تبلبلت مديرة الأزمنة الجديدة: يبدو أنني مغفلة بينكما وبين أمثلتكما الملغزة وكأنني طرشة في زفّة. بصدق هكذا أشعر الآن.

ما كان هناك من أمر جدّي فيما قيل وما تناذر. محض ثرثرات وهذر لتبديد الوقت قرب وليمة شواء شهية.

71

بدأت الأحداث العامة تتفاقم وتتوتر أكثر في المدينة. تنشر الصحف خبراً عن محاولة اغتيال مسؤول أمني في المقاومة بـإطلاق نيران كثيفة على سيارته وهو يغادر مخيم تل الزعتر. في الحادث يقتل أحد المرافقين، ويُجرح المسؤول في ذراعه الأيمن.

استنفار في أوساط المقاومة والحركة الوطنية. تكثيف الاجتماعات بين القيادات في الشطر الغربي.

أنباء عن وصول أسلحة وذخيرة إلى خليج جونيه تحت حراسة وإشراف الموساد الإسرائيلي.

بشير الجميل قائد الكتائب يصرّح بأن المعركة القادمة بين الكتائب والجبهة اللبنانية والفلسطينيين معركة «كسر عظم»، هذا البلد يقوده المسيحيون لأنه وطنهم منذ الأزل وسيبقى، وعلى الفلسطينيين أن يرحلوا عنّا إلى ديار المسلمين أخوتهم في الدين.

الهجرة تتواصل نحو الخارج، إلى فرنسا تحديداً، وأميركا وبلدان أوروبية، وبعض البلدان العربية، هرباً من حريق الحرب القادمة.

ما عاد هناك مجال للوقوف على الحياد، بعد الانشطار الحادّ بين الطرفين. إما هنا أو هناك لمن بقي في لبنان وبيروت المقسومة.

تحدثنا رئيف وأنا حول تصاعد الأحداث وتسارعها، وحول

البقاء والخروج. كان رئيف قد حسم أمره في البقاء والانحياز الكامل إلى جانب المقاومة.

يشرح رئيف الحالة بأنها لحظة مصيرية لا على ما هو راهن إنما على المستقبل، والمعركة في جوهرها ليست مع العملاء، إنما مع إسرائيل. هي الآن تحتل جزءاً من الجنوب كما احتلت الجولان واعتبرته جزءاً من أرض إسرائيل التاريخية، وغداً تزحف إلى بيروت ودمشق إذا لم تواجه بتحالف استراتيجي بين المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية وسوريا.

بالنسبة لي لم أكن قد حسمت الموقف. كان هناك جدال في الداخل: أن تبقى أو تغادر.

كنت أراقب اتجاه البوصلة الذي يشير أكثر إلى البقاء. وبدا لي الوقوف على الحياد، وأنا أماحك حالة النوسان، وكأنه موقف يساند الخصم على نحو غير مباشر. كانت رحى الصراع والجدال الذاتي تدور بين برّ الأمان والخلاص الفردي، وبين الانخراط في المدّ الجماعي لمواجهة الوحش.

وبدا أن هناك شخصين يتواجهان في الداخل: هو والأنا الجماعي.

وفي الليالي كان يستعيد حياته وحياة الكثيرين من الذين أُقصوا وهُمّشوا. أولئك الذين قال لهم أولو الأمر وآلهة الأرض: أنتم فائضون عن الحاجة، وربما كان وجودكم خطأ في هذا العالم. هنا نحن الآلهة وأنتم رعايانا المُقعدون.

وهم ردّوا في السر أو العلن: اذهبوا أنتم وأرباب جنودكم فقاتلوا. إننا هاهنا قاعدون.

وكان أن قاتلوا وخسروا حروبهم، وعلى أنقاض هزيمتهم، بعد أن حوّلوها إلى نصر مزيف، شيّدوا سلطتهم المؤبدة والناهبة،

ثم ورّثوها لسلالاتهم، التي ستنفينا خارج الوطن، وتجوّعنا، وتقذف بنا إلى المعتقلات والسجون والصمت الخائف.

كانت التيارات تتموج في أعماق البحر، وبدا أنه شرد بعيداً تحت الماء، نائياً عن الهدف المركزي. وسأل نفسه إذ أدرك المفارقة: ما صلة المقاومة بالسلطة الحاكمة؟ هذه المقاومة التي يعدّون لها المحرقة!

وقال للمحايد فيه: ماذا ستربح لو تنحّيت؟

وقال الآخر: وماذا يعنيني الذي يجري؟ أنا لست فلسطينياً ولا مقاتلاً. وإذا ما خسرت نفسي في الحرب بقذيفة أو طلقة ماذا سيحدث لأطفالي وأسرتي؟ وهل تحرير فلسطين وقف على استشهادي في المعركة؟ ثم هل حُرّرت فلسطين بدماء وأجساد آلاف الرجال والنساء والأطفال منذ حوالى نصف قرن حتى الآن؟

وبدت له الأسئلة الريبية ذريعة ليبقى على الحياد. وهجس لنفسه: ها أنت تتأرجح كبندول. ومن المحتمل أن تموت على التخوم أو الحد الفاصل بين الخيارين. تموت مجاناً كما يموت كلب شارد أو هرّ يتكور حول نفسه على حافة نافذة هرباً من القصف. وقد لاتكون هناك عربة إسعاف ولا سيارة بلدية ترفع جثتك وتقذف بها نحو أقرب مكبّ نفايات.

وللهروب من هذه الأرجوحة، وشرود الأعماق البحرية فكر بكتابة رسالة إلى الأولاد، يخبرهم فيها عن حنينه وأشواقه إليهم. يروي لهم شيئاً عن حالته والحصار الذي يعيشه مع الآخرين. ولو أتيح له أن يلقاهم فسيقول جواباً: وهل سنفترق بعد الآن يابابا؟

ـ لا. لقد اخترق المنفى شغاف الروح ومسام العظم والنوارس تعبت من رحلاتها فوق البحار والجزر النائية. وسيخبرهم بأنه حتى الآن لم يحسم أمره في الانخراط مع المقاومة أو العودة.

وفكر أيضاً بأن الأمر لم يكن قد انجلى بينه وبين زوجته بعد

الهجر. وإذا ما عاد خائباً ومخذولاً كيف سيُنظر إليه من الأهالي المتضامنين مع المقاومة؟ وكيف ستواجهه امرأته؟ هل ستشمت به وتتصرف معه كنزيل هارب من المعركة؟ أم أنها ستغفر ليحاولا ترميم الخراب القديم ولمّ الشمل لبناء الأسرة وتعليم الأولاد والعيش على تخوم الشروط الدنيا من التنازلات كرمى للأولاد ومستقبلهم؟

ما كان هناك من أجوبة واضحة على هذه الأسئلة المحيّرة والمعلقة في فضاء رأسه.

صبّ كأساً من الويسكي وخرج إلى الشرفة. كان الوقت ربيعاً، والنجوم تضيء سماء بلون العشب. صوت البحر خافت ورخي بينما الموج يلامس الشط بكسل.

وخلال ومضة عبرت تذكّر بأنه منذ وقت طويل لم يسبح في البحر، جرّاء الحصار والأحداث المتلاحقة. وليخرج من هذا التوتر والضغط جرع ما تبقى من كأسه واندفع باتجاه البحر.

في ذلك المساء حلم حلماً غريباً، يرى نفسه في مكان غريب شجر وطيور وأرض مبللة بمطر. يهجس بأنه قريب من البيت وهو راغب في الدخول لرؤية الأطفال. يرى طيور السمّان وهي تعبر بين فسحات أشجار الزيتون والسنديان. معه بندقية صيد. يقول: لماذا لاأنتظر بين فسح الشجر عبور الطيور لاصطيادها.

يتحرك بين الأشجار فوق الأرض الرطبة فيتيه. قبل الوصول إلى جوار البيت، يرى صقراً في الجو يطلق عليه النار فيقع شبه مجنّح. بدا الصقر جميلاً ومزهواً وهو يقترب منه ليمسكه. وقال لنفسه: لا بد أن يفرح الأطفال بهذه الهدية. وهو يتقدم نحو البيت يرى فوق هضبة صغيرة شاباً يرتدي ثياباً رمادية، لعله جار البيت يتحرك باتجاه المنزل. يحاول أن ينده بأنه قادم إلى بيته ويرغب منه إخبار الأهل بالأمر. الشاب لا يبالي يستدير ويختفي. يدخل تحت

الأشجار. يصبح الشجر كثيفاً ومظلماً كما الغابة. ما عادت الطيور تُرى ولا السماء. شجر الزيتون الجميل يتحوّل إلى شجر تين كريه الظلّ. يشعر بالاختناق. فوق شجرة يرى ولداً يرتدي أسمالاً بالية يسأله عما جرى لأهل بيته: هل هم أحياء؟ يقطف الولد حبّات التين المهترئة ويرميه بها. يحاول الخروج من تلك الكثافة والظلمة الخانقة فيرى نفسه بين أزقة بيوت قديمة وطينية، فجأة ينبثق كلب. يهاجمه وهو يعويَ بوحشية. تتبعه كلاب مسعورة تطوّقه مكشّرة عن أنيابها المفترسة. تتقدم الكلاب فيهددها بإطلاق النار. أحدها يعض فوّهة البندقية. يهمّ بإطلاق النار لكنه يشعر باستعصاء في يديه، ماعاد بإمكانه التقدم وسط طوق الكلاب التي تفاقم عواؤها.

تحت رعد الفزع والرعب، ولينجو، استيقظ.

72

في الحادية عشرة صباحاً دخل مدير المؤسسة إلى غرفة مكتبنا حيث نعمل. حيّا وقبل أن يغلق الباب طلب من نادل المطبخ ثلاثة فناجين قهوة.

ما كان باشّاً كعادته. في وجهه ملامح جادّة، وجهه كأنما يكتم أمراً مقبضاً.

جلس على الأريكة المواجهة لطاولتينا. أشعل سيجارة، هو المقلّ في التدخين. بدت عصبيته وهو يشعلها.

- خيراً. أراك مضطرباً على غير العادة. هل هناك ما يزعج؟ سأله رئيف.

بدأ يروي لنا، وهو في حالة من النزق الغريب عن طبعه، كيف دخل إلى مكتبه وبلا استئذان، رجلان وعرّفا على نفسيهما بأنهما من الأمن السوري. كانا يرتديان ثياباً مدنية.

بداية سأل أحدهما، لعله الأعلى رتبة والآخر مرافق له، عن نوعية الكتب والنشرات التي تصدرها المؤسسة. قدمتُ لهما لائحة بأسماء العناوين الصادرة. قلت: نحن مؤسسة ثقافية فكرية هي أبعد ما تكون عن الاهتمامات السياسية سوى ما يهم القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي.

وسأل الضابط عن مدى علاقة المؤسسة والعاملين فيها بالنظام العراقي.

شرحت له بأن المؤسسة مستقلة، وهي تتعامل مع الأنظمة العربية على مسافة واحدة. كتبنا تدخل إلى البلدان العربية جميعها.

وأشار الضابط إلى علاقة المرحوم الدكتور بالعراق ومنظمة جبهة التحرير العربية كإحدى فصائل المقاومة الموالية للعراق.

وقال المدير كاتماً غيظه: المنظمة كوادرها فلسطينية أساساً. وقد دفع المرحوم الدكتور الثمن من دمه دفاعاً عن فلسطين أولاً وأخيراً.

وأضاف بأن المؤسسة مستقلة تماماً عن أي تنظيم سياسي، ورأسمالها مستقل وذاتية التمويل ونحن لسنا بحاجة إلى أية مساعدة مادّية من أية جهة.

تابع: أما الصلة بيننا وبين العراق فهي صلة سوق للكتب لا غير. كما أننا نتحاشى نشر الكتب العراقية سوى الأدبية والفكرية منها كي نبقى على الحياد.

جاءت القهوة. قال للنادل: أغلق الباب وأخبر السكرتيرة بألا تدخل علينا أحداً.

أشعل المدير سيجارة. كذلك رئيف وأنا. كانت أعصابنا متوترة حين واصل الحوار: حدث بيني وبين ضابط الأمن جدال حول الصراع السوري ـ العراقي، وانقسام المقاومة جرّاء هذه الخصومة السياسية. وهذا مؤسف ومؤلم عربياً.

حين انتقل الحوار إلى العاملين هنا، أشار رجل الأمن إلى وجود موظفين سوريين في المؤسسة. وقلت، تابع المدير: نعم. وماذا في الأمر نحن مؤسسة عربية للنشر. يعمل فيها سوريون ولبنانيون وفلسطينيون ومصريون.

ـ وحين أشار إليكما بأنكما معاديان للنظام. قلت بأن هذا شأنهما. وأضفت بأن المؤسسة لا تجري اختباراً سياسياً للموظف ولا تسبر أعماقه قبل العمل معنا. بالإمكان سؤالهما

أو استجوابهما خارج المؤسسة. نحن هنا تحت حماية القانون اللبناني للنشر.

أشار بأنه طلب لهما قهوة، وأن الأعلى رتبة دخن بعصبية أكثر من سيجارة.

وإذ احتدم الحوار حول الاستجواب داخل المؤسسة أو خارجها رفع الضابط صوته أعلى كأنما ثُلم شرفه العسكري، أو فهم أن في الأمر تحدّياً. قال باعتداد وجهامة الآمر: هما مواطنان سوريان. أحدهما هارب من البلد ومطلوب بتهمة الانتماء إلى خلية شيوعية محظورة. والآخر على صلة بامرأة عراقية مشبوهة.

أجبت، واصل المدير: بأن هذا الاتهام مسألة أمنية خاصة. بإمكانك أن تعتقلهما وتكمن لهما خارج المؤسسة. وموضوع التحقيق أنتم تقررون حيثياته ومكانه هنا في بيروت أو في مراكز الأمن في دمشق. وختمت: هنا لن نسمح باعتقال أي موظف داخل مؤسستنا. وسوف نخبر الأمن اللبناني في حالة الاعتقال. المؤسسة محمية بالقانون اللبناني لأننا مقيمون فوق أرض لبنانية.

شكره الرجلان وخرجا متجهّمين.

وختم: هذا ما وددت إخباركما به للحيطة والحذر.

بعد خروج المدير بدت الجهامة والانقباض في وجه رئيف.

ـ ما كان ينقصنا سوى هذه المفاجأة السارّة. علّقت.

وقال رئيف: ليست مفاجأة. كنت أنتظرها لكنها جاءت متأخرة بعض الشيء. وأضاف ممتعضاً: هم يرون في لبنان محمّية تابعة لهم. ومن ليس معهم فهو عدوّ.

وسأله هزيم ماذا سيفعل؟ فردّ: لا شيء. سأواصل العمل هنا حتى تتم إجراءات الدار كأن شيئاً لم يكن.

ـ ألن تخبر الأمن الفلسطيني؟ علاقاتك معهم جيدة!

ـ سأفكر في الأمر. من المفيد إخبار سامية بما جرى. وليجسّ نبضه الداخلي سأله هزيم: قد لا توافق على فكرتي في الإشارة إلى أخيك العقيد.

ردّ رئيف حانقاً: ليذهب ورتبته إلى الجحيم.

امتعضت من موقفه: أنا أعرف كبرياءك. لكن هؤلاء أوغاد وسفلة. لا أخلاق ولا ضمير يردعهم. ويمكنهم إيذاءنا.

ـ خلّيهم يبلطوا البحر. لسنا أفضل من أولئك الذين تغصّ بها معتقلاتهم وأقبية تعذيبهم.

مساء هتفت لسامية: لدي خبر سارّ سأزفه لك. ما رأيك لو تأتين!

ردّت: وصلتني عبر البريد بعض المواد للمجلة سآتيك بها.

كانت ترتدي بلوزة خمرية وبنطال جينز أسود. بدت مشرقة في عينيها بريق غبطة، عزاه فرحاً بالمواد التي وصلتها، وانتظار مفاجأتها بالخبر السارّ. ومع أنها ما كانت وسيمة بالمقاييس التقليدية، لكنها كانت قريبة من الروح لكل من عرفها. لم تكن تضع أي مكياج فاقع على وجنتيها أو شفتيها. ومذ أغلقت بوّابة الحب انعطف كل منهما باتجاه صداقة روحية مفعمة بالثقة والاحترام المتبادل.

وسألها إن كانت تشرب قهوة أو أي شيء آخر فقالت: قهوة الآن. وفيما بعد يخلق الله ما لا تعلمون. بدأ يعد القهوة، بينما أخرجت من حقيبتها اليدوية مغلفين وضعتهما على الأريكة.

وهما يشربان القهوة سألت عن الخبر المفاجئ. وروى لها واقعة الأمن مع المدير.

ـ أنت الآن متهمة بالولاء للنظام العراقي ولأنني أعرفك أنا الآخر في قفص الاتهام.

بوغتت: غريب هذا الأمن الفاسد الذي يرى في الإنسان متّهماً

حتى يثبت براءته. وأضافت بعد أن أشعلت سيجارة بدت من خلالها مضطربة: أنا هربت من دكتاتورية العراق لأقع تحت مراقبة الأمن السياسي السوري.

ـ حين تتصارع الذئاب تقع الخراف بين الأنياب والبراثن.

وسألت عما سنفعله رئيف وأنا. فقال بأن لرئيف أخاً برتبة عقيد في الأمن العسكري يرفض اللجوء إليه.

وروى لها قصة الخلاف بين الأخوين قبل فرار رئيف إلى لبنان، وامتعاض السيد العقيد من سلوك أخيه: فيما بعد وصلت لرئيف أخبار عن أخيه العقيد أقسم فيها بأنه لو رأى أخاه معلقاً في حبل مشنقة فلن ينقذه بعد الآن.

وهي تخرج الأوراق من المغلّف قالت: انظر بماذا نفكر نحن وكيف يفكر أولئك الحمقى.

وتساءلت: ما الذي يبقى من وطن يطارد مثقفيه!

الأوراق كانت تحتوي على قصيدتين واحدة من العراق وأخرى من المغرب، ودراسة أدبية حول الحداثة في الشعر العربي، وقصتان قصيرتان من سوريا والأردن.

كان العدد الجديد الذي سيصدر في لبنان وشيك الاكتمال. وقالت سامية بأن الفنانة منى قدمت هذين النموذجين للغلاف، أخرجتهما من مغلف آخر. وسألته وهي تضعهما أمامه على الطاولة عن رأيه في أي منهما هو الأفضل. واختار الغلاف الأبيض وفي وسطه مربعات كحلية لبساطته ورصانته كما عبّر.

وقالت بأننا متفقان في الاختيار. سنحاول إصدار العدد أوّل الشهر القادم.

وإذ عادا إلى الموضوع الأمني، طرحت سامية فكرة انتقاله مؤقتاً إلى الشقة المخصصة للمجلة.

ـ لا أظنها فكرة صائبة. نحن الآن تحت المراقبة والأفضل أمنياً

ألا نلتقي كثيراً خاصة في الأماكن العامة. وسألها إن كانت خائفة وهل ستتخذ أية إجراءات أمنية خاصة.

ـ لا. لست خائفة. إنما احتياطاً يمكن إبلاغ الأمن اللبناني عن الموضوع.

ـ أتعرفين أحداً؟

ـ بلى. إيفا عرّفتني على مقدم في الأمن. وأوصته بي.

ـ أهو موالٍ للأمن السوري؟

ـ فيما أظن. أنت تعرف إيفا الكهينة وعلاقاتها السرّية.

ـ جيّد. أخبريه بالأمر.

وسألته كيف سيواجه الوضع هو ورئيف.

شرح لها بأن لرئيف علاقات جيدة مع الفلسطينيين، وأعتقد أنه يعرف مسؤولين أمنيين في المقاومة، وتحديداً في حركة فتح، وهؤلاء على صلة وثيقة بالأمن السوري هنا وفي دمشق، والعقيد عصام شاهين أخو رئيف ليس مجهولاً من أمن المقاومة. أعتقد أن هناك تعاوناً وتنسيقاً سرّياً بين أجهزة الأمن، كما تعرفين، وتحديداً في تبادل المعلومات.

ـ لكنك قلتَ بأن رئيف لن يلجأ لأخيه كما فهمت منك.

ـ سأحاول إقناعه كي يتصل بأمن المقاومة. وأضاف: في هذه الحالة، دون معرفته كما أعتقد، سيوصلون الخبر بشكل غير مباشر إلى أخيه.

ـ أنت قلت بأنه تخلّى عنه نهائياً.

ـ عزيزتي. المثل الشعبي يقول: الدم ما يصير ماء. مثل معروف حتى في العراق.

ضحكت: خبير أمثلة شعبية. ما شاء الله.

أسوأ ما كان يحدث في تلك المرحلة بداية مسلسل التصفيات الجسدية بين الفصائل والأنظمة المتصارعة على الساحة اللبنانية.

وبدا العداء الأكثر ضراوة يتجلى بين النظامين السوري والعراقي والذي سيذهب ضحيته العشرات من الطرفين. إضافة إلى خطف المناوئين واستجوابهم أو تصفيتهم في سجون بغداد ودمشق.

تجلّت الكراهية والحقد في التفجيرات المتبادلة، والسيارات المفخخة، حيث الضحايا في الغالب كانوا من المدنيين الأبرياء. وبدا النظام العراقي، الأكثر وحشية، أنه عقد تحالفاً مع الأخوان المسلمين لمواجهة النظام السوري، وخلق حالة من الرعب والفزع في نفوس المواطنين، جرّاء الاغتيالات والانفجارات المتنقلة في أكثر من مكان.

كان التحالف غير المقدس، واللامتجانس، سوى في كراهية النظام السوري، واتهامه بالطائفية، يثير الكثير من الأسئلة والمفارقة: كيف يتحالف بعث بغداد مع الأخوان المسلمين ضد بعث دمشق؟

ولم تكن الأسئلة أو التحليل العقلاني يوصلان إلى نتيجة منطقية مقنعة.

لقد بدت جراثيم الكراهية والحقد وجنون العظمة الجوفاء، تقود السلطة العمياء والمتوحشة في بغداد. وتجلى واضحاً للعيان أن الدكتاتور الأحمق، المأخوذ بهذياناته ورؤاه المريضة، ذات النزعة التوسعية، يحلم في لياليه المجنحة بإعادة مجد إمبراطورية أسلافه العباسيين، المنقرضة، مستضيئاً بالأمثولة الستالينية. كان على استعداد للتحالف مع الشيطان لتدمير خصومه في الداخل والخارج (وهذا ما سيفعله فيما بعد في حربه العبثية مع إيران وشيعة العراق في الجنوب وأكراد الشمال).

كانت الشمس العربية تدخل محاق كسوفها، مستعيدة من جديد ظلمة حروب ملوك الطوائف.

حين رأيناه يمشي في الغرفة على عكّازه، بعد أن نُزعت جبيرة الجبس، صرخنا فرحاً: مبروك شوقي. عانقناه. بدا جذلاً بقدومنا. كانت هدى تسنده وتدربه على المشي البطيء.

شلة ما بين النهرين كانوا مجتمعين الآن في غرفة شوقي الذي بدأ يتعافى تدريجياً.

وضعنا الهدايا جانباً. استراح بتؤدة على أريكة مادّاً ساقه المصابة إلى الأمام.

انهالت الأسئلة حول الحالة الجديدة. قال بأنه متفائل لكنه مايزال يعاني صعوبة في الجلوس على مؤخرته. الطبيب يقول بأن الخلع المفصلي في الورك يعود تدريجياً إلى حالته الطبيعية، بإمكان المريض العودة إلى البيت في غضون أسبوعين. ينبغي الحذر في الحركة وتحاشي أي جهد. كما لا بد من الانتباه خلال السير الأولي، وأي تعثر أو سقوط سيعيد الأمور إلى الأسوأ.

ـ هذه مسؤولية هدى. قلت.

وقالت: لن أتركه. إنما على شوقي الابتعاد عن عصبيته المعتادة والالتزام بالتعليمات الطبية.

ـ أني عصبي حبيبتي! طيب بحضور هؤلاء الأحبة أعاهدك على الهدوء والطاعة.

وشوشتْ لسامية طرح فكرة الزواج بين شوقي وهدى بعد الشفاء. همستْ بأن هذه مسألة شخصية بينهما.

قلت: نرميها تلقائياً، عفو الخاطر، لنولّد جواً من الحبور.

ـ اسمعوا يا سادة يا كرام. لدى سامية فكرة خلاقة نريد تصويتكم عليها.

وضعت كفَّها عل شفتيها كاتمة صرخة الدهشة.

تابعتُ المسرحية المرتجلة: الفكرة تتلخص بإحياء حفل تكريمي لأبي الشوق بعد خروجه من المشفى. تنفست سامية الصعداء.

واصلت الدور: وفي غمرة هذا التكريم تقدم شلة ملتقى النهرين مفاجأة.

حُبست الأنفاس.

بعد أداء دوري التوريطي: سامية قولي ما هي المفاجأة؟

وإذ رأت نفسها مورّطة في المسرحية ارتجلت: نقدم خاتمي خطبة خلال التكريم.

صفق الجمهور.

قال رئيف: علينا أخذ رأي الخطيبين بادئ ذي بدء.

ـ شو أبو الشوق؟ سأله عارف خارقاً صمته المعتاد.

بوغت شوقي. عَقَل اضطرابه: هدى حلمي الجميل. سوف لن أنسى ما حييت عنايتها وسهرها علي خلال هذه الشهور الصعبة والمريرة.

وردّت هدى خجلة كأنما تخاطبنا: شوقي بالنسبة لي صديق أولاً وبعد ذلك هو حبيب. أنا لم أفعل له أكثر من واجبي الإنساني وما أملته علي عاطفتي العميقة.

بدا الجو مؤثراً.

ـ مبروك سلفاً. قلنا جميعاً.

قبّلت هدى عيني شوقي وجبينه، حابسة خفقة قلب ودمعة فرح.

شرحتُ فكرة المسرحية المرتجلة التي انبثقت عفو الخاطر من خلال تواطؤ همسي ماكر بيني وبين سامية.

كنا كأنما اتفقنا على ألا نعكر مزاجه بأخبار الأمن وحادثة التحقيق في المؤسسة.

قبل أن نغادر فاجأه رئيف بخبر استئجار مكتب للدار في حي البربير. طفا الفرح على وجهه. حاول النهوض ليعانق مديرنا المستقبلي. منعته هدى.

ـ بعد شفائك سيكون دوامك في دار ابن رشد. قال رئيف وهو يعانقه.

ودّعناه.

في الطريق أفصحت سامية عن قناعتها باحتمال السفر.

في مفاصل الشوارع والأحياء قرب مقرات فصائل المقاومة الوطنية، شاهدنا متاريس الرمل.

كان المسلحون ينتشرون ويفتشون السيارات العابرة. سرت أخبار بأن الكتائب يزرعون الكمائن والحواجز الطيارة على خطوط التماس. يعتقلون في مقراتهم وأقبيتهم مواطنين زعموا أنهم مشبوهون وموالون للنظام السوري والمقاومة الفلسطينية. بعض هؤلاء كانوا يصفّون بكواتم الصوت بعد وخلال التحقيق.

كانت الاعتقالات تتم على الهوية: فلسطيني ـ سوري ـ مسلم. وبدأ الردّ الثأري المقابل.

ستبدو هذه الظاهرة الطائفية أسوأ ما سيحدث في مجرى الحرب القادمة.

كانت بيروت تعيش تحت مظلة التعبئة.

74

بعد أسبوع سيفاجئني رئيف بخبر غريب مباغت: سأتزوج.

لو انفجرت قنبلة صوتية في المكتب، ربما ما كان وقعها أصدى من هذا الخبر. لكنها بدت بعد هدوء الانفجار كقذيفة ورد.

ـ أنت تمزح!

ـ لا. أنا جادّ. وانفجر ضاحكاً.

وفي لحظة تشوّش بدا لي المشهد شبيه لوحة سريالية لا أفقه من ألوانها ومعناها شيئاً. أو أنني أقرأ عن مغامرة رحلة وهمية نحو فضاء مجهول، ربّانها هذا الأهبل القريب مني، قبل أن يُقلع.

وأنا في حالة من البلبلة، ومحاولة العودة من رؤية لوحة اللامعقول إلى الأرض سألته: كيف حدث ذلك؟

بهدوئه الوديع واللامبالي في آن سأل: لمَ أنت مفاجَأ ألم تقل أن لقطار الزمن ثلاث محطات أساسية: الولادة، الزواج، الموت. أنا قررت ركوب عربة القطار نحو المحطة الثانية قبل الموت.

وسألته إن كان خائفاً من الموت ويرغب استدراكه بالزواج. ابتسم: حين يأتي الموت لا يستأذن الضحيّة. أنت ترى أن الموت والحياة يتآخيان في هذه المدينة.

ـ ولكن لماذا احتفظت بهذا السرّ حتى الآن؟

ـ ما كان الأمر هامّاً. شأن شخصي. لماذا عليك أن تتعب الآخرين به؟

عبر لحظة أحسست كأنني بعيد عنه بُعد سرّه المكنون. كانت بيننا مسافة خفية خاصة احتفظ بها لنفسه، رغم حميمية الصداقة. ومع أنني أحلل الأمور والأحداث، كما أظن، بعقل بارد وسياق منطقي، إلا أن المفاجأة صدمتني للوهلة الأولى.

بعد همود صدى قنبلته الصوتية ساد الجو هدوءٌ صافٍ.

ـ غير معقول رئيف. كم أنت باطني! دسست.

عالطاير التقط الدسيسة.

ابتسم: على أية حال أنت من سلالة الشيوخ المتنورين والصوفيين أما أنا فمن عامة الشعب.

ـ ومتى حفلة العرس؟

ـ غداً.

جاءت المفاجأة الثانية.

أوضح بأن الأمور ستكون عائلية. فلا عرس ولا جلجلة ولا من يحزنون. اتفقت مع سناء على إقصاء الشكليات التقليدية، احتفال بسيط وعفوي في بيت أهلها يحضره الأهل والأقارب وبعض الجيران الأصدقاء.

وأضاف: من الأصدقاء سامية وأنت لا غير.

أرجأت الأسئلة حول العروس. كيف، ومتى تعارفا ولماذا كان الاختيار المتبادل.

بدت هذه الأسئلة نافلة، وبلا معنى الآن. قد تتضح فيما بعد تلقائياً، أو تبقى سرّهما الخاص.

في أعماقي كنت مبتهجاً. وفكرت بأن رئيف لن يكون وحيداً وغريباً بعد اليوم. المرأة وطن الرجل وبها سيعوّض فقدان الأهل والوطن. وبحدس خاص خمّنت أنه سيكون سعيداً في اختياره، ولابد أن المرأة التي تختار رجلاً منفياً ومطارداً، أنثى من نوع خاص ونادر.

أقصيتُ أفكاري السوداء وشكوكي حول مؤسسة الزواج وتجربتي الفاشلة. لقد خسرت ورقة اليانصيب التي اشتريتها، كما عبّر غوته عن الزواج، وفي داخلي رغبت أن تربح ورقة رئيف. الزمن وحده في مجراه اللانهائي من يحدد المصائر إلى ما ستؤول إليه.

أيقظني رئيف من شرودي: غداً في التاسعة مساء نلتقي في بيتك مع سامية.

ـ مبروك سلفاً.

من البيت هتفت لسامية وأنبأتها بالمفاجأة.

صاحت بجذل: صِدق ما تقول؟

ـ صدق. غداً في الثامنة والنصف سنتوجه مع رئيف من هنا إلى بيت عمه.

وسألت عن الهدية. قلت: قوس ورد. رئيف لا يريد هدايا بهذه المناسبة. وأضفت: بعد الزواج يمكن التفكير بهدية للعروسين في بيتهما الجديد.

على الباب رحبت بنا سناء. فتاة جميلة، متوسطة الطول، شعر أسود طويل، ووجه وردي، قامتها الوعلية وصوتها الواثق ينبئان بشخصية واثقة وعفوية في آن.

بيت أهل العروس، القائم في حي عائشة بكّار الشعبي، متواضع وأثاثه قديم.

كان الأخوة والأخوات والأقارب والجيران يتوزعون على الأرائك وكراسي الخيزران الأثرية. ووسط الصالون وعلى جانبيه باقات وأقواس من الورد. على الجدران لوحات كلاسيكية قديمة وصور العائلة.

رحّب الأهل بنا وفي المقدمة الأم البشوشة، ثم الأب الذي بدا يتحرك ببطء مرضي واضح.

في السرّ همست لسامية: يبدو أن أخانا صام طويلاً وفطر أخيراً على غزال.

اكتفت بابتسامة. وشوشتْ: حتى إلى هنا لا ينجو أحد من لسانك الدسّاس!

بعد وصولنا بنصف ساعة دخل المأذون الشرعي متأبطاً دفتره السميك والكبير. حيّا بالسلام عليكم. وبعد شراب الليمون قال: ليبارك الله ورسوله هذا البيت الكريم. انتحى بالعروسين والأب والأم والأخ الأكبر في غرفة مجاورة حيث أجرى طقوس الزواج الرسمية. بعد خروج الجميع من الغرفة دعا الشيخ للعروسين باليمن والبركات والسعادة. علت الزغاريد خارقة فضاء البيت وأزقة الحي.

من الصالون أزيحت الأرائك والكراسي وبدأ إيقاع الرقص، وفي وسط الحلقة العروسان. انطلقت الأغاني الشعبية، ومن حنجرة الأخت الصغرى صدحت أغنية فيروز: كبر البحر بُعد السما بحبك ياحبيبي.

بعد الرقص جلس العروسان على أريكتين متجاورتين محاطين بأقواس الورد. وبدأت فلاشات كاميرات الأهل والأصدقاء تلمع. صوّرت سامية العروسين. تصورنا معاً. قبلناهما: مبروك.

لم تكن سناء ترتدي طرحة أو فستان عرس. بدت طبيعية بفستانها الأبيض الطويل وتسريحتها المنسابة على كتفيها وظهرها. لاحت عليها الغبطة من خلال نضارة وجهها وعينيها المشعتين الضاحكتين.

كنت أتأمل رئيف المصلوب على أريكته. يداه مهدلتان باستسلام حول فخذيه، يكاد يختنق بربطة العنق التي فُرضت عليه لأول مرّة. كان يبتسم خلال التصوير. ابتسامة لم يعتدها هو الذي يرجّ المدينة بضحكته الزلزالية.

بين فسحة وأخرى كانت عيوننا تتلاقى ببسمة وكلمات خفية: بـإمكانك أن تتلو الآن صلاة الرحمة على صديقك أيها الملسوع.

وفي سرّي أجبته: ليكن ليل زواجك مضيئاً.

أومأ لي بـإصبعه. همس: سنذهب معاً إلى البيت بسيارة سامية.

في نهاية الاحتفال ودّع الأهلُ والأقاربُ والجيران العروسين. ودّعت سناء أباها وأمها وأخوتها وأخاها كاتمة غصة ونفير دمع. أثناء الخروج من البيت سمع صوت الأم وهي تكفكف عبراتها، داعية لابنتها أن تكون أيامها سعيدة، طالبة من النبي المصطفى كي يبارك نسلها.

خلال الوداع ناولت ابنتها كأساً بلورياً: لا تنسي أن تكسريه على عتبة البيت اتقاء للعيون الشريرة، وحماية للبيت المبارك من الغيورين والحسّاد.

قبل الدخول إلى بيت العروسين كسرت سناء الكأس الذي تطاير شظايا.

كان صالون البيت الجديد مفروشاً بأثاث من الأرائك المخملية الخضراء. بدا الصالون واسعاً. في الجهة الغربية كانت منصّة التلفزيون، وبين الأرائك وضعت أصص من نباتات الزينة.

ـ أهلاً وسهلاً. قالت سناء.

وقالت سامية: مبروك.

وقلت: يمناً وحبوراً.

جاءتنا العروس بكأسي كونياك، بينما كان رئيف يجهز بعض المكسرات في المطبخ.

حين قدم، ومعه على الصينية كأسا كونياك له ولسناء، كانت تسبقه ضحكته المرحة.

سألني: كيف رأيت هذا الفيلم؟

ـ سريالي. إخراج فلِّليني وتصوير سلفادور دالي. قلت ببداهة عفوية.

شربنا معاً نخب العروسين.

سأل سامية: كم دسيسة وشوش لك بها؟

ضحكت: واحدة. سأقولها لك فيما بعد.

ـ شماتة؟

ـ لا. أبداً. دسيسة رائعة.

جلجل ضحكته: غريب. يبدو أنه غيّر عاداته.

أنهينا كؤوسنا وغادرنا.

في الطريق سألتني سامية عن انطباعي.

قلت: لقد رمى عصفورين بحجر في وقت واحد.

ـ المعنى؟

ـ تأسيس دار نشر وعروس.

75

بعد أسبوعين من الزفاف استقال رئيف من عمله في المؤسسة، وباشر عمله في مبنى الدار.

كنت في البيت حين هتف طالباً قدومي لأمور هامة تتعلق بالعمل.

في مكتبه فوجئت بوجود رجل طويل، أجلح وأنيق، عيناه جاحظتان. حييت؛ وأنا أتملاه خيل إلي أن هذا الرجل ليس غريباً عني.

ـ ألستَ عقيل ديب؟ سألته.

ـ أما عدتَ تعرف أصدقاءك؟ قال بعتاب ضاحك.

كان قد مضى على ابتعادنا أكثر من اثني عشر عاماً. آنذاك كان يعمل في فرع الأمن الخارجي.

بحرارة مشوبة بتوجس سلّمت عليه معانقاً.

بقرون استشعار رجل الأمن أحسّ بريبتي. قال: لا تخف. لقد تركت العمل في الأمن منذ أربع سنوات.

واستطرد وهو ينفخ دخان سيجارته: أنت تعرف بأن وظيفة الأمن قذرة مارستها مضطراً لأسباب مادية.

طلب رئيف من سكرتيرته الجديدة قهوة. كان يعرف عقيل منذ أيام الجامعة. وروى لنا عن بداية تعارفه به في مكتب أخيه العقيد

حين دعاه إلى مكتبه ليعطيه درساً في الوطنية بعد إطلاق سراحه من المعتقل. كان عقيل هو من قدّم القهوة.

انهالت الأسئلة حول أحوال البلد الأمين وأحوال الأصدقاء. سألته إن كان يعرف شيئاً عن حالة الأسرة والأولاد، فقال بأنه زارهم منذ أسبوع وهم بخير لولا بعض المضايقات الأمنية وتحرياتهم عني. وأضاف ضاحكاً ومعجباً بأن أم البنين فتحت عليهم نيرانها. واجهتهم بكل رجولة وبصقت في وجوههم كما قالت لي: تتمرجلون على امرأة وأطفالها في غياب والدهم. إذا كنتم رجالاً واجهوا إسرائيل!

- لم تترك كلمة أو شتيمة إلا وقذفتهم بها.

وسألته: لماذا يسألون عني؟

قال بامتعاض: أنت ورئيف متهمان بالولاء للنظام العراقي. وأضاف: من خلال علاقاتي القديمة مع عناصر من زملائي في الفرع الخارجي علمت أن لكل منكما ملفاً أمنياً.

كان هزيم يشرب القهوة ويدخن. بدا عصبياً ومنفعلاً جرّاء التهمة التي يعرف أنها باطلة وملفقة.

واستطرد عقيل موجهاً كلامه إلي: بالنسبة لك أشاعوا خبراً مفاده أنك سافرت إلى بغداد سرّاً تحت ذريعة نشر كتاب. في حين يشير تقرير المخبر إلى اتصالك بمعارضين سوريين يقيمون في العراق.

وليطمئن سألني إن كنت ذهبت إلى العراق في هذه المرحلة، فنفيت. رويت له حادثة عنصري الأمن اللذين قابلا مدير المؤسسة، واتهامي بالعلاقة مع امرأة عراقية هاربة من الدكتاتورية، نعمل معها على إصدار مجلتها عن دار ابن رشد.

على الغداء في بيت رئيف قال عقيل بأنه سيحاول الاتصال بالعقيد عصام وإخباره بالأمر.

استنفر رئيف: لا. لا أريد معونة أخ يقول: لو رأيت أخي معلقاً في حبل مشنقة فلن أنقذه.

بعصبية وأريحية نصَح الرجل: أخي رئيف لا تردّ على الغضب العابر بمثله. أنا أعرف شهامة العقيد. هي ردّة فعل لا أكثر. دم الأخوة ليس ماءً.

وأضاف: هؤلاء القذرون أنا أعرفهم جيداً. وهم لا يتورعون حتى عن الاغتيال حين تصدر لهم الأوامر ثم يتهمون العراق بذلك. سوف ترون في لبنان ما هو أعظم إذا ما وقعت الواقعة ونشبت الحرب. أصلاً حروب المخابرات بدأت هنا والنظام العراقي ينسق مع الكتائب.

بعد الغداء قدمت سناء القهوة. كان رئيف في المطبخ حين أسرّت سناء لعقيل: لا تستمع إليه. رأسه يابس. ضروري اتصالك بالعقيد عصام.

قال الرجل: اطمئني. أنا أعرف ما سأفعل. كوني واثقة ومرتاحة.

أوجزت له فكرة الاتصال بأمن المقاومة لتطويق الحالة: لرئيف علاقات وطيدة مع مسؤولين في منظمة فتح.

ـ جيّد. نحاول قطع الطريق هنا وهناك.

ختم ونحن نودعه: سنبقى على اتصال.

هي ذي كرة الثلج تتدحرج وتكبر عبر منعطفات ومضائق حادّة.

الممضّ في مجرى الأحداث وقوع الأسرة والأولاد في دائرة الخوف والاضطراب.

بدا فريسة الإحساس بالذنب وعواصف التأنيب. وتذكر كلمة المرأة وهو يغادر: ها أنت تتركنا فريسة للذئاب وتنجو.

وعضّ الفهد السجين حديد القفص فأحس بألمٍ جَرحَ شغاف الروح. هوّمت في الرأس طيور العودة وليكن ما يكونْ. وفي لحظة انهارت قصور المستقبل ومشاريع الثقافة الهشة. وعلى الشاشة عَبَر شريطُ حياة ضاعت سُدى. احترقت في اللهب السياسي ويوتوبيا الزواج الأحمق، والحلم الوهمي بتغيير ظلام العالم بأنوار الثقافة والأدب. حياة كان يمكن أن تكون أفضل، ربما، لو لم يقع في وهدة هذه الفخاخ والأشراك المموّهة في أعماق الغابة. وسأل نفسه عمن يرسم المصائر: الإرادة الذاتية الصلبة أم مجرى الزمن المجهول؟ أم هي القوة العمياء التي توجّه بوصلة الزمن أنّى وكيفما تشاء؟

ورأى نفسه يطفو كبحّار تائه في أعماق لجّ هائج. هو الفائض على سطح الزمن: أيّها اللاشيء...

استيقظ من شروده على رنين الهاتف. كانت سامية على الخط. وسألته ماذا يفعل فقال بأنه كان نائماً يحلم بالجزر السعيدة وحياة حي بن يقظان. وقالت بأنها راغبة في رؤيته لأمر هام. وردّ بان

الأمور الهامة غاصت في أعماق البحر ولا ضرورة للقاء. وسألته عما به، ومما يشكو فقال بأنه مصدّع ولا يرغب برؤية أحد الآن. وأغلق الهاتف.

مساء جاءت. كان يشرب كأساً من الويسكي ويستمع للموسيقى. نهض. تعانقا. شمّ رائحة عطرها المنعش. كان محايداً ومكتئباً وهي تجلس قربه على الأريكة، عادت تسأل عن حالته فلم يجب. نهض وجاءها بكأس.

ـ أنت لست طبيعياً. ما هناك عيني؟

في وجهها لاح الحزن.

بعد ثلاثة كؤوس انحلّت عقدة لسانه فروى لها ما جرى. عانقته وقبّلته بشغف مفاجئ.

ـ كنت أجهز أوراقي للسفر إلى لندن. سأوقف هذه الإجراءات وأسافر إلى سوريا لأرى الأسرة والأولاد. قالت بتصميم.

ـ لا. لن تفعلي ذلك. أنت تحت المراقبة. هذه الفكرة المجنونة ستؤكد اتهامهم وربما اعتقلوك.

شربا حتى الثانية صباحاً. بدت في حالة من الثمل وحين فاجأته بأنها ستنام هنا. قال: ستنامين في السرير الآخر.

ـ سأغتصبكَ الليلة. فاجأته.

كانت الشمس في سمت الظهيرة حين استيقظا. أعدّت سامية القهوة: كانت ليلة ساحرة وممتعة. قالت بانشراح. وقال بأنه كان ثملاً وحزيناً ولا يذكر شيئاً مما حصل. وضحكت بغبطة: لقد افتُضت بكارتك يا صديقي الرائع.

ـ هل استمتعتِ مع إيفا؟ مكَرَ مناكداً.

ـ لكم أنت سمج وغليظ ولا تخلو من الشرّ أحياناً. لماذا تعكر الينابيع الصافية؟

ـ كنت أمزح ليس إلا.

استشاطت مغتاظة مقطبة حاجبيها: لا بدّ أن العكر يسري في دمك. قل لي من أين يولد هذا العكر؟

ـ خلية من الخلايا سمّمها الزمن يبدو من المحال استئصالها.

وليرمي بها بعيداً عن تلك الليلة الكابوسية ومزاجه الثقيل انعطف بالحوار.

ـ ستسافرين إذن!

ـ أليست هذه فكرتك!

وقال بأنه يسأل ولا يعترض. وسألها إن كان بإمكانها تأجيل موعد سفرها إلى ما بعد خروج شوقي من المشفى: أنتِ وعدتهِ وهدى بخاتَمي خطوبة.

ابتسمتْ. رمت عبارة ملغزة: ها هم الآخرون يتزوجون ويخطبون ونحن لسنا أكثر من شهود.

وشمّ رائحة تشي بقطيعة نهائية مع زوجها عاصم. بدت الفكرة محمولة على أمواج من الفكاهة العابرة أكثر منها قناعة جادّة. وسألها إن كان عاصم يعيش في وهم بتولتها وعفافها المقدس.

ـ نحن أحرار في حياتنا. لسنا أكثر من صديقين كما ألمحت لك.

وليبتعدا عن طريق تأويل الارتباط الوهمي قال: أنا وأنت مخلوقان لا يصلحان للزواج. للتدمير نعم. كل منّا يحمل شحنة ديناميت كافية لتدمير جبل. وما يُخشى أن نتطاير في لحظة انفجار. وانعطف نائياً عن اضطراب الجنون العاشق الذي دهمهما بعد فوات الوقت: ما الذي ستفعلينه بالبيت في غيابك؟

طرحتْ فكرة انتقاله إلى الشقة أو التناوب بين المنزلين.

هزّ رأسه نفياً: في هذه الحالة ستتعزز شكوك الأمن ويصبح بيتك فخاً لاصطيادي.

واستطرد: لدي فكرة ما رأيك لو ينتقل عارف وصديقته الفلسطينية إلى البيت. هو ومنى خارج الشبهات. أو على الأقل هما محميان من المقاومة!

وأضاف: أوراق ومواد المجلة تبقى عندي.

بعد خروجها حلق ذقنه واستحمّ.

استلقى على السرير. كان عبق عطرها على المخدة ورائحتها طي اللحاف.

وفكر بأن ما حدث جاء عفَويّاً جرّاء البؤس الذي كان نهبه. وبدت له الحالة العابرة جائزة ترضية. ليلة سريالية، مورس الحب فيها تحت ضباب الثمل وفي نوبة هذيان.

فيما بعد، وهي بعيدة عنه بعد سفرها، سيسأل نفسه إن كان يحبها حقاً، أم أن الأمر لا يعدو نزوة عابرة في مجرى جفاف نهر الزمن! وحين ستصله رسالتها بعد عشرين عاماً، سيتأكد بأن صخرة الصداقة أكثر صلابة من موجة الحب العابرة. الحب الذي نتوهم أنه خالد أو مستمر من خلال الصعقة الأولى وشرارة انصهار الجسدين قبل انطفاء النزوة.

77

أخبرتنا هدى أن شوقي خرج من المشفى وهو بخير.

كنت ورئيف في المكتب نضع لائحة بأسماء كتّاب عرب مميزين يمكن للدار أن تنشر لهم، وأخرى بكتب أجنبية للترجمة مع أسماء مترجمين من مصر وسوريا ولبنان.

تداولنا حول ضرورة الانتباه لاختيارات الكتب ذات القيمة الثقافية، لئلا تكون منشورات الدار كوكتيلاً فسيفسائياً. كما يجب التوازن بين الحسّ التجاري والهدف الثقافي.

وقلت بأن هوية الدار مختلفة عن هويّة المؤسسة العربية في بعض الاتجاهات ذات المنحى التجاري والسياسي.

ونبّهت إلى الجهات السياسية التي ستحاول الدخول من الأبواب الخلفية تحت إغراءات وذرائع متعددة منها المالية أو حماية الدار أمنياً، ومن المفيد توطيد صلات مع اتحاد الكتاب الفلسطينيين واللبنانيين.

كنا متفقين حول الخطوط العامة للنشر، وسألني حول استقالتي من المؤسسة ومباشرة العمل في الدار، فأوضحت له بأن وضعه المادّي الآن لا يسمح وبقائي حالياً في المؤسسة أفضل، ويمكنني العمل معه بعد الظهر، كما يمكن مراجعة أي مخطوط يرد إلى الدار في البيت.

وأردفت: ما زلنا في البداية. وحتى تُعرف الدار وتُشهر على المستوى العربي لا بد من عام أو أكثر.

مساء اتفقنا وسامية على زيارة شوقي في الضاحية الجنوبية.

سألتُ سامية عرضاً إن كانت اشترت الخاتمين فضحكت.

- كيف لي معرفة المقاس يا فهيم. فيما بعد نأخذ قياس إصبعيهما ونحتفل إذا كانا موافقين. الآن زيارة فقط.

حوالى التاسعة ليلاً كنا في بيت شوقي الكائن في حارة «الرويس» الشعبية.

لأول مرة يتحرك شوقي بلا عكازة، لكنه يعرج قليلاً. ضاحكاً أهّل بنا. عانقناه وطلبنا منه الجلوس فقال بأن الطبيب نصحه بالحركة الهادئة والبطيئة كي يعود مفصل الحوض إلى وضعه الطبيعي.

البيت غرفتان، وصالون متوسط الاتساع، أرائكه الناسلة تشير إلى قدمها. يبدو البيت المهجور مغبرّاً وفوضوياً حاولت هدى ترتيبه وتنظيمه على عجل قبل خروج شوقي من المشفى.

في زاوية من الصالون خزانة زجاجية تحوي كؤوساً وبعض الأواني الصينية، وعلى الرف السفلي صفّت زجاجات خمر متنوعة: عرق، ويسكي، فودكا، كونياك.

فتحت «البوفيه» ووضعت فيها ليتري عرق وليتر ويسكي قرب أنسبائهم من الكحوليات المتراصفة.

سألنا شوقي ماذا سنشرب. قال رئيف: قهوة.

نَبَر: لا. شو قهوة. هدى حبيبتي هاتي ويسكي. ولو. هذا يوم المُنى ولمّ الشمل.

- أختي هدى. أنا أريد قهوة مع كأس كونياك. قالت سامية.

سأل شوقي عن أحوال المؤسسة والدار الجديدة المباركة.

رويت له ما جرى في غيابه، من زواج رئيف إلى ملف الأمن.

بارك لرئيف بالزواج. وحين وصلنا إلى الوضع الأمني اكفهرّ. لم يترك كلمة في قاموس الشتائم والبذاءات إلا وقذف بها ضد الأمن.

قال رئيف ضاحكاً: هوّن عليك أبو الشوق. صحتك وسلامتك أهم من هذه التهديدات الفراغية. وأضاف بأن الأمور تسير على مايرام والدار بانتظار شفائك النهائي.

وسأل سامية عن وضع المجلة فقالت بأنها في عهدة هزيم ورئيف بعد سفري.

- إلى أين ستسافرين؟

- إلى لندن مبدئياً ثم إلى بعض البلدان العربية.

- وتتركين عرّابنا وحيداً؟ لغَمَ الجو بافترارة مرحة.

قلت، وأنا أفكك اللغم: أظن أنني سأربح رهان الغداء في مطعم آغوب والسهرة في بار قوس قزح.

بدتْ سامية مبهوتة من هذه الألغاز. رنت نحوي متسائلة. شرحت لها مؤامرة الرهان.

- لكنني سأعود. قالت ببهجة.

ضحكنا: نخب العودة. رفع شوقي كأس الصداقة العميقة.

- أبو الشوق ليكن في علمك أننا لن نحتفل هذه المرة في ملتقى النهرين. هذرتُ معه.

ضحك شوقي: شو أخي هزيم. يبدو أنك حوّلت الحادث إلى قميص عثمان. غلطة وصارت، في حدا معصوم عن الخطأ؟

هكذا، برغبة وقوّة الحياة، كنا نقهر نذر الحرب، ونزيح أشباح الموت والدمار القادمين. بدت أمواج الأشواق وينابيع الحبّ المتدفقة في شرايين الدم أقوى من جحيم الحرائق والقتل.

كنا نقاوم أصداء الموت القادم بصرخة الحياة.

78

حسب شهادة شيمون شيفر، سيروي بشير الجميل للضباط الإسرائيليين، وهو في حالة من الزهو، وقائع معركته الأولى وهو في الثامنة والعشرين من العمر.

كانت معركة التعميد بالنار في عين الرمانة في 13 نيسان 1975.

«نهضتُ في ذلك اليوم، ومثل كل يوم أحد، وتوجهت إلى الملعب البلدي في بيروت، لأتدرب من العاشرة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر. عدتُ إلى البيت واستحممت، ولسبب ما كنت أشعر بالحزن في البيت. وبدا حرس والدي بيير متوترين. كان من المفروض أن نشارك في تعميد طفل ابن شهرين يدعى بشير أبو عاصي وذلك في كنيسة مار مخايل الجديدة. ارتدينا أفضل ثيابنا واتجهنا إلى الكنيسة حيث كان الجمع يستعد للاحتفال. وبينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث حاول باص ينقل مسلحين فلسطينيين المرور عبر طريق الكنيسة. حاول حاجز الشرطة إيقافه حتى لا يستفز ركابُه رجالنا عند مدخل الكنيسة. لأن علاقاتنا مع الفلسطينيين كانت سيئة ومتوترة. اخترق الباص الحواجز، وأمام الكنيسة طلب رجالنا من سائق الباص الرجوع إلى الوراء فانهمر علينا رشق من الرصاص. يوسف أبو عاصي والد الطفل، وأنطوان الحسيني، قتلا على الفور.

ردّينا على النار بالمثل فقتلنا جميع الفلسطينيين الذين كانوا داخل الباص».

كانت هذه شرارة الحرب المنتظرة، وبداية الدمار للبلد الذي سيعاني ويحترق ويتهشم على مدى عشرين عاماً. البلد الذي سيدخل الإسرائيليون عاصمته فيما بعد، في أعقاب الخروج الفلسطيني، بعد ثماني سنوات من بداية الحرب الأهلية.

زلزل الحادث المروّع والغادر، والذي ذهب ضحيته أكثر من عشرين فلسطينياً، بيروت الغربية والمقاومة.

رأت المقاومة والحركة الوطنية في المجزرة اغتيالاً، واستفزازاً متعمداً لإيقاد نار الحرب.

في بيت رئيف سمعنا بالنبأ من التلفزيون اللبناني الرسمي.

تحت جوّ من الوجوم والبهت، قرأت في عيني رئيف ووجهه الكامد السؤال الذي سيُطرح فيما بعد.

نحن الآن بلا وطن سوى هذه البقعة الصغيرة المطوّقة والمسماة بيروت الغربية، وراءنا البحر، وأمامنا الجبل، وفي الوسط المقاومة. وما كان هناك من مفرّ.

على وقع النبأ المفجع حضرت سامية. كانت في حالة ذهول وتوتر. حيّت وسألت عن الوضع وعواقب الحدث.

ـ لا أحد يعرف شيئاً سوى التلفزيون والقيادات.

قدمت سناء القهوة. كانت سامية تدخن بعصبية وانفعال.

انتظرنا حتى يهدأ توترها قليلاً.

اقترحتُ عليها الإسراع في تجهيز أوراق السفر: الوضع سيتفاقم في الأيام القادمة نحو الأسوأ.

وقال رئيف بأن المطار معرّض للقصف في أية لحظة: نحن محكومون بالبقاء أما أنت فلست مجبرة.

في وجهها لاحت غيوم ضيق وحيرة.

بدأت أصوات الطلقات الرشاشة والمدفعية تُسمع بعيداً.

قال المذيع بأن الكتائب تطوق مخيم تل الزعتر والكرنتينا، وقوات من فصائل المقاومة تتحرك للمواجهة والدفاع عن المخيم.

لا بد أننا فوجئنا بسرعة تواتر الأحداث.

وبدا السؤال اللاجواب له هو: كيف يمكن العمل في مناخ الحرب؟ وهل من السهل الاستمرار؟

اقترحتْ سامية أن تُودَعَ بقية مواد المجلة لدي، وشرح رئيف بأن الأحوال ستسوء خلال الأشهر القادمة، لكن المعركة تبدو طويلة ومعقدة، وهناك أطراف إقليمية ودولية لن تبقى على الحياد.

في الخامس والعشرين من آذار، بعد مجزرة عين الرمانة، كان في حوزة سامية بطاقة الطائرة إلى لندن مع تأشيرة الدخول.

في ليلة ما قبل السفر، تحت دويّ الاشتباكات المتقطعة، احتفلنا بوداعها في بيتها. عصابة ملتقى النهرين، كما دأبنا على تسميتها، ومعنا سناء زوجة رئيف، كنا نهيئ العشاء الأخير بالتعاون بين المطبخ والصالون الواسع.

أخيراً قرّ قرارها على انتقال عارف ومنى إلى الشقة في غيابها. وخلال السهرة الوداعية كررت سامية، وهي تحت سُحب الكآبة والأسى، بأنها ستعود في غضون شهر على الأكثر. وقال شوقي، الذي سنلقبه بالأعرجِ الموسوي (باعتباره حامل ألواح موسى من طور سيناء) مستقبلاً، بأنه حزين لسفرها لسببين: أولهما الفراق والثاني دَيْنُها الذي لم تسدّده.

دهشت: أي دَين؟

ـ الخاتمان يا عزيزتي!

وصاحت: واه. غمرةُ الحرب وإجراءات السفر أنستني.

وبعفوية عرضت تقديم ثمن الخاتمين والاحتفال بالخطوبة في غيابها.

ـ سأكون في منتهى السرور. صدقاً شوقي!

وردّ شوقي معاتباً: ولو ستّ السموّ. نحن نتحدث عن الفرح وحضورك وليس عن النقود.

لولا ردّ شوقي الأبي لكان بودّي أن أهزّها صارخاً في وجهها، كاتماً عبارة: اذهبي أنت ونقودك إلى... لكنني اكتفيت بالنظر إليها شزراً.

أحسّتْ بالخزي فاعتذرت.

قال شوقي: سنؤجل الخطوبة حتى تعودي بالسلامة.

في المطار ودّعنا سامية وفي العيون عبرات.

ـ أسافر وقلبي معكم. سنبقى على اتصال.

قالت بغصّة.

79

بعد ثماني سنوات من الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982، ستتحول عاصمة بلاد الأرز الجميل إلى أنقاض.

الدخول في حيثيات ووقائع الحرب الوحشية ستترك للتاريخ ومؤرخي الحروب.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه عبوراً، هو أن المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية واجهتا الحرب، بفرعيها المتكاتفين، الكتائبي والإسرائيلي، ببسالة وتضحيات سيشهد عليها حتى العدو فيما بعد.

وخلال مسلسل الحرب والسنوات السبع العجاف، لم يتوقف العمل في دار ابن رشد التي نهضت على قدميها وسط الرماد والقصف العشوائي الكثيف.

حين قُصف بيتي في الرملة البيضاء بقذيفة من الزوارق الحربية الإسرائيلية، ونجوت بأعجوبة سحرية (رددتها إلى تميمة أمي التي زودتني بها وفيها عبارتها التي لا تنسى: الله يحميك يا ابني من الظلاّم وأولاد الحرام)، اقترح رئيف انتقالي إلى منزله الآمن في الطابق الأول بشارع فردان، في حين سيكون مع سناء ببيت أهلها في عائشة بكّار الأفضل أمناً.

سيكون من الصعب اختزال سنوات الحرب في مسار مشهد روائي (مسار يشكل رواية ملحمية سيكتب عنه الكثير فيما بعد).

لكن الحصار والتجويع وقطع المياه والوقود وصور القتلى ودويّ المدافع والطائرات والاضطراب والفزع، وتوقع الموت في أية لحظة سيرسو أمداً طويلاً في حنايا الذاكرة ولن يموت.

كان الموت آنذاك على مسافة الوريد.

عايشناه كأليف كريه غير مرغوب فيه، فرض علينا صحبته بقوّة خارجة عن طاقتنا، ودون استئذان.

قبل خروج المقاومة من بيروت في العشرين من آب تداولتُ مع رئيف حول استحالة بقائنا في بيروت المحاصرة من قوات الغزو الإسرائيلي.

كان الوداع مريراً ومخضباً بالدمع، ولم يخطر في البال أنه الوداع الأخير. (سيعيش غريباً ويموت غريباً ويُدفن في بلاد غريبة).

رحل مع زوجته وابنتيه مع المقاومة إلى تونس. وبعد شهر غادرت إلى قبرص للعمل في الصحافة العربية المهاجرة.

بعد شهر ستصلني رسالة من شوقي يخبرني فيها بأنه تزوّج، ويشرح الوضع السياسي الكارثي في لبنان، وحالته المادية المزرية، بعد هيمنة الكتائب، وانشقاق الجيش، وتطهيره من العناصر الوطنية، ووقوع الصحافة والإعلام تحت الرقابة اليمينية المعادية، وزاد الطين بلّة دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت بعد هزيمة الحركة الوطنية اللبنانية، وحصار الضاحية الجنوبية.

كتبت له رسالة سريعة أخبره فيها بأنني الآن المسؤول عن القسم الثقافي في مجلة «الموقف العربي» وسأقترح على إدارة المجلة أن يكون المراسل الثقافي في بيروت.

طلبت منه فتح حساب محدود في أحد المصارف لإرسال راتبه إليه في أول كل شهر.

وختمت: كن مطمئناً. الإدارة لا تردّ لي طلباً. والمجلة بحاجة إلى مراسل لبناني لتغطية الأحداث السياسية والثقافية.

تهانيّ لك ولهدى.

80

بعد استراحة الحرب يبدو إيقاع الحياة في نيقوسيا مملاً وبليداً. وبعد أقلّ من عام سأشعر بالتصحر في الجزيرة التي سأسميها في يومياتي: جزيرة النعاس الأزرق.

وحده البحر في مدينة لارنكا للصيد والسباحة مع بعض الأصدقاء يزيح قليلاً كابوس الضجر.

في الليالي، البارات، خاصة بار أندريا «الجرّة» (على مدخله دنّ ضخم من الفخار كأنه حارس يوناني يرحّب بالقادمين) يذكرك ببار قوس قزح وأبو جورج في الروشة.

وإذا ما هفا جسدك إلى جسد امرأة ما عليك سوى الانحدار في شارع مكاريوس منعطفاً إلى اليمين نحو الأحياء الشعبية حيث الكباريهات وبيوت المومسات اليونانيات والفلبينيات والتايلنديات والمغربيات.

(قبل وفاته جمع الأسقف مكاريوس فتيات قبرص التقيّات في كاتدرائية القديس فرنسيس، وختم على فروجهن ختم البتولة سوى بالزواج الكنسي من مسيحي فاضل ومتزمّت يؤم الكنيسة في أيام الآحاد جميعها).

تحت ضباب الثمل بالأوزو القبرصي والكونياك الحارق، تسفُّك رياح الحنين. ترحل الطيور نحو البلد البعيد والأطفال المهجورين.

ترغب لو تخطفهم وتضمهم تحت جناحيك قاطعاً الحدود والبحار والصحارى، بعيداً، بعيداً، عن كلاب الأمن الشاردة والمسعورة.

وها أنت تكتب في اليوميات أواخر الليل: الروح متعبة والجسد حزين. الزمن يعبر. يكسرك كما تكسر العاصفة أغصان الشجر. ويمضي. لا أحد يسمع أنين الغصن وهو يهوي فوق التراب. كما لا أحد يسمع صرخة حنجرة الطائر وهو ينتفض تحت شفرة السكين.

وها أنت تشيب وتشيخ في غابة الزمن. وحين ستموت ستشبه ورقة صفراء مهملة تهوي بها الريح نحو الأنهار المنسية. وفي بداية عام جديد لا يختلف عن الأعوام التي عبرت، يكتب للأم رسالة لن تصلها:

«عمي مساء أيتها الأم الحزينة.

كل عام وأنت بخير.

لا بدّ أن الشتاء كان قاسياً عليك يا أماه. فالليلة شديدة الحُلكة في هذا الغسق المدلهم. إنه ينهمر فوقي كما انهمرت الغشاوة على عينيك فعميتِ. كلانا ضائع ومضيّع فلا يعرف الطريق إلى البيت، وكلانا يتلمس الحجارة والعلامات تحت ضوء النجوم الخابية. غير أن المنازل نائية في هذا الغسق، أنأى من هذه الكواكب السحيقة التي تومض وتنطفئ فوق سطح بيتك القديم. الكواكب التي أرفع ذراعي باتجاهها لتقول لك: سلاماً.

لو قلت أنني أحبك ومشتاق إليك وإلى أحفادك الورديين كزنابق الحقول، وكفى، لكان قولي عادياً. لكنني أخبرك بأن دمي استُبيح من أجلك وأجلهم، وأن رائحة ثديك ما تزال في فمي، ومن تلك الرائحة الزكية والمباركة أستمد قوتي وعزيمتي في الغربة. وصلني أنك قلقة، وتتوقين شوقاً إلى ولدك قبل أن تموتي.

سآتي يا أماه حين تنفجر البراعم في الحدائق، وحين يتفتح زهر لوز البساتين، وتشرق الشمس من جديد فوق قرانا.

أيتها المتألقة كنجمة الزُّهرة فوق حقول البحر، أنت ضوئي في هذا العتم.

عمي مساء يا أمي: كيف حال البلد الصغير وبيتك الأبيض ذي الرائحة المنعشة بأوراق الحبق والغار، كيف حال الأشجار المطوّقة للبيت وكرم الزيتون (هل ما زلت تنحدرين نحو وادي الغار وتحملين الأغصان على ظهرك الذي حناه الزمن ولم يكسره). كيف حال طيورك الداجنة وحيواناتك الأليفة، وكيف حال أحفادك المطوّقين بالشوق والفزع.

عمي مساء يا أمي فأنا ما زلت، رغم المحن وكعهدك بي، ناهضاً لم أنكسر».

كنت ثملاً وحزيناً وأنا اكتب، وحين أعدت قراءة الرسالة في الصباح فكرت بتمزيقها وحرقها. أحسست بأنها مريرة وجارحة، وستورثها المزيد من الغمّ والبكاء.

81

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا ربعاً في الليل حين رنّ الهاتف. كنت وحيداً، أمامي خضار وفواكه وصحن سلطة وزجاجة أوزو، أشاهد فيلماً تلفزيونياً ناطقاً بالإنكليزية ومترجماً إلى اليونانية أحاول فهم فحواه من خلال الصور.

كانت المخابرة من لندن، ولوهلة خمنت أنها من سامية، غير أن الصوت النسائي جاء غريباً وهو يقول بالإنكليزية بأن سيادة السفير على الخط.

منذ زمن لم نلتقِ أنا والسفير، ونادراً ما كنّا نتهاتف رغم قِدم صداقتنا العميقة التي تعود إلى أكثر من ثلاثين عاماً.

ـ مرحبا. كيفك. ماذا تشرب؟

ـ أوزو قبرصي تافه وبليد بلادة هذه الجزيرة.

ـ أنا أشرب سكوتش ويسكي.

ـ طبعاً. السلطة تشرب الويسكي أما عامة الشعب فتشرب الأوزو أو العرق البلدي.

ـ كاسك.

شربنا النخب على الهاتف.

ـ اسمعني جيداً. ما سأقوله لك جدّي للغاية. وفي النهاية القرار يعود إليك. أضاف مفاجئاً: هل تريد العودة إلى البلد؟

ـ هاه. ما وراءك؟

وشرح باختصار عن وجود وزير الإعلام في لندن لإجراء فحوص طبية حول مرض عضال، وقال بأن الوزير كان يتعشى أمس في بيته وتحدث عن إمكانية عودتك إلى البلد: بالمناسبة أنتما صديقان قديمان كما أشار وهو يكنّ لك التقدير والإعجاب.

وأوضح بأن الوزير سيأخذ على عاتقه مسألة دخولك إلى البلد بعد إجراءات اتصالاته بالجهات الأمنية المختصة.

أجبت: مبدئياً ليس لدي اعتراض إنما بدون بهدلة الاستدعاء الأمني أو التحقيق المهين.

مازحاً ردّ: الوزير هو المسؤول. وسأتحدث معه هذا المساء.

وأضاف: غداً في مثل هذا الوقت سأتصل بك. باي.

يا للمفاجأة الغريبة! كنت مبلبلاً. أنوس بين حالتي الشك واليقين ولأنني أدرك مدى المودّة العميقة بيني وبين السفير أحسست بجدية الموضوع.

حتى ساعة متأخرة من الليل كنت أبني أبراج الأمل ثم أهدمها.

كبروق خاطفة عبرت الأزمنة الصعبة. ليالي النفي والحرب والموت. الشوق الحارق للأم والأطفال. صور ملونة ورمادية. اختلاطات لوحة شبه سريالية تشير رموزها اللامعقولة إلى عبثية الأشياء ودورتها اللولبية المتداخلة.

مساء اليوم التالي، في الثانية عشرة ليلاً، اتصل السفير. وكعادته في المزاح سأل عما أشرب. ودون انتظار جواب قال بأنه سيرسل لي عبر الأثير زجاجة ويسكي اسكتلندية أصلية. واستطرد ضاحكاً: من الأفضل أن نشربها سوية في دمشق أو القرية. وشرح بأن الوزير جادّ في مسألة العودة. حين وصولك إلى المطار سيرسل إليك مسؤولاً من الوزارة لاستقبالك. سيكون بانتظارك في مكتبه ليهنئك بسلامة العودة.

وأضاف: احتياطاً، وحتى تتم إجراءات الاتصال الأمني، سجّل

رقم هاتفه الخاص، وابقَ على اتصال معه. سنكون على الخط فيما يستجد.

بعد قرابة الشهرين من الاتصالات وافق الأمن على عودتي شريطة التخلي عن ممارسة الشأن السياسي والانصراف إلى الأمور الثقافية. وسيقول لي الوزير على الهاتف: نحن سعداء بعودتك. أخبرني متى ستصل سأكون بانتظارك في الوزارة.

82

من مطار لارنكا إلى مطار دمشق مسافة ستين دقيقة من الزمن الميكانيكي، لكن الزمن النفسي كان ممتداً حوالى عشر سنوات من الهجر والشوق والتوجس.

زمن قديم يستعاد الآن. لونه الطفولة والدم والبحر والاغتراب.

وزمن جديد مضطرب، هائج كالبحر، شبيه مواجهة النبات وهو يشق قشرته الأرضية لاستقبال العناصر: الريح والشمس والأمطار.

صاحٍ بكل حواسّي ومنتبه. أرى الفضاء المضيء وسلاسل الجبال وغابات الغيوم البيضاء. لأزيح الاضطراب الداخلي أطلب كأس ويسكي وأدخن. شريط الأزمنة القديمة يعبر مفككاً. أية صورة تعبر لا تتجاوز الثواني على الشاشة. الزمن يعدو برقياً: نحن على ارتفاع عشرة آلاف قدم. عن يساركم مدينة طرطوس المضاءة، يقول ربّان الطائرة. من النافذة، عبر الظلام الخارجي، لمحت أضواء بعيدة تشبه الشموع. وثب القلب كعصفور نائم.

استفاقت الأزمنة القديمة لكأنني منذ مليون عام لم أرَ هذه المدينة التي لم أحببها أبداً فيما مضى. مدينة الغبار والضوضاء والتجارة، وحبّي المراهق والخائب. الآن أشعر بالشغف نحوها، تأتيني رائحتها من السهول الشرقية وكروم الزيتون. تعبق رائحة النرجس البرّي في شعر حنان التي ضاعت عشية مداهمة تلك الليلة المفزعة.

بعد دقائق نهبط في مطار دمشق الدولي: رجاء ربط الأحزمة.

كم من المرّات سمعت هذا النداء في فضاءات أسفاري. إنما هذه المرّة أسمعه فوق المطار الذي خيّل إلي أنه شُطب من ذاكرة السفر.

على مدى الشهرين كانت الاتصالات جارية من لندن إلى نيقوسيا، ومن قبرص إلى دمشق، والعكس، لتأمين عودتي بضمانة وزير الإعلام.

ومع ذلك كان القلب يخفق باضطراب خشية الأجهزة الأمنية التي تعمل برواقية ومزاج بعيدين عن القوانين.

حين نادى أحد الشرطة باسمي، ارتعشت الدماء في الشرايين. تقدم مني رجل مدني وصافحني: أنا مندوب وزارة الإعلام؛ مكلف من السيد الوزير بالإجراءات. اسمح لي بجواز السفر.

جواز سفري يمني. مرّ على قسم مخابرات المطار مع الموظف المكلف باستقبالي. قال: غير مطلوب. الأمور طبيعية.

المواطن اليمني المسجل في الجواز باسمي الحقيقي يسمح له بالدخول.

رائع. المهم أن تدخل إلى بلادك ولو بجواز سفر مزوّر.

لم أصدق وأنا أعانق أولادي، الذين كبروا في غيابي، وأصدقائي خارج قاعة التفتيش. أشواق ورعشات ودموع.

عبرات الفرح بدت كاللآلئ بين عشب العيون.

هم كانوا هناك: مجد وماجدة ونهلة ووافد، وأنا بينهم أتحسسهم وأشم روائحهم لكأنهم نيازك ورد هبطوا للتوّ من سماء الله.

كان هناك الأصدقاء: ممدوح، وعادل، وحسين، وآخرون.

فيما بعد سيتجلى فرحنا، حين نبدأ احتفالاتنا الليلية، ونحن ننغمر بالغناء والرقص والثمل واستعادة الأزمنة الخضراء والرمادية.

الحبور في دمشق.

الحزن في دمشق.

في مكتبه استقبلني الوزير مؤهلاً. نهض من وراء مكتبه وعانقني بحرارة: الحمد لله على سلامتك. شرح لي باختصار مسار المفاوضات الأمنية وعلّق غامزاً: أنت تعرف عقلية رجل الأمن الريبية والحذرة. طلب لي قهوة وزهورات له. قال: المهم الآن أنك ستعود مواطناً سورياً لا يمنياً. إذا حدث ما يزعجك اتصل بي. رقمي الخاص لديك.

شاكراً ودعته راجياً له العافية والشفاء.

أمواج الغبطة تجتاحني مع الأصدقاء وأبنائي، لكأنني أولد اللحظة على شواطئ بلادي التي كنت أعرفها فيما مضى كما أعرف أصابعي. الآن تتبدل الخريطة الدمشقية التي سرَيتُ عبر أنفاقها وشوارعها سريان خِلد ليلي كان مسحوراً برائحتها وانخطافاتها.

والآن وأنا أسري فيها، تبدو لي مدينة أخرى لا أكاد أعرفها. أسوار من الحجر. سرطانات من الإسمنت والجدران التي تسدّ الأفق والفضاء. فنادق وجسور معلّقة. وبردى اليتيم ما يزال على حاله المزرية.

ضوضاء هذيانية تتفجر من السيارات والحافلات والبشر الذين يتناكبون في الشوارع، غبار وعسكر وفضاء معتم بلون الرصاص، لكأن الأوكسجين قد سحب منه.

اختفت الحدائق والحانات الشعبية، وأكشاك الكتب ومقاهي المثقفين الرصيفية، وانتصب السوق كإله فوق الشوارع.

نهضت القصور الرئاسية والستادات الرياضية والأتوستر ادات وفنادق الدرجة الأولى.

ياللنعمى البترولية الهابطة على بلاد الشام!

مجد تارة وتارة أخرى ماجدة، هما الدليلان في المدينة التي عشت فيها حوالى عشر سنوات والآن لا أكاد اعرفها.

أطراف المدينة من الجنوب والشمال تحولت إلى مدينة أخرى. جنون عمراني ـ طحلبي حوّل جغرافيا المدينة المنظمة إلى أخطبوط فاقمَ أزمة السكن بدلاً من حلّها.

المدينة تختنق لكنها لا تنظم.

فيما بعد سأعرف أنها ما عادت مدينة ناسها الأساسيين، ولامدينة الذين يهاجرون إليها لينتجوا ويبدعوا أسوة بالعواصم الأخرى في العالم.

في السنوات العشر الأخيرة اجتاح العسكر الوافد من جميع أطراف البلاد، المدينة وضواحيها، كما تمركز الكومبرادور التجاري في قلب دمشق، وهكذا تحوّلت المدينة عاصمة الدولة، إلى مكة تجارية، وإسبارطة عسكرية.

لقد سرى على الجميع قانون تحميه الدولة جوهره: النهب والرشوة والوساطة والثراء غير المشروع بالسبل السريّة والعلنية المفضوحة، انطلاقاً من مبدأ التلوث والفساد الجماعي، وسقوط الكلّ في المستنقع العطِن.

هوذا الوطن يتحول إلى مزرعة ومستعمرة للأقوياء ووحوش رأس المال.

في أعماق هذه المدينة الغريبة، التي ما عادت مدينة الناس العاديين من بسطاء البشر، ولا مدينة يحيا فيها المثقفون بمسرّة طليقة، عشتُ قبل العودة إلى القرية لحظات لا تنسى مع أصدقائي.

كانت الليلة الأولى في بيت الصديق الشاعر ممدوح عدوان. على مدى ساعات والأصدقاء يتوافدون احتفاء بعودتي. عناق وموسيقى وشراب ورقص.

في الفسحة الصغيرة لصالون البيت تحوّلت دمشق إلى عرس اشتعل بالبهجة الطاغية.

مجد ووافد عزفا على الغيتار مقاطع من قصيدة بيروت لمحمود درويش. غنّى ممدوح زجلاً حنوناً قادماً من هضاب وغابات قرى مصياف ودير ماما الساحرة، ترنّح على أمواجه شاعر دمشق الفاسق علي الجندي ورقص الدبّ الرافس عادل محمود. استعدنا زمان الحرس القديم في دمشق القديمة. زمن العشق والحرية والسريان الليلي في ضلوع المدينة الوضاءة. أيام كان الأمل والحرية والنساء شجراً من الرمان وزهراً من الياسمين على مدى الفم والأصابع.

ما كان باستطاعة اللغة وبلاغتها الخارقة، الإحاطة بما جرى في تلك الليلة الحميمة. كانت مشاعر الصداقة الدافئة والملونة ونيران العيون وحركات الأعضاء تتموج بمسرات عصيّة على الإدراك وهي تفيض في فضاء المكان.

كالصَّدَفة تحت الموج كنت مجتاحاً. ملايين الأمواج كانت ترفعني وترميني في عالم من الكريستال والضوء والأرحام. قربي على مدى الذراع والوجه أطواق من السنابل وأغصان الغار والحب المجتاح. أنثى ذكرتني بسامية، تتماثل مع ندى الصباحات الوردية، كانت قربي على حافة القلب. معاً شربنا، معاً رقصنا، ومعاً تعانقنا. همساً قال الآخر للآخر: أين كنت في الزمن الضائع. همست لها عن المفاجأة بها فدهشت: غريب! أنت لا تذكرني. التقينا فيما مضى. أنت الآن بيننا وأنا مغتبطة بقدومك.

- سعيد بصداقتك.

- أنا أيضاً. لقد طلبت منهم كي يمروا على بيتي للقائك في المطار. لكن الأوغاد ذهبوا بدوني.

ذكرتني بلقائنا في بيروت. قالت.

ـ آه. يا للذاكرة المفقودة.

وما كنت راغباً في ذكرى بيروت الآن. المدينة التي أحببت. العشيقة التي قُتلت في أحضاني وأنا عاجز عن دفع الموت عنها.

انهمرت أمواج الكآبة. أمواج ألم وغضب اجتاحتني وأنا أراقص المرأة الشهباء.

قذفتُ بهذه الأمواج الكئيبة بعيداً. اندمجت في الجو الاحتفالي: ها أنت حيّ وفي الوطن. لقد نجوت من الموت. طويت صفحة من صحائف المنفى، وها أنذا كالطفل أخطو بين أحضان الصحاب والأهل. قربي النساء الجميلات الحنونات، وفي مواجهتي أولادي المزدهرين كشجر اللوز في الربيع: هذا هو الوطن!

كيف تأتي أزمنة كانت منسية فيما مضى!

أزمنة من الحبور طواها الزمن الفاجع. أزمنة الحنين لانفجار ربيع ضائع. هي ذي أزهاره تولد ثانية فوق أنقاض حرب خُسرت.

في فناء دار بيتنا الريفي، المطوّق بالورد والشجر والضوء هانحن نحتفل. بشر من الزهر والصخب والحب. مهرجان من الشجر والأصوات المرحة والرقص. نساء وشباب وأصدقاء ومغنّون. طبّالون من الغجر والصعاليك والأطفال. حشد فوضوي كان يرقص ويغني تحت الشجر القمري.

ـ السنونو عاد.

الأرض والشجر والفضاء اندمج مع الصدى التراجيدي لصرخات الأم الحزينة وهي تتقدم محنية الظهر فوق عصاها: لكم تحبني أيها الرب الرحيم لأنك أريتنيه قبل أن أموت.

كانت تدق أرض بوابة الدار بكفيها وهي تحثو التراب، صارخة بندب تراجيدي ردّدته الأودية والفضاء وضلوع الرجال والنساء الخافقة بالحزن.

ينبوع من الدموع انهمر. هكذا طوّق الطفلُ أمه في الفضاء

الإلهي الغامر. في صفاء حليب الطفولة وهو يعبق من رائحة صدرها.

- ربي. كم تحبني. ها أنذا ألقاه بعد ألفي عام. طفلي الضائع. ربي لك الشكر والنعم إلى أبد الآبدين.

هما الآن منغمران فوق أرض الدار المزهرة. الرجل الذي كان طفلاً والأم العجوز التي عميت من البكاء عليه.

هو الذي كان تائهاً في المنفى.

وهي التي ظللته بأمواج الدعاء وسحب السلام في الغربة.

هاهما الآن تحت سماء الوطن الحزين.

- أمّي...

- ولدي...

ابتهالات. ولكن من يوقف هذا الرذاذ المنسكب لقلبين يتفطران في حدائق الله المفتوحة. هذه الرائحة الحليبية لأم وطفل كل منهما كان في منفى وطن!

ونحن نصعد أدراج الفضاء كنت ملتمًّاً في حضنها كرضيع. هي تنوح وتنشج، وأنا أتشبث بصدرها حتى لا أهوي وأتناثر مرة أخرى.

خلال ثوانٍ التمّت الطاقة. تكثفت في صرخة لم تخرج إلى الفضاء. أحسستها في أعصاب الدم ونبض الدماغ والحيز الصغير الذي يحتويني معها على الأرض.

داخل الظلمة وفي لمعان نجمة سماوية لمحتها من فوق كتفها الواهن، وعبر وميض خاطف، تذكرت الحادثة التي جرت لي في بيت الرملة البيضاء ببيروت آن بدأت المداهمات والهلع الذي يخرج القلب من الصدر، وكيف قلت لنفسي باكتهان نبوئي: لن تُداهم لأن أمك تدعو لك الآن: اللهم احمِهِ من الظلاّم وأولاد الحرام.

يومها لم أُداهم.

على مدى أكثر من عشرين يوماً أنهكني الاستقبال الجميل، المبهظ.

روح القرية وتضامّ الريفيين في المِحن، هبطت كملاك مجنح بالمحبة والألفة. الروح القديمة المتوارثة للتواشج الجماعي استعيدت.

احتفال اليوم الخامس لا ينسى. مشهد مسرحي يذكر بالطقوس البدائية. بغتة ونحن سهارى في حديقة البيت، دوّت الطبول والأرغولات الغجرية والمزامير والهتافات والأغاني. حشد من صعاليك القرية والأصدقاء والأطفال يتقدمهم الغجر بطبولهم ومزاميرهم الملونة، عقدوا حلقة دبكة أمام ساحة البيت.

بعد دقائق غصّت الحديقة والساحة بالحشد. احتفال عفوي يخطف الروح بالغبطة ونشوة الزمان المفقود يذكر بالأعراس والأعياد القديمة.

سحبوني إلى حلقة الدبكة. كنت أضرب الأرض بقوة كي أتماسك. أتشبث بصلابة الأرض كي لا أصرخ أو أنتحب فرحاً. تعبرني المنافي والحصارات والحرب والموت. ذكريات صارت الآن نائية، يبدّد غبارَها هذا المطرُ المنهمر من الوجوه والأصوات والعيون والأيدي والأقدام الراقصة. كؤوس العرق تعبر فوق الراحات نحو الجمع. مسرّة جماعية لقلوب تطلق نشوتها فتتعانق مع أزهار الحديقة. أُختطف من الحشد فأرى جسدي طائراً فوق أكتاف الأصدقاء. يضرب الغجر طبولهم بقوة مع زغاريد الشوباش فتدوي الأصداء فوق الأودية والفضاء. يرفعون قبضاتهم المليئة بالنقود، يشوبشون للعريس زينة شباب الضيعة والعائد بطلاً من بيروت. يشوبشون للفدائية والمقاتلين الذين صمدوا في حصار بيروت.

أمي وزوجتي والنساء والفتيات يزغردن لفلسطين ولبنان المقاتل: هيها. هيها. تتنامى كنشيد مغلّف بالكبرياء والفخار: هيها. هيها. للشهداء في الوطن وشهداء بيروت. الروح التي تصعد الآن

موجاً من الفرح السماوي لشعب اعتاد على مدى الأزمنة تقديم الضحايا في أزمنة المحن حتى صار الموت إيقاعاً عادياً في طقوس حياته.

في صباح بنفسجي بليل بالندى، بعد نهاية عرس الاحتفال، هبطتُ مع مجد إلى كرم الزيتون باتجاه وادي الغار. عبقتْ رائحة وديان الطفولة والفتوّة الطائشة. رويت له حادثة إحراقِ معتزل جدّه في نوبة من نوبات الجنون، قبل ثلاثين عاماً، وكيف أُصبت بالهلع جرّاء هذا العمل الآثم.

من سفح وادي الغار بدأ يقطع بمديته أغصان الغار. ضفرها إكليلاً وضعه كتاج فوق رأسي. انتابتني رعشة بكاء وهو يقول محبوراً: جئنا إلى هنا لأتوجك بالغار.

حين عدنا إلى البيت والتاج على رأسي صرخ مجد بنبرة مسرحية: هوذا الملك. حيّوا الملك.

انطلقت زغردات أخوته وأمه وهم يؤدون التحية للملك المتوّج كاتمين فرح المفاجأة والضحك.

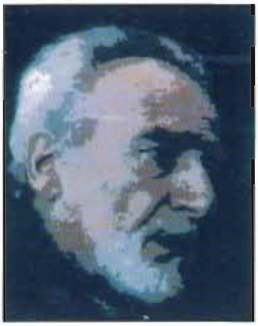
أجلسني وافد على كرسي العرش. كتب على ورقتي غار فوق جبهتي بالحبر الأحمر: المجد للمقاومة.

التُقطت الصور للعائلة مع الملك المزيف والمُختَرَع. ملك وادي الغار.

سأكتب فيما بعد عن هذه الواقعة المدهشة والغريبة: لو متُّ آنذاك لما كنت آسفاً.

وختمت: هل هذا الذي جرى حقيقة أم ضربة كابوس!

بحرون *2008*



هِجرةُ السُنونُو

فوق البحر كان السنونو يطير.

صدره الأبيض عموديّ مع السطح الأزرق.

عيناه تريان جانبياً الجزرَ وزوارق الصيد وناقلات البترول.

رأسه ممتد باتجاه الشاطئ والسهول الخضراء والهضاب.

على سلكٍ من أسلاك الهاتف تهاوى متعباً.

كانت الرحلة مديدة، مديدة، شاقة للطائر الرشيق والنحيل. الطائرِ القادم من وراء البحار.

من نافذة الطائرة كان الضوء يبدو مغبّشاً فوق السهب والضواحي المضاءة.

ثمة خفقان يرعش الأعصاب.

بعد لحظات سيهبط فوق الأرض التي نأت حوالى اثني عشرة عاماً.

تاريخ الغربة والمنفى.